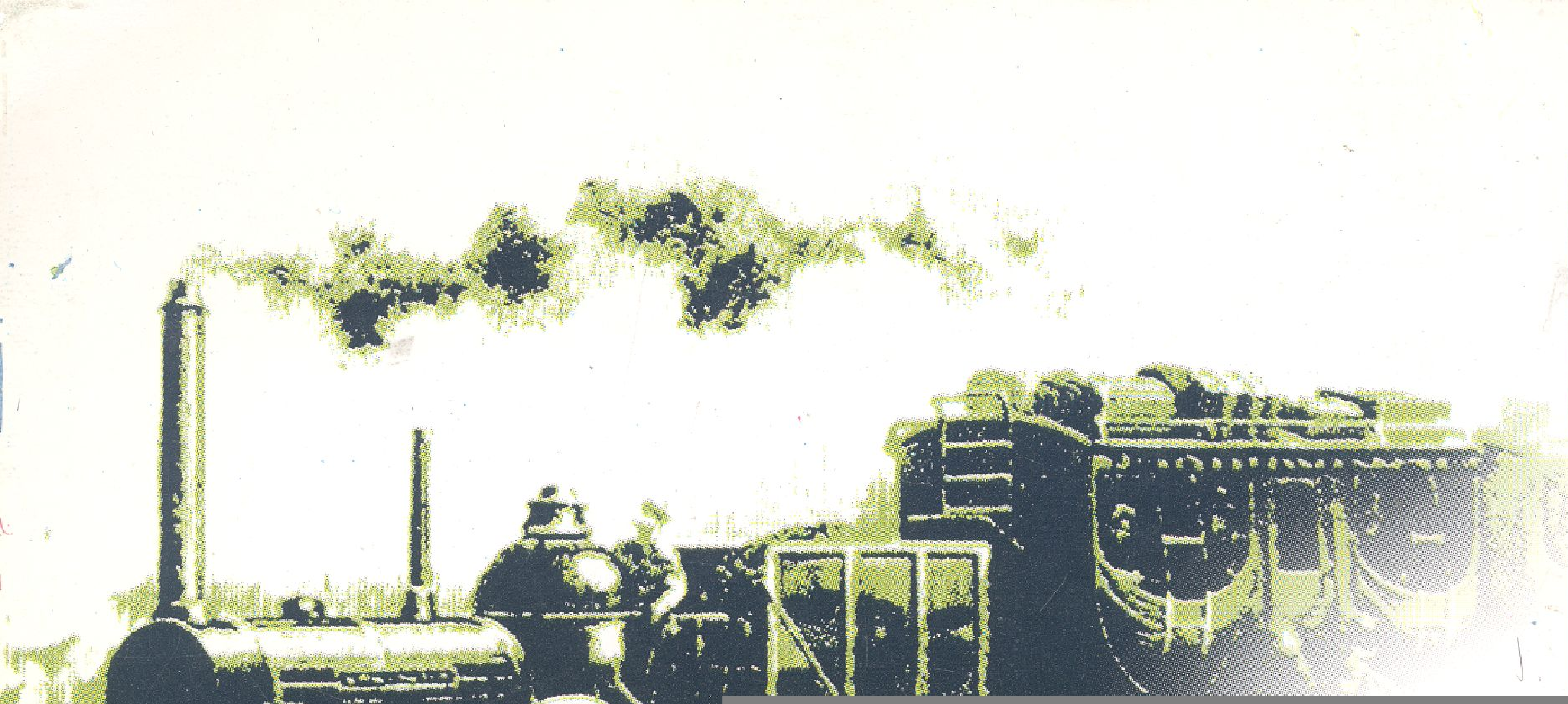
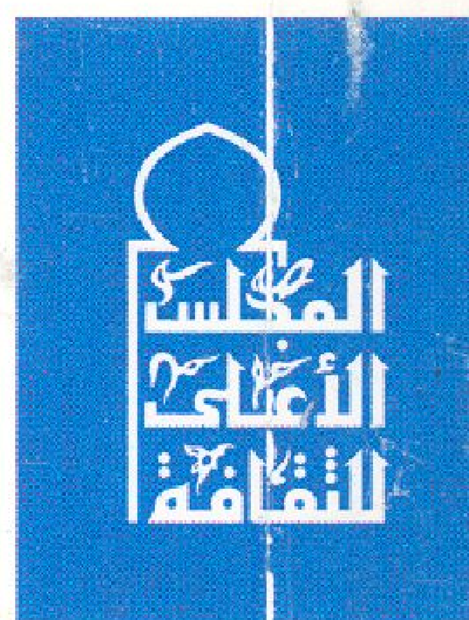



المجلس
الأعلى
للثقافة



المشروع القومى للترجمة

رحلة خواجه حسن نظامى الدهلوى

فى مصر وفلسطين والشام والحجاز

(١٩١١ م)

ترجمة وتعليق : سمير عبد الحميد إبراهيم



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : **جابر عصفور**

- العدد : ٢٨٥
- رحلة خواجه حسن نظامى الدهلوى
  فى مصر وفلسطين والشام والحجاز
- سمير عبد الحميد إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة لكتاب :

سفرنامه خواجه حسن نظامى

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E. Mail :** asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

مقدمة المترجم

يسرنى أن أقدم للقراء الأعزاء هذه الترجمة العربية لكتاب « سفر نامه خواجه حسن نظامى » التى يصدرها المجلس الأعلى للثقافة مساهمة منه فى إثراء الحركة الثقافية فى مصر والعالم العربى .

ويمكن تصنيف هذا الكتاب ضمن أدب الرحلات الذى يحتل - بلا شك - مكانة عالية بين فنون الأدب فى اللغات العالمية ، وله علاقة وطيدة بجميع العلوم الاجتماعية تقريبًا . وهنا تكمن أهمية هذه الرحلة ، ويزيد من أهميتها مكانة مؤلفها بين أدباء شبه القارة الهندية الباكستانية ، والفترة الزمنية التى مضت عليها (قرن تقريبًا) والبلاد التى سافر إليها الكاتب وهى مصر وفلسطين والشام والحجاز ، بالإضافة إلى الصور النادرة التى أثبتناها مع الترجمة نقلاً عن الكتاب الأصلى المهور بتوقيع المؤلف ، والتى يرجع تاريخها إلى سنة ١٩١١ م .

ولد خواجه حسن نظامى فى الثانى من محرم سنة ١٢٩٦ هجرية ، فى المنطقة التى يقع فيها ضريح « نظام الدين أوليا » لأب يدعى « حافظ سيد عاشق على » . أما حسن نظامى نفسه فكان اسمه فى البداية قاسم على ثم تسمى بعلى حسن ، وذاعت شهرته بالاسم الذى اختاره لنفسه وهو حسن نظامى .

درس اللغة الأردية والفارسية والعربية ، وحاول أن يدرس الإنجليزية فلم ينجح ؛ لأنه انشغل بكسب قوته بيده بعد وفاة والديه وهو فى الثانية عشرة من عمره . وكانت تلك فترة حرجة بالنسبة لمسلمى الهند الذين سلبهم الإنجليز حكم البلاد بعد أن كانوا سادتها ؛ ففى منطقة « نظام الدين أوليا » التى عاش فيها خواجه حسن نظامى عاش

أيضًا بعض أمراء المغول وأفراد الأسرة الإمبراطورية الذين كانوا يجدون قوت يومهم فى الصدقات التى يقدمها أهل الخير عند ضريح « حضرة نظام الدين أوليا » . وهكذا أثرت هذه الظروف على الطفل خواجه حسن نظامى الذى كان يعشق سماع قصص وحكايات ثورة سنة ١٨٥٧ م ضد الإنجليز ، ثم سطرها فيما بعد فى اثنى عشر كتابًا .

بعد وفاة والديه كفله أخوه الأكبر سيد حسن على شاه ، لكن الصبى بدأ يعمل فى بيع الكتب وبيع بطاقات تحمل صور عمارات مدينة دهلى ومبانيها ؛ وهكذا كان يحمل على ظهره خمسة أو ستة كيلو جرامات من الصحف يدور بها فى المدينة . كما كان يعمل أيضًا بحراسة أحذية زوار ضريح « نظام الدين أوليا » ؛ وهكذا كسب حب الناس واحترامهم له بحسن خلقه وصبره وتفانيه فى خدمة خلق الله حتى صار له مريدون كثيرون .

عمل خواجه حسن نظامى في تجارة الكتب ؛ فكون ثروة معقولة ، كما عمل بصناعة الدواء ، وكانت الإعلانات عن أدويته تملأ صحف الهند ومجلاتها ، ثم أصدر مجلة تهتم بالأدوية ، فقلده كثير من الناس . وفى ميدان الأدب نشر عدة كتب فى موضوعات مختلفة من أهمها « سيرة حياته » ، كما أصدر مجلة شهرية باسم « منادى » نالت شهرة بين قراء الهند . وامتازت كتاباته الأدبية بالأصالة والجدة ، ومن إبداعاته أنه كان يلقب أصدقاءه وأحبابه بألقاب تروج بين الناس حتى تغلب على الاسم الأصلى ؛ فصديقه « واحدى » – الذى ورد ذكره كثيرًا فى هذه الرحلة المترجمة – اسمه الأصلى محمد مرتضى ، لكن أحدًا لا يعرفه بهذا الاسم ، كما أنه لقب أديب الأردية المعروف العلامة راشد الخيرى بلقب

«مصور غم»، ولقب شاعر الأردية المعروف أكبر إله آبادى بلقب «لسان العصر»، ولقب العلامة محمد إقبال بلقب « ترجمان الحقيقة » .. وهكذا .

ارتبط خواجه حسن نظامى بعلاقات طيبة مع جميع القادة السياسيين وزعماء الطوائف الدينية المختلفة فى الهند وخارجها ؛ فلم يكن يتعصب لحزب أو لمذهب أو لطائفة أبداً، وهذا يظهر بوضوح فى كتابه الذى ترجمناه .

وقد نال خواجه حسن نظامى جزاء جهده وعمله ، فقد وفقه الله وأعطاه كل شىء : الثروة ، والشهرة ، وهدوء البال ، ومحبة الناس . ومع هذا ظل كما هو لم يغير من سلوكه الطيب الذى بدأ به حياته حين كان معدمًا فقيراً ، فقد ظل يحكى للناس - بفخر - عن أيام فقره وعوزه . ومن العجيب أنه كان يقوم أحيانًا فى مكتب صحيفته بأعمال السعاة والفراشين ، ولم يخجل من ذلك أبداً .

أسس خواجه حسن نظامى سنة ١٩٠٨ م « حلقة نظام المشايخ » لإصلاح أحوال المتصوفة فى الخانقات والأضرحة . وقد بدأت هذه الحلقة أو الجمعية بسبعة أعضاء فقط ، وعارضها بعض المغرضين ، لكن الجمعية استمرت فى نشاطها . وفى سنة ١٩٠٩ م أصدر خواجه حسن نظامى مجلة « نظام المشايخ » ؛ فاستقطبت المجلة أشهر وأحسن كتاب الأردية آنذاك . ثم أصدر فيما بعد عدة مجلات منها مجلة « منادى » التى استمرت تصدر فى دهلى حتى بعد عام ١٩٧٠ م .

قضى خواجه حسن نظامى جزءاً كبيراً من حياته فى السفر والترحال داخل الهند وخارجها ؛ ففى سنة ١٩١١ م سافر للسياحة إلى مصر وفلسطين والشام والحجاز ، وكتب يوميات هذا السفر فى الكتاب الذى نقدم ترجمته الآن لقراء العربية .

واجه خواجه حسن نظامى الحركة الآرية المتعصبة – فى الهند – التى كانت ترمى إلى هندكة مسلمى الهند بالقوة ، وبذل جهداً كبيراً فى حماية المسلمين . وفى آخر أيام حياته ضعف بصره كثيراً، وفى ٣١ يوليو سنة ١٩٥٥ م انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن خلد اسمه فى تاريخ الأدب الأردى .

كانت هذه نبذة مختصرة عن صاحب الرحلة ، أما الرحلة نفسها التى كتبها بلغة أردية سلسة ، فقد حرص المترجم كاتب هذه السطور على أن تكون ترجمتها أيضًا بلغة عربية سهلة ، مع المحافظة على روح النص الأصلى وتوخى الدقة فى الترجمة لتكون مطابقة للأصل ؛ حتى يستفيد منها عموم القراء ودارسو اللغات الشرقية فى الجامعات المصرية والعربية .

وقد حرص المترجم أيضًا على أن يضيف بعض التعليقات – وهى تعليقات مختصرة مفيدة – تاركًا أمر دراسة هذه الرحلة بجوانبها المختلفة للمتخصصين كل فى مجال تخصصه ، نظراً لأنها تفيد المتخصصين فى اللغة والتاريخ وعلم الاجتماع ، والمتخصصين فى دراسات التصوف والعلوم السياسية المهتمين بدراسة تلك الفترة الزمنية من تاريخ العالم الإسلامى والعربى .

ولا يفوتنى هنا أن أقدم الشكر للمجلس الأعلى للثقافة ممثلاً فى شخص أمينه العام الأستاذ الدكتور جابر عصفور ، وإلى جميع أعضائه والعاملين فيه الذين ساهموا فى وصول هذه الترجمة إلى قراء العربية .

وبالله التوفيق

سمير عبد الحميد إبراهيم

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ....

كيف مر بنا حزينًا ذلك اليوم الذى تراءى للعيون بالأمس وقبل الأمس ؟!

لكن القلب لا يدرى كم من مرة شدتنا جاذبية الحجاز حتى أوصلتنا إلى بمباى ، ومع هذا كان تقلب الأيام يمسك بتلابيبنا ويعيدنا ثانية إلى دهلى دون أن يتحقق مرادنا ، ثم ارتفعت حرارة المشاعر ، واشتدت الرغبة ، وتلاطمت أمواج العشق داخل القلب ، فبدأت فكرة زيارة الحجاز تأخذ شكل تموجات تعلو وتهبط .

لم يمض على هذا الحال زمن طويل ، كل هذا حدث فى شهر مايو الحالى ، وبالتحديد فى بداية مايو فى حفل زواج لأحد الأحبة القدامى فى بلدة « ميرته » وهو مولوى إحسان الحق قادرى .

كان هذا المسافر - كاتب هذه السطور - يمضى فى سفينته الخالية ، وإذا بسعيد - الأخ الأصغر لصديقى محمد أنوار هاشمى - يخرج علينا ، فطلبنا منه أن يُسمعنا بعض آى الذكر الحكيم ، وهكذا غرقنا فى بحر أسرار الغيب ... بدأ الطفل البرىء بالرجوع الأخير(١) من سورة لقمان الذى ورد فيه تسخير الفلك (٢) فهزتنى الكلمات الربانية ، وخاصة ما جاء فى قوله تعالى « فيُريكم من آياته »(٣) فالتقت عيناى بعينى « واحدى » وهو كاتم أسرارى ، فنظر إلىّ « واحدى » متعجبًا ؛

لأن هذه المعجزة الغيبية كانت قد أذهلته أيضاً وأغرقته في الحيرة . ومع أن بعض آيات الركوع ورد فيها ذكر « الموج » و « الطوفان » ، لكنه ورد فيها أيضاً ذكر الإخلاص الكامل والصبر والشكر(٤) .

ثم ماذا حدث ؟ !

بعد العودة إلى دهلي بدأ الشوق يجذبني ، بدأ يطنطن في أذني ، يسر لي بمكنون القلب ، فتحسست « حافظة نقودي » فلم أجد فيها ما يكفي لتحقيق مرادي وأملي ، شعرت بالقلق ، ماذا أفعل يا إلهي ، لكن الله القادر العظيم ، هيّأ كل شيء في يوم واحد !

كنت أفكر في الجرح الذي لم يندمل لأولاد أخي الأكبر اليتامى وأرملته المسكينة ، لقد سمعوا بما عقدت عليه النية ، فقالوا مهللين مستبشرين : اذهب ! سافر ! اتركنا لله !

أما « حور بانو » التي يطلق عليها الناس « نور العين » – وفي رأي أن يطلق عليها « فلذة الكبد » – فهي لا تدري ماذا تفعل إذا انتقلت أمها للرفيق الأعلى ، فإذا كان الوالد قد سافر فلا ضير فحضن خالتها وعطفها قد عوضها عن الجميع .

بقيت أمور « حلقة المشايخ » التي أتنفس بعونها وأحيا بمساعدتها .. كيف أفكر ؟ ماذا ينبغي أن أفعل ؟! وعلى الفور أراحتني وأثلجت صدري فكرة أن يكون هذا السفر من أجل « حلقة المشايخ » ذاتها ، أي السفر إلى الحرم المقدس والتضرع والدعاء أمام الروضة المقدسة ، ثم التجول في ربوع الحجاز ومصر والقسطنطينية (تركيا) (٥) ومقابلة مشايخ هذه البلاد ، وتعريفهم بمشايخ بلادنا ، والاستماع

إليهم والتحدث معهم ، ونيل الأنفاس القدسية حيثما وجدت ، ثم العودة بثمار هذه التجربة ومكاسبها لأهل الوطن .

وفى النهاية ... حان الوقت الذى سُمح فيه لهذا العبد المذنب أن يسافر ليقف أمام الروضة المقدسة لسيدنا رسول الله حبيب الله صلى الله عليه وسلم .

وأرى أن أول بركات هذا السفر هو زوال « كدورة » السنوات التى طالت فى انتظار هذا السفر بسبب ظروف الأيام والليالى .

وودعت الجميع وعيونهم تفيض بالدمع ، وطلبت منهم الصفح والمعذرة لما قد يكون قد صدر عني من أخطاء أو سوء أدب . وظلت مشاعر وداع الرجال والنساء كبيرهم وصغيرهم ذكرى لا تنسى أبداً .

رغم الاحتياط الشديد فى إخفاء خبر السفر عن الأحباب ، فقد حضر بعض المقربين منا وقت السفر . حضر من « أنباله » الصديق القديم « مير رنك » ، ومن « ميرته » حضر رجل الأعمال الحاج حفيظ الدين وسيد ذاكر على ؛ فكان لذلك أكبر الأثر علىّ وقت الوداع .

وفى نفس الوقت حين جاءت العربة على البوابة لنركبها حتى محطة القطار ، تلاطمت الأفكار ، وتشابكت فى ذهنى الأحداث ، وتعطل الدماغ عن العمل ، وفكرت للحظات أن أقلع عن فكرة السفر !! لكنى شحذت الهمة ، ووصلت إلى القطار ، وركبت مغمومًا مهمومًا وأنا أشاهد الناس يتزاحمون .. ماذا أفعل ؟ لم أكن أدرى شيئًا ؛ فقد غرقت وسط الزحام ..

كان القطار الصغير يبدو فى سرعته أسرع بكثير مما هو عليه ، كما أن اهتزازه الشبيه باهتزاز الزلزال لم يسمح لى بالنوم . وكان العقل منى قد طار ؛ فقد تسبب سير القطار على قضبان الحديد الصلب اهتزازًا شديداً ، وكانت النتيجة أننى قضيت الليل كله بعيون مفتوحة .

بعد الساعة السابعة صباحًا وضعت قدمى على رصيف محطة « أجمير شريف » . وهنا تنتهى مقدمة كتابى عن هذا السفر ، وأطوى هنا صفحة هذا التمهيد .

بداية الرحلة

٢١ مايو ١٩١١ م / ٢١ جمادى الأولى ١٣٢٩ هـ

نزلنا من القطار ، وأقمنا فى مبنى قريب من « المزار الشريف » . ومع أن مدينة أجمير تقع فى حضن الجبل إلا أن الحرارة فيها ليست بالشدة التى تشهدها مدينة دهلى . كان يقيم بجوارى السيد شاه ، وهو من أصول عربية ، سمع اسمى فأرسل يطلب مقابلتى . كانت بيننا معرفة سابقة ، فرأيت أن صحبة « الدراويش » تبعث على الطمأنينة والسكينة ، التقينا معًا ، ثم افترقنا بعد ذلك . تأثرت بصحبته الطيبة ، وفرح القلب وسر سرورًا عظيمًا برفقته ، وهو أحد أتباع جماعة رسول شاهى فى حيدر آباد ، حليق اللحية والشارب وشعر الرأس أيضًا ، عيناه تلمعان ، وتبدو عليه ملامح الفهم والفراسة ، كلامه موزون ، قلبه عامر بالحرارة والنشاط . ربما كان يدعى « نوبهار حسن » ، كان يرافقه أحد المتصوفة يدعى « مهر الدين دكنى » وكذلك نجل أحد الأمراء الهنادكة ، وكان كل منهما يرغب فى المناقشة والاستفسار ، فدار بيننا حديث طيب ، وتمنيت أن يتيسر لى هذا الأمر يوميًا فى سفرى هذا .

تناولت الطعام ، وأغمضت عينى ، وبدأت أستجدى النوم ، ثم زرت « المزار الشريف » بعد صلاة العصر . استغرقت الزيارة ثلاث ساعات ، عند المغرب صليت ، ثم نلت شرف لقاء « حضرة الديوان »

أى « شيخ المشايخ ديوان سيد إمام الدين جشتى صاحب سجادة أجمير شريف » . منذ فترة أظهر حضرة الديوان اهتمامه الشديد بحلقة مشايخنا ، لكن من يمشون بين الناس بالنميمة ويغتابون الناس أوقعوا بيننا ؛ وهكذا كنت أخشى أن يكون لهذا أثره حين ألقاه ، لكنى لم أجد لذلك أثرا يذكر ؛ فقد شملنى حضرة الديوان برعايته ، وتفضل بالتحدث معى ، فسألنى إذا ما كنت أنوى أداء فريضة الحج أيضا خلال سفرى هذا أم أننى سأزور المدينة المنورة فقط ، فقلت له : ربما لا أجد فرصة لأداء فريضة الحج فى هذا السفر ، وسوف أنوى الحج فيما بعد ، وبالفعل كان هدفى هو السلام على حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هذا هو مسلك خاصة المتصوفة ، فقد قال حضرة سيد السادة رحمه الله : يجب على الدرويش أن يزور المدينة المنورة أولاً ، وأن يطوى المنازل واحدًا بعد الآخر .

ثم سألنى : إنك الآن مسافر . . فلمن أوكلت أمور حلقة المشايخ ؟

فقلت : لقد أودعت هذه الأمانة فى يد حبيبى وصديقى واحدى ، وإن شاء الله تعالى سوف يؤدى الأمانة على خير وجه بهمة ونشاط . ثم تطرق الحديث إلى ذكر « المدرسة المعينية » [٦] ؛ ففرعها الجديد « المدرسة المعينية العليا » تنال منحة من « المزار الشريف » قدرها ٣٠٠ روبية شهريًا ، وأكثر التلاميذ إن لم يكن جميع من يدرس فى هذه المدرسة من أبناء المسلمين . وكان حضرة الديوان قد أمر بأن تتم تربية العلماء المتصوفة تربية صوفية بالإضافة إلى تحصيلهم

للعلم ، وكان من نتيجة هذا النظام أن التلميذ الذى لا يصلى يجد صدودًا من قبل أقرانه ؛ فيرفضون اللعب معه قائلين له : لا شأن لنا بتارك الصلاة . .

وهكذا يمكن أن نقيس بقية محاسن هذه الطريقة التربوية . وقد سألت حضرة النظام عن حال المدرسة القديمة أى المدرسة العربية ، فقال : ستُمنح مائة روبية ، وسوف يتم تطويرها تدريجيًا . عندئذ عرضت عليه الفكرة القديمة للكتاتيب وللتصوف فقال : ليس فى الوقت متسع ، وإنه يرغب فى أن يتحدث معى ويناقش بالتفصيل ويتشاور معى فى هذا الأمر .

فى زمن سابق بدأ مولانا محمد حسين آبادى مثل هذا النشاط وأسس حركة تهدف لتحقيق هذه الفكرة [٧] ، لكن الشرط الذى قامت على أساسه هذه الحركة لم يكن مقبولاً عندى ؛ فقد كان يرى أن أى شخص لا يمكن أن يصبح « صاحب سجادة » ما لم يحصل على شهادة من « مدرسة التصوف » ؛ فكان هذا الشرط بمثابة سلاح يمكن أن يستخدمه المعلمون والممتحنون ضد الدراويش وأصحاب السجاجيد ، ولهذا لم تنجح هذه الحركة .

لا شك فى أن هناك ضرورة لإقامة مدرسة للتصوف ، لكن يجب عليك أن تفكر جيدًا فى أصولها وقواعدها . . هكذا قال . . وهناك طريقتان لتعلم التصوف :

الأولى : الحال .

الثانية : القال .

ويقصد بالحال اتباع حركات الشيخ وسكناته . وهذا النوع من التعلم يمكن أن يتم عن طريق المشاهدة العينية بالإقامة فى صحبة الشيخ ومرافقته وتقليد ما يقوم به ، ومن هنا لا تكون هناك ضرورة للفصول الدراسية .

أما القال فيتعلق بمطالعة الكتب الأخلاقية ، ومعرفة أحوال الشيوخ السابقين وعظماء الأمة ، وفهم نكات التصوف واحتوائها . وهذا يحتاج - بلا شك - إلى الدرس والتدريس . . فارجع من سفرك ، وعندئذ يمكن أن تتدارك عبء هذه المهمة .

بعد ذلك تحدثنا عن الجامعة ، فقال عند مغادرتى :

- تفاؤلاً بهذا السفر . .

ثم سلمنى خلعة المزار . .

يجب أن أتفاءل حقًا ؛ فقد أعطانى الخلعة الخاصة بالمزار ، وكانت الخلعة التى لبسها حضرة الديوان عند العتبات الطاهرة . وكانت الكلمات التى قالها لى وهو يهدينى هذه الخلعة كلمات مؤثرة ، فقد قال :

- حين تسافر سيعلو شأن الفقر ، ماذا يبقى فى هذا البلد الآن ؟!
قم بواجبك وأد عملك فى جرأة وبكفاءة ، لا تخش معارضة أو ازدراء ؛ فجميع من يعمل يتعرض لمثل هذه الأمور ، وسأظل على الدوام أدعو لك بالتوفيق .

بعد صلاة العشاء حضرت للمزار المبارك لأسلم سلام الوداع ، وحملت الخلعة الخاصة ، وقام أبناء الشيوخ بالدعاء لى فى وقت واحد وفى صوت واحد . والحمد لله ففي ذلك الوقت لم أنس أهل حلقتى وجماعتى ، وطلبت الدعاء لجميع من سألنى ذلك منهم . وإن شاء الله سأظل أقدم أحبابى وخلانى على نفسى حيثما ذهبت وحيثما حللت . .

أمام الروضة المباركة كانت فرقة المنشد « حقانى » تنشد « القوالى (٨) » . وحين أنشدت الفرقة هذا البيت :

« لقد ضربت فى الأرض مسافراً على درب محبتك ، فلا تسألنى عن متاعى وأحمالى ؛ فإن جنون محبتك هو أفضل زاد للمسافر » .

عندئذ فقدت الوعى وغبت عن هذا العالم ، وشاهدت نور الربيع الذى كنت أشتاق لمشاهدته منذ سنوات . . شعرت بسعادة غامرة بعد أن استمعت للقوالى ، واستمرت هذه السعادة تحيطنى لوقت طويل ، حتى أفقت على هجوم الحاضرين يصافحوننى ويقبلون يدى . وأمام مزار « خواجه » (معين الدين جشتى) وجدت أنه ليس من الأدب أن أتركهم يلمسون اليد والقدم ؛ فاضطربت وخرجت بسرعة من المزار .

يتحرك القطار فى الساعة الثانيـة؛ لذا حزمت أمتعتى واتجهت إلى محطة القطار . استمر حضـرة زكريا يفيض علىَّ بكرمه حتى منتصف الليل . . كـان الظلام يخـيم على الدنيا ، ورغـم هذا رافقنى أنجـاله الطيبون حتى مـحطة القطار ، وودعونى بلطف وكرم . . . كان المنظر بديعًا . . .

داخل الهند - ٢٢ مايو ١٩١١ م

الاثنين فى حوالى الساعة الثامنة صباحًا - مر القطار بمحاذاة قلعة « تشتّور كده » الشهيرة ، تراءت لنا من بعيد آثار القلعة العظيمة على قمة الجبل العالى ، كنت أنظر إلى الوادى وأفكر . . هنا دارت تلك المعركة التى تمكن فيها إخوتنا فى الدين من رد كيد الأعداء والقضاء عليهم . . . وبينما كنت غارقًا فى عالم الخيال أشاهد سنان الرماح تضرب صدور الأعداء ، اخترق أذنى صوت منكر من ناحية رصيف المحطة ، أصابنى هذا الصوت المزعج بالاضطراب ؛ فقد حسبته صراخًا وعويلاً ، لكنى اكتشفت أنه صوت بائع ينادى على الحلوى : « . . حلوى تشينا . . العسلية الحمصية . . حلوى تشينا . . العسلية الحمصية »[٩] .

أخرجت رأسى من نافذة القطار ، فإذا بى أشاهد « بائع حلوى وسخ قذر . . كان شكله قميئًا يبعث على الاشمئزاز ، أسدل الجزء الخلفى من سرواله (الدهوتى) بطريقة بذيئة ، فكانت قطعة من القماش بطول ذراع تتدلى من مؤخرته كأنها ذيل ، فكان إذا مشى تحرك الجزء الأسفل منها كأن فقيرًا هندوسيًا يتمايل يحرك لسانه : العسلية . . الحمصية العسلية . . ممتدحًا حلواه بأنها مثل الحمص تمضغ وتسف كما يسف الدواء ، وكأنه يمتدح حلواه بأجمل ما يقال فيها . .

آه ! لقد تركت دهلى بينما موسم فـاكهة الفالسه[١٠] فى عزه ، وأتذكر صوت الباعة يسمع فى كل مكـان الفالسه الفالسه . . الشربات يا فـالسه .وهكذا فـأهل دهلى إذا أرادوا وصف شىء طيب شـبهـوه بالحلوى ، بينمـا الناس هنا يشبهـون الشىء الحلو بشىء سىء . . ربما كان هذا من تأثير المدنية الجديدة !

من المعروف أن المسلمين تركوا - حيث حلّوا - أثرًا طيبًا على كل شىء فى الحـياة ، ولو أنهم ظلوا باقين هنا فى « تشـتّور » لما تحـملت أذناى هذا الأذى .

فى الساعة الثالثة وصـل القـطار إلى المنطـقة المسمـاة بمعسكر « نيمـتش » ،وهنا رحب بنا « بابو محمـد بخش » (الحارس) وبابو عبد الرحيم وهو نائب رئيس محكمة « مئو » ومعهما بعض الأحباب .

لا تزال أمامنا عـدة ساعات حـتى نصل إلى « جاوره » ، إلا أن بابو فـخر الـدين - وهو المهندس المسئـول فى (إمارة) جـاوره ومن محبى « الطريقة » المخلصين - قد رتب أمر استقبالنا ، وكان الأحباب موجـودين فى « جاوره » ، أخذنا بابو فـخر الدين إلى منزله ، ولمدة ليلة ونهارها استمر حفل السماع والطرب الجميل .

فى اليوم التالى ركبت القطار ، ودخلنا فى السابـعة صباحًا مدينة بمباى ، فـأقمنا فى فندق « شاهجهـان محل » ، وهو بمثابة اسـتراحة للمسلمين . التقـينا فى البداية بحبيبى المخلص مولوى مـحمد يوسف

الحاصل على شـهادة الماچسـتير ، كـان لقاء مؤثرًا . . أخـذنا مولوى محـمد يوسف إلى أماكن مـختلفة ، وبدأ يقـدم لنا المشورة من أجل السفر ، وأى بلد نبدأ به سفرنا . ونصحنا أحد الشوام بأن نسافر إلى مصر أولا ونتجول فى أنحائها ، وبعد زيارة مزاراتها وخانقاهاتها نسافر إلى بيت المقـدس ، ومن هناك إلى دمشق ،ومن دمـشق إلى المدينة المنورة ، فندخلها في شهر رجب ، ثم نعقد العزم بعدها على السفر إلى القسطنطينية .

التقـينا بتاجرين عـربيين كانا مسـافرين إلى مصـر ، فأعجـبتنى النصيحة السابقة ، وفضلت الذهاب برفقة العربيين . كان جواز السفر الذى أحضرته من دهلى غيـرصالح للسفر ، فقدمت طلبـا لاستخراج جواز سـفر آخر ، وسـوف أتسلم التذكـرة اليوم ؛ فالحـصول عليـها يستلزم إبراز بطاقـة مرور الجمرك التـى لم نتمكن من الحصول عليـها بالأمس . شاهدت جماعة كبيـرة من طائفة السيخ مسافرة إلى عدن ، وكان المسئولون مشغولين باسـتخراج البطاقات لهم . واليوم سأحصل على التذكرة بعـد الحصول عى بطاقة المرور الجمركـية ، وسوف تغادر باخرة الشركة النمساوية التى سأسافر عليها فى الثلاثين من مايو .

أقمت فى بمباى مـدة ثمانية أيام بلياليهـا ، كانت فترة سقـيمة ، والسبب هو أن الحر هنا رغم أنه ليس مثل حر دهلى - يخلو من لفح الهواء السـاخن ، إلا أننى كنت أغرق فى بحـر من العرق ، مما يؤدى إلى فقدان الشـهية ، وإلى زيادة الإمساك ، وعـدم الرغبة فى الذهاب إلى دورة المياه - معاذ الله .

وبالإضافة إلـى ما سبق فإن سكان هذه المدينة أنانيـون لا يحـبون إلا أنفسهم ، وباستثناء قلة من الـناس فهم هنا عموماً ومن أولهم إلى آخرهم يـتصفـون بالغدر ، ويفـتقـدون المروءة ، ناهيك عن بلادتهم الشديدة وافتـقادهم للشعور القومى والحس الوطنـى والفكر المستنير . ولو وجدت منهم من يتصف بهذه الصـفات ، فإن ذلك مجرد تظاهر ليس إلا !

قضـيت معظم الوقت فى صحـبة مولوى محـمد يوسف ، وهو مولوى[١١] بمعنى الكلمة ، حصل على شهادة الماچستير ، وهو مسلم ظاهرًا وباطنًا . كـما قضـيت أحيـانًا بعض الوقت عند مولانا شـبلى النعمانى الذى تصادف وجوده فى بمباى[١٢] .

كما التقيت فى يومين متتالين مع القنصل التركى جعفر بيه ، كان لقاؤنا مؤثرًا ، تخلـله نقاش مثير ؛ فـقد تباحثنا لساعـتين أو أكثر فى شئون تركـيا والشئون الإسـلامية ، وتطرق النقاش لموضـوع التصوف والدراويش .كان جعـفر بيه قد تقلد منصبه هذا منذ أسـبوعين فقط ، وهـو رجل نحيف ضعيف قصيـر القامة ، لكنه داهية بمعنى الكلمة ، لا يعرف جـيداً لغة غيـر التركية والفـرنسية ، فـدار الحديث بيننا عن طريق نائبه محمود بيه .

حين ذهبت إليه فى اليوم الأول كان معى بالصدفة « لال شاه »، وهو من سكان « بنّون » ، ويتقلد منصبًا رفيـعًا فى مكتب الخارجية ،

وكنت قد التقيت به في الفندق . وهكذا حين رأى جعفر بيه أن برفقتي أحد الموظفين العاملين في مكتب الأمن التابع للحكومة - احتاط كثيراً في حديثه معي ، وظل يؤكد مرة بعد أخرى على وجوب الوفاء للإنجليز !

كان جعفر بيه على دراية طيبة بعلم الحديث النبوي ، وقد لاحظت أنه يستشهد بالحديث النبوي ، ويقرأه من مصدره لإثبات رأيه . وقد عرفت منه أن سلسلة مشايخ الطرق الصوفية الرفاعية والقادرية والنقشبندية والموسوية تنتشر بكثرة في تركيا ، وتتمتع جميعها بالحرية الكاملة من قبل الحكومة . وقد أوضح جعفر بيه أن بعض المشايخ هناك قد وصلوا إلى الحضيض ، وتدنت حالتهم نظراً لجهلهم ؛ ولهذا أسست جمعية تهدف إلى إصلاح مثل هؤلاء ورفع شأنهم .

وأخذنا الحديث إلى مناقشة موضوع الجماعة الهندوسية المتعصبة « آرية سماج » (١٣) . لاحظت أن جعفر بيه لم يكن يدري شيئاً عن وجود هذه الجماعة ؛ ولهذا ظل لفترة طويلة يسأل عن أصولها وأسلوب عملها وأهدافها ، وسأل عن مسلكها تجاه المسلمين وموقف أتباعها من الإسلام . وظل جعفر بيه يدوّن في دفتره كثيراً من النقاط . وبعد أن قدم النصح بالوفاء للإمبراطورية البريطانية قال : نحن على كل حال متعاطفون مع إخواننا المسلمين الهنود .

استغرق الحصول على جواز السفر وقتًا طويلاً رغم ما بذله مولوى عبد الله أحمد محافظ الحجاج ومنشى حسين الدين ، فبعد تردد استمر ستة أيام كاملة تمكنت من استلام جواز السفر .وقد أخذت الحكومة الإنجليزية روبية واحدة فقط رسم استخراج الجواز ، لكن القنصلية التركية أخذت ثلاث روبيات من أجل التصديق على الجواز .

قبل أن أبدأ سفرى كنت قد رغبت فى السفر عن طريق شركة « كوك » ، لكن بعد وصولى إلى بمباى رأى بعض الأصدقاء أن أحصل على التذكرة مباشرة ؛ لأن الحصول عليها عن طريق الشركة يضيف مصروفات أكثر . لكن بعد البحث والاستقصاء عرفت أن هذه الشركات لا تكلف المسافرين نفقات أكثر ؛ فهم يأخذون أتعابهم من أصحاب السفن ، وعن طريق الشركة ينال المسافر راحة كبيرة ؛ ففى جميع المحطات يقوم مسئول الشركة بمساعدة المسافر فى النزول والصعود وتسهيل جميع المعاملات الضرورية الأخرى ، كما أن الخطابات والرسائل تأتى عن طريقهم ؛ وهكذا تكون فى يد أمينة باستمرار . ويمكن القول بأن هذه الشركات مثلها مثل الدلال ، لكن ليس مثل الدلال فى بلدنا ؛ إذ إن جميع معاملاتها واضحة وثابتة ومحددة . وإذا نظرنا إلى المظهر وجدنا أن مكاتبها مثل مكتب نائب الملك ، حيث تدور المراوح الكهربائية ، وتعج بمئات الموظفين المنهمكين فى أعمالهم . وهكذا اشتريت عن طريق شركة « كوك »

تذكرة درجة أولى حتى السويس بمبلغ ٣٧٥ روبية ، مع أننى كنت قد عقدت العزم منذ البداية على السفر بالدرجة الثانية ، لكنى لم أجد مكانا فى الدرجة الثانية ، وكانت الباخرة التالية ستبحر فى الثامن من يونيو ١٩١١ م ، وانتظارها يعنى بدء موسم الأمواج فى البحر ، فالبحر حتى عدن وبعد الخامس من يونيو يكون هائجا ، ويستمر ارتفاع الموج فيه حتى الخامس عشر من سبتمبر ، ولهذا رأيت من المناسب أن أسافر فى باخرة أول يونيو .

كان موظفو شركة كوك قد أعطونا التذكرة فى ٣١ مايو ، وجاء فى التعليمات المثبتة عليها وجوب الوصول إلى رصيف فيكتوريا فى الساعة الحادية عشرة يوم الخميس أول يونيو . وهكذا وصلت إلى رصيف فكيتوريا ، وهكذا بدأت حلقات التاريخ المزهرة .

السفينة أفريقيا أول يونيو ١٩١١ م
٢ جمادى الآخرة ١٣٢٩ هـ

الخميس ، اليوم يبدأ السفر ، كان الأحبة والأصدقاء يرغبون في مرافقتنا حتى السفينة ، لكنني لا أحب هذه العادة ؛ فمنعت الجميع من ذلك ، بمن فيهم أخي الحبيب علي وجدي أيضا . جاء لال شاه في الصباح الباكر فودعته أيضا ، إلا أن مولانا محمد يوسف رفض الانصياع لطلبي وأصر على مرافقتي حتى السفينة ، وكان قد حمل معه باقة ورد شغلني بحملها إلى السفينة .

في الساعة الحادية عشرة انتهى الطبيب المسئول من عملية فحص الركاب ، وفي الحادية عشرة والنصف سميت الله ودخلت السفينة « أفريقيا » التابعة للشركة النمساوية .

حين وصلت في البداية إلى الدرجة الأولى شعرت بحرارة شديدة ، وبدت الدرجة الثانية بالنسبة لي أفضل ألف مرة ، إلا أن تجربة الليل كشفت عن الحقيقة وكيف أن الدرجة الأولى مكان مريح للغاية .

يوجد في الدرجة الثالثة مسافرون من كل الجنسيات من المسلمين ومن الإنجليز وغيرهم . وفي نهار هذا اليوم بقينا بين الخوف والرجاء ؛ فقد انتشرت أخبار الطوفان والأمواج بين الناس ، وهكذا

ظل شبح الطوفان يُخيم على الجميع . أخبرنا الأصدقاء فى بمباى أن السفر فى هذا الفصل ليس مناسبا ، وأنه يجب أن نؤجل السفر إلى ما بعد هذا الفصل ، بينما أعطانا الأصدقاء الدهلويون أكواما من الخطابات ، ونصحونا أن نمكث فى بمباى عدة أيام قبل ركوب البحر .

حين تحسست قلبى وجدت دقاته تسرع من الخوف ، وحين تطلعت بشوق إلى المدينة المنورة ربتت يد الشوق على القلب تنصحه بالتريث وبالهمة والعزيمة . وهكذا غلب الشوق ، وأثبتت بركة المدينة المعجزات ؛ فالعبد الفقير الذى لم يسبق له أن سافر أبدا على ظهر سفينة هذا السفر الطويل ، كان يرقد على سطح السفينة هانئا هادئا مستريحا راضى البال قرير العين ، بينما أولئك الذين سافروا عدة مرات وقعوا جميعا فريسة للمرض والاضطراب ، وعانوا ألوان العذاب . ويجب أن تتأكدوا أن هذا فقط كان بفضل دعائى وتوكلى على الله ، وحسن القصد وإخلاص النية لزيارة مسجد رسول الله ﷺ ، فقد نجا العبد الفقير الذى لا حول له ولا قوة من جميع الأمراض والأزمات .

تحركت السفينة فى الساعة الواحدة ، وحين وصلت بالقرب من المياه العميقة زادت من سرعتها ، فبدأ المسافرون يشعرون بالدوار ، وأصيب البعض بالمرض ، أما أنا - والحمد لله - فلم أشعر بالدوار أو الغثيان ، ولم أشعر بأى نوع من الاضطراب .

كان الجو فى البحر شديد الحرارة بشكل ملحوظ ، وكانت الأمواج تعلو من جميع الأطراف ، فتضرب السفينة وهى تُزبد . لكن السفينة كانت تمضى فى قوة وصلابة ، لا تعير هذه الأمواج الماجنة انتباها يُذكر .

فى الدرجة الأولى كان هناك مسافر مسلم آخر يدعى غلام حيدر ، من سكان « بهادربور » يقيم منذ فترة فى المدينة المنورة . لم يشعر هو أيضا بالدوار ، خبر السفر عدة مرات ، ومع هذا كان شعوره بالخوف أكثر من شعورى ؛ لأن أصحاب المزاج الصفراوى عادة ما تكون حالتهم سيئة ، وهذا شأن الله . كنت أتحرك هنا وهناك بحالة طيبة ، بينما كان غلام حيدر المسكين يعانى كثيرا ، وقد زاد عليه القىء حتى بدأ الدم يخرج مع القىء .

كان فى « الكابينة » أحد المجوس (البارسيين) يدعى رستم جى ، شاب متحمس ، كان بخير ، لم يكن يعانى من شىء . سافر رستم جى هنا وهناك ورأى الدنيا كلها ، وهو إنسان مجرب وخبير بالسفر ، نصحنى ألا أفكر أبدا فى دوار البحر أو الغثيان ، وإلا شعرت بالدوار لا محالة . سمعت منه هذه النصيحة ، وبدأت فى تلاوة آى الذكر الحكيم ، واستغرقت فى التفكير فى معانى الآيات الكريمة لدرجة أننى نسيت تماما كل ما يتعلق بالبحر . وبعدها بدأت فى تطبيق هذه الفكرة ، فتخيلت أعز وأفضل من هو لى فى هذه الدنيا . .

كان لهذا العلاج أثره الطيب ، لكن للأسف لم يعمل به الحكيم أى رستم جى ، ووقع هو نفسه فريسة للمرض ، ففى الليل فاجأه القيء ، واستمر يتقيأ مرة بعد أخرى ، وعانى من الاضطراب فترة طويلة ، وكل ما أمكننى عمله من أجله هو أن أقوم بتمريضه .

علاج مجرب للدوخة (دوار البحر)

ليس هناك من شك فى أن التفكير له دخل كبير فى الإصابة بدوار البحر ، وليس علاج أفضل من ألا يفكر الإنسان أبدا فى دوار البحر . . آه . . ثم آه . .

إن فتوحات الصوفية هى فى نيل السعادة الدينية والدنيوية على حد سواء ، فإذا أردت أن تصون نفسك من دوار البحر فاجلس وتصور محبوبا أو عزيزا عليك ، وخاطبه وناجيه ، وداعبه واضحك معه ، وتعارك معه . وباختصار يمكن أن تذوب بداخله ، أن تمحو نفسك فيه ، عندئذ لن تكون هناك فرصة ليمس منك دوار البحر شعرة . وأفضل شيء هو أن تفكر وتتبع مرشدك ، وإلا فكل منظور أمامك يمكن أن يخترق خيالك .

يقدمون الطعام ست مرات فى الدرجة الأولى ، وهؤلاء الناس شرهون أو مولعون بتناول الطعام ، كنت أطلب الطعام فى حجرتى وأتناوله عن آخره وأهضمه. تركت أكل اللحم ، وقنعت بالسمك

والبيض والخضـار فقط ، وكانت هذه المأكولات من الكثـرة بحيث لم تكن هناك ضرورة للحم ، وعلى كل كنت أحتاط فى أمر الذبيحة . (١٤)

نمت نومـا عميـقا طوال اللـيل ، مروحـة كهربائـية ، مصـابيح كهربائية ، يمكنك القول بأننى فى مكان ما فى جنة شداد (١٥) .

٢ يونيو ١٩١١ م

يوم الجمعـة استيقظت فى الرابعـة ، لا يزال الإنجليز يغطون فى النوم . . بعد أن انتهيت من الحـمام وما إلى ذلك ، توضأت وصليت وبدأت تلاوة القرآن الكريم ، وتمتـعت بما يكون من مناجاة بين العـبد والمعبود . وفى الساعـة السابعة فتح رستم جى عينـيه ، وأخذ يتقلب فى فراشه، ثم ضغط على « زر » وقال باسما : تعال! لقد نمت كثيرا .

وتحيرت : مع من يتكلم يا تُرى ؟! وبينمـا هو كذلك إذا بالباب يفتح ويظهر شخص فى هيئة أوربية ، عانق المجوسى ، وسلم علىّ ، فقال المجوسى : أحضر الشاى . .

عندئذ أدركت أن هذا الزر مـرتبط بغرفـة الموظفين . . . ويلاحظ أن هؤلاء الناس قد نسوا الله بسبب ما يتمتعون به من سلطات ظاهرة .

بعد تـناول الشاى قـام « بهادر » بتنظيف الكابينة وترتـيب الفراش والبـساط وحتى تلمـيع الأحذية ، يا إلهى ! لقد صـار هذا الرجل عبدا مـقابل ٣٧٥ روبية ، ومثل هؤلاء الناس يقبلون عمل أى شىء من أجل النقود .

قضيت النهار بطوله فى القراءة والكتابة ، وفى المساء جلست على ظهر السفينة .كان الإنجليز جميعا رجالا ونساء يتجولون هنا وهناك ، وكانت الملابس التى أرتديها « فُرجة » لهم ؛ فأخذوا يتمعنون فى هيئتى ويتفرجون علىّ .صليت المغرب فى نفس المكان ، فكان هذا أيضا بالنسبة لهم منظرا جذب انتباههم .

ارتفعت الأمواج وازداد طلاطمها ، وظهر التعب والإنهاك على وجوه النساء فى السفنية . .

قضيت الليل أيضا فى راحة وهناء ، وشاهدت فى أحلامى أهل دهلى وخلانى .

٣ يونيو ١٩١١ م

السبت ، زاد اضطراب البحر عن الحد ، شعرت بالدوار وأنا ذاهب لأجلس تحت المظلة . ورغم أن الشعور بالدوار انتهى لكنى لا أستطيع أن أصفه لأهل وطنى ، ويمكن أن يفهم - بصفة عامة - على أن الهواء الشديد يقلب البحر من فوق إلى تحت لدرجة أنّ السفينة لا يمكن أن تمضى بشكل مستوٍ على سطح الماء ، فتنزل تحت الأمواج مرة ، ثم ترتفع فوقها مرة أخرى ؛ مما يتسبب فى شعور المسافرين بالدوار والدوخة من جراء اهتزاز السفينة الشديد وتموجها .

وإذا ما فهـمنا الأمر بمصطلح أهل التصوف فإن البـحر يظل دائما فى شغل شـاغل بأنفاسـه . ولننظر إلى الشاطئ ! هناك سنـشاهد المد والجـزر ، حيـث تـعلو المياه عدة أذرع ثم تنحـسر عن الشـاطىء عدة أذرع . وفى وسط البحـر يحدث الشىء نفـسه أيضا ، أى أن البـحر مستمر فى التنفس ، ومستمـر فى عملية الشهيق والزفير ؛ فالماء يرتفع إلى أعلى وتعلوه الرغـوة ، ثم ينزل إلى أسفل حيث يلاحظ بسـهولة الماء وهو ينسـحب إلى الداخل . والماء هنا فى شـغل ، يُسبّح وكـأنه يقول : الله ثم يعلو ، ويقول هو ثم يهبط . . الله هو . . الله . . هو .

لكن فى وقت الطوفـان يترك البحـر مسألة الشـغل أى التنفس ، ويدخل إلى مرحلة أخـرى هى مرحلة النفى والإثبـات ؛ إذ يبدأ النفى بلا إله يقوم بهـا بشدة وكأن الماء يرتفع إلى مـا فوق الرؤوس ، وحين يضـرب موجه بـ إلا الله أى الإثـبات يبـدأ فى إصدار صوت خـافت ضعيف ينساب سهلا سلسلا . . والناس من أهل الشغل أو الغارقون فى الشغل يعـرفون هذه الكيفية ، يـعرفون كيف يكون حال المـبتدئ أثناء الذكر ، وكيف تصيبه المتاعب الجـسمانية فى البداية . وهكذا فهذا هو حال السـفينة ؛ فـالمسافر علـى ظهرها تكاد روحه تصـل إلى الحلقوم نتيجة حركة البحر ما بين النفى والإثبات .

أخذت أفكر اليوم : هل يمكن أن أجد علاجا لمصيبة الطوفان هذه التى حلت بالسـفينة ؟ أم إنه من الصعـوبة بمكان أن أجد لهـا حلا ؟ وفكرت فى الطريق البرى مثلا ؛ ففى الـسنوات السابقة كانت العربات

تهـتز وتتـأرجح بشـدة على الطرق غـير المعـبـدة ، وفى زمن التطور والتقدم هذا أمكن إيجاد علاج لهـذا الأمر عن طريق استخدام اللولب واليايات ؛ وهكذا نشاهد العربات تمضى اليوم فى هدوء وراحة تامة . ولو أنهم ثبتـوا فى السفينة لولبـا أو يايا تحت الطوابق التى يقيم فيـها المسافـرون ، لأمكن وقف الاهتزاز الشديد الناتج عن أمواج الـبحر ، ولتخلصنا من هذه المصيبة الشديدة .

فى البداية كنت أمـلأ معدتى بطعـام السفينة ، لكن الآن أحسـبه سُمّا ؛ فهو طعام عديم المذاق لا طعم له ، وهو على كل حال يخرج فى شكل قيء . لم أتناول شيئا من الطعام فى الليل ، وصرت منهمك القوى بسـبب الجوع . ما أطيب أجـدادنا العظام الذين كانوا يعيـشون حيـاتهم عـلى طعام البـلاد الأخرى الـتى كانوا يرتحلون إليـها لنشـر الـدين ، وهـو طعـام يخـتلف عن طعام بـلادهم الذى اعتـادوا على تناوله ، ولم يثنهم هذا الأمر عن أداء واجبهم ، أو التراجع عن السفر إلى أبعد الأماكن ، لـيتنا نتحلى بنصيب من ذلك الحـماس الذى كان عند أجدادنا .

٤ يونيو ١٩١١ م

الأحد ، فـاق الطوفان اليـوم كل حد ، كانت السـفينة تتـحرك بصعوبـة ، وأُصيب معظم المسافـرين بالدوار . وهكذا لزم رستم جى الفراش مـرة أخرى ، والحـمد لله فقـد تحسنت حـالتى ، إلا أن عدم

تناول الطعام أصابنى بالضعف ؛ فلم أضع شيئا على لسانى منذ فترة ، فحاولت بصعوبة شديدة أن آكل قليلا من الجبن والزبد مع قطعة من الخبز ، لم يكن للجبن مذاق ، ناهيك عن رائحته العفنة . قلت لرستم جى إن أبناء وطننا يخشون السفر بسبب هذه المتاعب ، وذكرت له أننى أنوى قريبا إعداد برنامج يتضمن توفير الراحة الكاملة لمواطنينا من الهندوس والمسلمين ؛ حتى يمكنهم أن يتحلوا بأسباب التقدم والتحضر والمدنية إذا ما سافروا خارج الهند إلى البلاد الأجنبية . فقال رستم جى أن شركة أُسست فى بمباى ، وقد اقترحوا أن يكون رأس مالها حوالى عشرين مليون روبية ، مديروها مشاهير رجال الهند ، ويشاركهم السيد جمال من « رنكون » ، والسيد رحمت الله ميان من بمباى ، والمهراجا دربهنكه وغيرهم من أعيان الهند .

وهدف هذه الشركة تسيير سفينة تتوفر فيها سبل الراحة التامة للهنود ، وفى البداية سيروا سفينة من أجل الحجاج ، وزودوها بجميع سبل الراحة وكل ما يلزم مما تتطلبه أمور الدين . . . . وقد تم جمع خمسة ملايين روبية حتى الآن .

لو كان هذا الكلام بالفعل صحيحا فإن المشاركة فى مثل هذه الشركة فيها نفع دنيوى وثواب أخروى .

مكثت طوال اليوم فى مكانى ؛ فلم أعد أمتلك القدرة على الحركة ، ليت الدوار يبتعد عنى وأشعر بالعافية ولو لفترة قصيرة .

فى بحر سقطرى - ٥ يونيو ١٩١١ م

الأحد ، بدأنا اليوم الدخول فى بحر سُقطرى[١٦] كانت الأمواج ترتفع لعدة أمتار ، سوف نصل عدن صباح بعد غد ، وبعدها سيسكن البحر وتهدأ الأمواج .

أصابنى الضعف الشديد نتيجة عدم تناولى الطعام ، كنت آكل الفاكهة ، لكنها لا تشفى نهمى . ليت السيد واحدى يستطيع أن يلقى إلينا بموقد يعمل بالكهرباء (فنطهو عليه ما نشتهى من طعام) .

اضطربت فخرجت إلى سطح السفينة وجلست تحت مظلة . .

كل شىء فى الدرجة الأولى طيب وعلى مستوى رفيع ، كانت جموع الإنجليز غارقة فى اللهو واللعب ، والمجلس هنا رائع كأنه « زفة عروس » ، جلست أنا أيضا على أريكة مخملية . كان أحد الفرنسيين يلعب الشطرنج مع أحد المجوس ، وبالصدفة كان المجوسى يلعب بالقطع السوداء بينما كان الفرنسى يلعب بالقطع البيضاء ، وكان الفرنسى يلعب بذكاء . ولما كنت أشاهد اللعب ، وألاحظ هجوم القطع البيضاء على القطع السوداء ، خرجت من فمى بطريقة عفوية كلمات التحذير فقلت :

- انتبه ! أنقذ الوزير !

كان الفرنسى خفيف الدم الذى يتصف بروح الدعابة يعرف اللغة الفارسية جيدا ؛ فقد كان قادما من إيران منذ فترة غير بعيدة ، فقال لى :

- تفضل ! تعال . . لنلعب معا ! وعندها نرى شطارتك !

وترددت لأننى لم ألعب الشطرنج منذ عشر سنوات تقريبا ، ولكن بعد إصراره الشديد اضطرت إلى دخول المنافسة . . .

لاحظت أن الأمور خرجت من يدى ، وكان الملك يتحرك على بساط الشطرنج ، ولم يكن هناك من يحميه ، بينما كانت العساكر تتحرك دون نظام أو ترتيب ، واستمر الفرنسى يحرك قطعه هنا وهناك بذكاء شديد .

لم يعد هناك مفر من الخداع ؛ فالحرب خدعة ، بدأت أول خطوة فأظهرت له « القلعة - الطابية » ، فبدأ الفرنسى يفكر ، واستمر فى التفكير وهو يقوم ويقعد . ولما لم يخطر بباله شىء قام بالقضاء على « القلعة - الطابية » ، وكنت قد ألقمته إياها عمدا حتى أجعل هذا المنافس يظن أننى بلا خبرة ، ولما حدث هذا اطمأن إلى ظنه بى . أما أنا فرأيت أن ملك منافسى يجلس فى قلعة حصينة ، ثابت فى الميسرة لا يتحرك منها ، ومن هنا حركت قواتى كلها ناحية الميمنة حتى يتحرك منافسى أيضا إلى هذه الناحية فأحطم قلعة الميسرة . ولما رآنى أتحرك تجاه الميمنة قام بترتيب جميع قطعه فى هذا الاتجاه ،

وبقيت بعض القطع عند « الطابيه - القلعة » بجوار الملك ، وكان هذا هو هدفي ، فبـدأت على الفور فى تحريك الفرسين لخـوض المعركة ، فتقدمـا تجاه الملك ، وحركت بعض العساكر ليسـاعدوا الفرسين حتى اقتربت من الملك .

بدأ المنافس يحملق فـيما يدور أمامـه ، واشتد غضبـه ، فعكس اتجاهه ناحـية « الطابية - القلعـة » ،لكن الأمور كانت قـد سويت ، وتمكن الفرسـان من محـاصرة الملك ، وكان هنـاك - لحسن حظى - بعض العسـاكر . ولـم يعد منافسى يدرى ما يفعل ، فحرك وزيره إلى مذبحـه ، أى حركه إلى مكان سـهل علىّ أمر القضـاء عليه ، لكننى بدأت أدقق فى الموقف وأفكر جيـدا ، ورأيت أن أعفو عن هذا الوزير المسكين ؛ حتى أتمكن من القـضاء على الملك . وقام منافسـى بحركة أخرى يريد بها أن يحدث خللاً فى صفوف جيشى ، لكن الوقت كان قد حان فتـحرك العسكر ، واستسلم الفرنسى ، فـارتفعت الضحكات وعلت القهقـهات . وانبرى رجل بلجيكى وقال : أنا مـستـعد للعب لكن على مبلغ مـعين ، فقلت له : القمـار حرام فى ديننا . . نطقت بهذه العبارة وغادرت المكان متجها إلى « الكابينة » التى أقيم فيها .

فى المساء كـان هدير أمواج البـحر مفـزعا ، بينمـا الأمواج تعلو وتعلو تريد أن تصل إلى أقصى ارتفاع لها ، ووجدت نفسى - والحال هكذا - أطلع إلى سطح السفينة ، وهناك أديت صلاة المغرب . . . ثم

غرقت فى التفكير عن هوس الرغبــة فى امتلاك سبل الراحة والدعة ، وجاءنى هـاتف يهتف بى : تعـال نعمر الخـانقاهات فى هـذا الوجود المتحرك فوق سطح البحر ، شاع سلوك الحرص والطمع ، وهو سلوك يصعب على الناس تعديله أو التخلص منه .

فى السـاعة الثالـثة صبـاحا انتـهت رحلة بحر سـقطرى ، وهدأ الطوفـان ، وفى هذا الوقت فـرغت بسـرعة من أورادى وأدعـيـتى ، وطلعت إلى سطح السفينة ، كان المنظر عجيبا مؤثرا .

٦ يونيو ١٩١١ م

الثـلاثاء ، غدا نصل إلى عـدن ؛ ولهذا انشـغلت منذ الصـباح بكتابة الرسـائل ، وسوف أفرغ منهـا فى الساعة الثـانية . كان البـحر هـادئا ؛ ولهـذا مـضت السفـينة على صـفـحة المـاء دون أن نشعـر بحركتها . عند العصر كنت قد تجولت فى جميع أرجاء السفينة ، يمثل المسلمون الأغلبية فى الدرجة الثـالثة ، ويوجد أيضا بعض النصارى . أعتقـد أن الدرجة الثالثة أفضل ألف مـرة من الدرجة الأولى والدرجة الثانيــة ، شريطة أن يكون هنـاك بعض رفاق السفــر من أهل بلدى ؛ ففى « كبائن » الدرجة الأولى والثانيـة تشتد الحرارة بشكل ملحوظ ، مما يدفع ركاب الدرجتين إلى الصعود إلى سطح السفينة والنوم هناك . وبهو الدرجة الثالثـة واسع وفسيح ومريح ، كما أن التهوية فـيه جيدة ، وليس هـنـاك من عـيب سـوى أن مـسـافرى الدرجـة الثالثـة يعتـبرون

من الحمالين ، شريطة أن يكونوا هنودا وبخاصة من المسلمين ! ولا يُحترمون ولا يُنظر إليهم بتوقير . وعلى كل حال فهذا ليس بالأمر المهم ، فالقدر والجهل وضعف الهمة كل هذه الأمور جعلت منا حشائش تدوسها أقدام خيول أوربا ، وما لم يتغير قدرنا ، فسوف تُهدر حقوقنا وتُنتهك حُرماتنا ، وسوف نُضرب ونُهان .

وتجدر الإشارة إلى أن ركاب الدرجة الأولى أيضا يُنظر إليهم باحترام وتقدير إذا ما كانوا يرتدون الملابس الأوربية ، وإلا فلا قدر لهم ولا عزة . ومع أننى أبدو الوحيد بين ركاب السفينة بملابسى تلك ؛ لأن غلام حيدر نادرا ما يخرج من الكابينة بسبب مرضه ، إلا أننى حتى اليوم لم أفزع ، ولم أخضع لغرور الجنس الأبيض ، وهم يتندرون علينا ، ويهمزون ويلمزون عندما يفتقدون الشجاعة. واليوم فى المساء حدث أمر عجيب . . . كان الجميع قد تجمعوا على السطح ؛ ليتمتعوا بالهواء العليل ، اقترب منى طبيب الباخرة ، أمسك بياقة قميصى المصنوع من القماش الرقيق ، وقال شيئا باللهجة النمساوية ، فانفجر الرجال والنساء جميعا فى الضحك ، مما أثار غضبى الشديد ، فأمسكت بياقة معطف الطبيب ، ومن نفس المكان بالضبط وقلت :

– أيها الخبيث ! انظر إلى بؤبؤ عينيك !

قلت هذا وضحكت ، فانقلب ضحك الطبيب ومن معه إلى خجل ، لكن الصديق الفرنسي الذى يعرف الفارسية قال :

- إن معنى كلام الطبيب لم يصل إلى فهم حضرتكم ، إنه يقول إن لباس حضرتكم خفيف جدا .

فأجبته :

- نعم إننى أظن أيضا أن الدكتور لم يفهم كلامى ولم يعقله ، لقد قلت له إن ملابسه ثقيلة جدا .

بعدها انفجر الجميع فى الضحك . . . والخلاصة أننا لا يمكن أن يكون لنا احترام في عيون هؤلاء ما لم توجد القوة فى سواعدنا ، ويوجد نور العلم في عقولنا ، وطالما لا يوجد المال أيضا فى جيوبنا . انهضوا يا إخوانى ، وابذلوا كل جهد حتى تفرضوا احترامكم على الجميع .

ثمن تذكرة الدرجة الثالثة حتى السويس ٥٥ روبية بدون طعام ، والأجرة التى دفعتها لطريق واحد يمكن أن تكفى لسفر خمسة أشخاص بسهولة ومع الطعام . ليت الهنود يفيقون ويشكلون جماعات حين سفرهم خارج الهند ، يرفعون اسم بلدهم ، ولكن عليهم أن ينتبهوا ويتذكروا أن الطهارة هى أول فروض دينهم ؛ فالنظافة من الإيمان ، والدين يدعو إلى النظافة والطهارة ؛ ولهذا يجب المحافظة عليها والالتزام بها ، فلا يجب أن يفلت من اليد ذيل الطهارة ، عندئذ تنالون احترام الدنيا كلها ، وتحفظون عزتكم بين الناس .

الوصول إلى عدن - ٧ يونيو ١٩١١ م

الأربعاء ، وصلنا عدن فى الساعة السابعة صباحا ، كانت عقارب ساعتى تشير إلى العاشرة ؛ لأننى لم أغير الوقت فى ساعتى منذ خرجت من دهلى ، فهى حتى الآن تشير إلى التوقيت فى دهلى . وإبقائى على هذا التوقيت يشعرنى بالسعادة ، ويغمرنى بشعور لطيف ، فحين تشير الساعة إلى التاسعة ، وتكون الشمس فى السماء لم تغرب بعد ، تنتابنى أفكار عجيبة . إنها قدرة الله ، ففى هذا الوقت وفى مدينة دهلى وفي مقر مشيختنا يتناول الناس طعامهم ، ويعدون عدتهم لصلاة العشاء ، وهنا لا تزال الشمس لم تغرب بعد . وطلوع الفجر أيضا يكون طبقا لتوقيت ساعتى فى التاسعة ، ومن الممكن أن أبقى ساعتى هكذا طوال السفر على توقيت دهلى .

منذ ساعتين بدت لنا على مرمى البصر « جزيرة عدن » . . . سلسلة الجبال الداكنة ترتفع فى البحر . . حين ألقت السفينة بمرساها أخذت أفكر فى أولئك الصبية الصوماليين الذين يغوصون فى البحر ، يقومون بحركات بذيئة ، ثم يطلبون بعدها « الحسنة » من المسافرين . وقد هجاهم مولانا شبلى كثيرا ، (١٧) وشعر بالأذى والألم من جراء حركاتهم ، ولكن الحمد لله والشكر لله فلم أشاهد هذا المنظر . ولكن على العكس من هذا شاهدت الصبية الصوماليين وقد حملوا بضائع فى مراكبهم وصعدوا إلى ظهر السفينة ، وأخذوا يمارسون التجارة بين

المسافرين . كانوا يبيعون بيض النعام ، كـما كانوا يبيعون أيضا مراوح مصنوعة من ريش النعام ، وأيضا بعض العقود التى تعلق فى الرقبة ، وبطاقات فيهـا مناظر لمنطقة عدن . كان أولئك الصبية يعـرفون جميع اللغات ، وكانوا يتكلمون الأردية أيضـا بطلاقة ، وكانوا يتعاملون مع الأوربيين بشجاعة واضـحة ، ولا يمدون أيديهم لهم أو ينحنى الواحد منهم أمامهم فى ذل مـثل التجار الهنود ، ولا يخضعـون لهم تواضعا دون أى داع .

تمت المعـاينة الطبيـة للمسـافرين فى عـدن ، وحين ذهب هؤلاء الناس تناولنا الطعام وذهبنا إلى عدن مع رفـاقنا من المسافرين الأوربيين الذى سيتابعون الرحلة . أجرنا قاربا ينقلنا من السفينة إلى الشاطىء ، كانت الأجرة أربع روبيات للشخص الواحد .

فى البـداية وضـعنا الخطابات فى البريد ، أخـذت وقتا طويلا فى « تسجـيل » الخطاب الذى يتضمن « مذكـرات رحلتى » ، وكنت قد كتبت العنوان باللـغة الأردية ، فطلب منى الموظف - وهو برهمنى من « بونا » - أن أكتب العـنوان بالإنجليزية ، فتـحيـرت : من ذا الذى أستكتبه العنوان بالإنجليزية ؟ لم أكن أعرف من الأوربيين المرافـقين لى شخصا يعرف الأردية حتى يمكنه أن يكتب مـا أنطقه بالأردية بحروف إنجليزية . وحين أصـابنى اليأس جلسـت على الأريكة ، وبدأت أدرب مقـدرتى على كـتابة الحـروف الإنجليـزية ، وفى النهـاية ساق الله لى صـديقى البـرتغالى مسـتر ديوزاكو الذى كـتب لى العنوان . وهكذا سـجلت

الخطابات ، وحـدث الشيء نفسـه بالنسـبة للبـرقيـة التى أرسلتهـا ، وبالصـدفـة ظـل مسـتـر ديوزاكو بجـوارى فسـاعدنى فى أمـر إرسال البرقية أيضا .

قيمة البريد فى عدن مثل قيمتها فى الهند ، أى توضع هنا طوابع تساوى قيمة الطوابع التى نضعها على الخطابات المرسلة داخل الهند ، لكن بالنسبة للبرقيات فتحسب روبية لكل كلمة .

ذهبت بعد ذلك فى مـعية مسـتر ديوزاكو ، فأجرنا سـيارة بأربع روبيات ؛ حتى نتجول فى جميع أنحاء عدن .

إذا كانت هناك مدينة فى هذه الدنيا لا يمكن أن تشاهد فيها شجرة أو نبتة خضراء فهى مـدينة عدن ! فما نشاهده هنا هو الأرض الجرداء والجبال الكادحة ، مع بيوت متناثرة هنا وهناك غير مرتفعة ، هيئتها لا تسـر النـاظـرين . واليهـود هنا فى سـعـة من العـيش بسـبب ازدهار التجارة ، كما أن الهندوس يمارسون التجارة هنا أيضا .

فى عـدن مـدرسة تعـلم الأردية ، وهى تتطـور بفـضـل إدارة سيـد حسين حُـمود ، وهو شـاب كله حمـاس ونشاط . يتـعلم فى المدرسة ما يزيد على مائة تلميذ ، منهم من ينتمون إلى عشيرة « ميمن » أو « خوجـه » أو من العرب . ومنهج الـتعليم بالمدرسـة شبيـه بمنهج التعليم فى جمعية حماية الإسلام ، والمدرس الأول هنا (ناظر المدرسة) هوعبد الشكور الهندى ، وهو موظف متقاعد . فى البداية كان أجداد

سيد حسين حمود يتحملون نفقات المدرسة ، والآن تمنحها الحكومة الإنجليزية مبلغ أربعمائة روبية سنويا ، وهناك أمل فى أن تزداد هذه المنحة . وهناك مدرسة أخرى تعلم بالأردية ، يتعلم فيها تلاميذ معظمهم من العرب ، ومديرها هو الشيخ محمد عمر بازرع ، يتعلم فيها ما يقرب من ثلاثين تلميذا ،ولم تقرر الحكومة لها حتى الآن منحة خاصة .

وهناك مدرسة أخرى للإنجليز يطلق عليها « المدرسة العليا » High School يتعلم فيها حوالى ١٢٥ تلميذ من العرب واليهود والصوماليين (الأفارقة) وغيرهم ، وتتحمل الحكومة جميع نفقات هذه المدرسة .

والآن خطر على ذهنى أن أقص حكاية : فعدن تعج بمزارات الشيوخ ، وهذه المزارات دليل واضح على عظمتهم ؛ إذ يأتى لزيارتها أناس من أماكن بعيدة . ومن هذه المزارات مزار :

١ - سيد عيدروس رضى الله عنه.

٢ - الشيخ جوهر رضى الله عنه .

٣ - الشيخ أبان حفيد أمير المؤمنين عثمان رضى اللهعنه .

٤ - الشيخ عبد الله العلوى رضى الله عنه .

٥ - الشيخ عبد الله رضى الله عنه .

٦ - الشيخ حسين أحدل رضى الله عنه .

٧ - الشيخ أحدل رضى الله عنه .

٨ - الشيخ هاشم بحر رضى الله عنه .

٩ - الشيخ عثمان رضى الله عنه .

١٠ - الشيخ سيد على بن أحمد رضى الله عنه .

ولكل واحد منهم راية من القماش حمراء مرسوم عليها هلال ، وقد وضعت الرايات فى الفصول الدراسية . ويمكن الحصول على كتاب يفصل الحديث عن سيرة شيوخ عدن ،وقد وعدنى سيد حسين حمود بإرساله لى ، فإذا ما وصلنى هذا الكتاب فسوف أنقل بعض المعلومات عنهم مع نبذة عن حياتهم فى حاشية هذا الكتاب عند استكماله .

وهناك عدد كبير من المشايخ الأحياء ، لكننى لم أشرف إلا بزيارة سيد محمد عبد الله البار فقط . والبار فرع من سلسلة الفرقة النقشبندية ، وعلى رأس هذه السلسلة سيد عمر بن عبد الرحمن البار . وهناك شيخ من شيوخ هذه السلسلة يقيم فى المدينة المنورة ، كتب اسمه لى سيد البار . وسيد البار شيخ فى الخمسين من عمره ، تبدو آثار « المشيخة » واضحة على بشرته وملامحه ! يجلس على حصيرة ببساطة شديدة وسط حلقة تضم جماعة من العرب . تحدثت معه

حديثا طويلا عن طريق المترجم ؛ لأنهم فى عدن لا يعرفون لغة أخرى غير اللغة العربية . سأل عن أحوال مشايخ الهند ، وسمع عن أحوال حلقة نظام المشايخ . وسر كثيرا وقال : على المسلمين أن ينالوا القوة ، وعليهم أن ينالوا نصيبا من العلوم العصرية حتى يمكنهم أن يعيشوا جنبا إلى جنب مع الشعوب الأخرى .

تجولت فى عدن لمدة أربع ساعات جولة رائعة ، كنت أتوقف هنا وهناك فى أماكن متفرقة فأتحدث مع الأطفال ، والعجيب أنهم جميعا يجيدون التحدث بالأردية ، وهم - بشكل عام - من الصوماليين (الأفارقة) . وشكوت إلى الملا الصومالى قائلا : ألا تخاف الله ؟! لقد سُلبت أمتعتنا وصرنا غرباء فى بيوتنا !! فتأسف الملا كثيرا لما قلت ، وقال إن ما أصابنا كان بسبب الإنجليز ، وعلى كل حال لقد هربوا أمام الملا . . ولما عارضت فكرته قال : أخبرنى إذن لماذا ترك الإنجليز مواجهة الملا ؟ ولماذا أخلوا البلاد التى فتحوها ؟

مثل هذه الأفكار منتشرة هنا بشكل عام ، وقد سألت أحد أطفالهم عن اسمه فقال : اسمى نور ، فقلت له : إن لون بشرتك فى غاية السواد واسمك فى غاية البياض ، فقال ضاحكا :

- إنه أثر بلاد الكفر الذى أحال النور إلى ظلام !

حين رجعنا وركبنا المركب قال الصبى المراكبى مخاطبا أحد الإنجليز :

- اقذف بجنيه فى البحر وسوف أستخرجه .

وهكذا ألقى الإنجليزى بالجنيه فى الماء ، وغـاص الصبى وأخرجه فى فمه . وحـين وصلنا بالقرب من السفينة ، ونال المراكـبى أجره ، قال بلغة إنجليزية واضحة :

- اسمع يا مسـتر ! جاء دورك لتغـوص فى الماء ، سوف أقذف بهذه الروبية فى الماء ، وعليك أن تستخرجها . .

وضحك الإنجليزى من هذا المزاح الماجن .

فى وقت العصر قدم سيد حسين حُمود وعبد الشكور إلى السفينة للقائنا مرة أخرى ، وصـرحوا لنا برغبتهما فى المبـايعة على الانضمام لسلسلة الطريقة النظامية . وهكذا انضم الاثنان إلى مشيختنا ،أى إلى الطريقة النظامية .

بعد المغرب بدأت السفينة فى التحـرك ، وكان أحد التجار اليهود من عدن قد ركب السفـينة ، وانضم إلى ركاب الدرجة الأولى ، كان فى التسعين من عمره ، وكان يشبه تمامًا - مع الفارق طبعا - سر سيد أحمـد خان (١٨) . تحيـرت وأخذت أُحملق فـيه : طربوش تركى ، قمـيص وبنطلون ، لحيـة بيضـاء ، وصوت جهـورى ، نفس الملامح ونفس الهيئة ، الخالق الناطق سر سيد أحمد خان !!

قدم كـثيـر من اليهود لوداعـه حتى امـتلأت السفـينة بالطرابيش التركية، كان هذا الزى هو الزى الذى اشتهر به أصحاب (جامعة) على كره . كان شكـل بعضـهم يوحى بالنورانية والبركـة ، وكأنك تظن -

لا سمح الله - أنهم من أصحاب التهجد ، والفرق فقط بينهم وبين المتهجدين هو وجود ضفائر الشعر الكثيف التى تتدلى بجوار الإذن ، فيجعلهم يبدون فى مقتبل العمر . وهم موفورو الصحة ، وجميعهم بيض الوجوه ، ويعطيك منظرهم إيحاء بأنهم قادمون فى التو من (جامعة) على كره ، وكلهم بلا استثناء مثل السادة الحريصين على ارتداء الأزياء العصرية . . كان هؤلاء اليهود فى طريقهم إلى مدينة بور سعيد ، وهم من أمراء عدن .

سمعت أن درجة الحرارة فى البحر الأحمر ترتفع كثيرا ؛ ولهذا قضيت الليل نائما على ظهر السفينة ، إلا أن برودة الهواء ثم عصف الريح الذى كان يدوى طوال الليل لم يسمحا لى بالنوم ، فنهضت فى الساعة الثالثة وتوجهت إلى « كابينتى » .

بعد أن شاهدت العرب البدو وتحدثت إليهم ، وصلت إلى نتيجة مفادها أن فيهم استعدادًا كاملاً للرقى والتطور ، ويحتاجون فقط إلى تجميع قوتهم . ونحن الهنود للأسف نضيع عزتنا بأيدينا ، فقد وقعت اليوم حادثة مؤسفة للغاية ، وملخصها أن أحد الهنود الجهلة من ركاب الدرجة الأولى جلس على أريكة ليستريح ، ولم يكلف خاطره بالنظر على الأريكة ، فإذا به يجلس على « قبعة » أحد الإنجليز ، وكان قد تركها وذهب ليقضى أمرا ما ، « فانبجعت » القبعة من تحت الهندى حتى اختفت تماما . وحين رجع الإنجليزى من مهمته أخذ يبحث عن قبعته ، ولم يخطر بباله أبدا أن قبعته قد « انفعصت » تحت

ثقل هذا الرجل السمين ، أخذ ينظر يمينا وشمالا ثم سكت . وحين رفع هذا الرجل الجالس جسمه الضخم ، فإذا به يدرك أن القبعة قابعة تحته ، فاستشاط الإنجليزى غضبا ، وأخذ يسب ويشتم ويلعن بشكل لا يمكن تصوره . . كان من المناسب أن يقدم له الاعتذار عما حدث ، لكن هذا الجاهل لا يدرى معنى الاعتذار ، وحين عرفت القصة اتجهت إلى الإنجليزى واعتذرت له .

وبينما كنت أجلس فى الكابينة جاءنى بعض المسلمين من ركاب الدرجة الثالثة ، وكانت النتيجة أن بقعا من الزيت التى حملوها معهم علقت بمعطف رستم وبنطلونه ، وبدت البقع كأنها لها أثر حروق . وحين قدم رستم من الخارج ، ورأى الملابس بهذا الشكل ، سكت لم ينطق بكلمة ؛فقد منع وجود هؤلاء الناس فى الكابينة المجوسى المسكين من الكلام ، ومع هذا فقد شعرت بالخجل الشديد ، وطلبت منه المعذرة .

مثل هذه الأمور تجعل الأوربيين ينفرون منا ، ويعتبروننا مثل الحيوانات .

فى البحر الأحمر - ٨ يونيو ١٩١١ م

الخميس ، على عكس ما كنا نأمل ارتفعت الأمواج فى البحر الأحمر ، لا أدرى لماذا يطلقون عليه البحر الأحمر ؟ فمن ناحية اللون

يبدو على مرمى البصر أسود ، وقد عرفت بعدها أن الرمال فى قاعه لونها أحمر !

تناقشت اليوم مع قاضى مدينة سورت الهندوكى عن قضية المرأة فى الهند ، وكان نقاشنا طيبا . كان القاضى يصطحب معه فى هذا السفر زوجته ، وهى سيدة على درجة كبيرة من الثقافة ، فضلا عن كونها خبيرة بأصول الذوق والآداب الإنجليزية ، وكلاهما على خلق طيب ، ويتصفان بالسماحة الشديدة ، وكثيرا ما كان يأتى إلى ليسألنى إن كنت أعانى من شىء أو أحتاج إلى شىء . وكانت زوجته متعاطفة جدا مع نساء الدرجة الثالثة المسلمات اللاتى كن فى طريقهن إلى المدينة المنورة ، وكانت دائمة السؤال عنى والاستفسار عن صحتى .

فى الغربة تتلاشى جميع الفروق بين أهل الهند ، مهما كانت معتقداتهم وأديانهم ، ليتهم يسلكون هذا السلوك المتسامح داخل وطنهم .

الفلفل متوفر بكثرة والشطة كذلك ، قمنا بالتضحية بالطعام الإنجليزى ، وأخذنا نأكل بلذة شديدة طعامنا الوطنى ، فما ألذ الطعام البلدى .

تحدثت اليوم حديثا طيبا مع القنصل الإنجليزى العام ،كان يجيد اللغة الفارسية .

وهكذا صار شاغلى الشاغل هو تناول الطعام ثم الصعود إلى سطح السفينة ، وهناك أتحدث مع الصديق الفرنسى عن تاريخ

الإسلام وعن التصوف . كان من يعرف الفـارسية ممن يجلسون حولنا ينضم إلينا ، وهكذا وجدنا وسيلة لقضاء الوقت . شعرت بأننى أؤدى واجب التبليغ حـقه ؛ فمثل هؤلاء الناس يسيـئون فهم مئـات القضايا الإسلامـية ، وهكذا فالـلقاء بهم وإفهـامهم وتصحـيح أخطائهم عن الإسلام من الأمور الضرورية .

٩ يونيو ١٩١١ م

الجمـعة ، للأسف لم يكتب محـمد رفيق بيه عن أحـوال الترك حتى الآن ، كنت قد التـقيت به عند السفيـر التركى فى بمباى ، وهو الآن رفيق سـفرى فى رحلتى هذه ، نلتـقى بين الحين والآخر ، وهو رجل عمـلى مســتنير ، وقد استكتبنى اليـوم كثيرا من النقـاط المفيدة جدا للسفر .

البحـر مضطرب ، فمـاؤه يفور ويفور ، ثم يـرتفع عاليا فـيبلل ملابسنا .

لم يبق على وصـولنا إلى السـويس سوى يومين فـقط ، كم يمل هذا الإنسان - ذو الأصل الترابى - الماء بسـرعة كبيرة ، ويتـحسر يود لو عاد يمشى على الأرض !

فى الصباح سيطر جو من البهـجة والسعادة على سطح السفينة ، كثيرا مـا كنت أقـيم الصلاة وأتلو القـرآن الكريم هناك ، حيث تمـتد

الأرائك على طول المكان ، وقد وضعت فوقها الفرش المريحة ، وكان الإنجليز ينامون فوقها ، وهي جميعها بلون واحد . كانت الملابس تثير فيمن يراها الدهشة والتعجب مع الإثارة والمتعة ، فالبعض يرتدى سروالا وقميصا قصيرا يغطى بالكاد ساقه ، بينما يرتدى البعض الآخر قميصا طويلا إلى حد ما ، ويبدو منظرهم كمنظر دار اليتامى فى جمعية حماية الإسلام فى الهند . أما منظر عيونهم حين ينهضون من الفراش ، ومن منظر أقدامهم العارية من أى حذاء ، ومنظر الإزار يسقط بالسروال بينما يحاولون رفعه لأعلى - كل هذا يستحق الفرجة، وهم مثل « حرامى الحلة » فى أجمير الشريف لكن بوجوه بيضاء ، وبعد ساعة تقريبا يتحول هؤلاء الناس إلى أناس آخرين مهذبين مهندمين !

وهنا يجب على أبناء وطنى أن يعتبروا ، فهم لا يفرقون بين وضعهم خلال الأوقات المختلفة ، لا يفرقون بين وقت الأكل أو وقت النوم ، كما لا توجد لديهم ترتيبات معينة فى مخدع النوم ، ولا توجد لديهم قاعدة معينة وقت الاستيقاظ من النوم . وما نلاحظه هنا هو أن هؤلاء الأوربيين ملتزمون بقاعدة ما فى كل عمل من الأعمال ، وكل أوربى سواء كان إنجليزيا أو فرنسيا ، ألمانيا أو إيطاليا ، هو نموذج رائع للالتزام . كان هناك قسيس بلجيكى يتقلد منصب أسقف كنيسة فى كلكتا - كان مسافرا معنا على نفس السفينة ، ورغم منصبه وصفته فقد كان يتمتع بكل دقيقة طوال يومه ؛ كان يلعب الشطرنج ،

والعـجيب أنـه كان يضع شـروطا فى كل مـرة حـتى يلعب ويلاعب الآخـرين . وأقول إذا قـام أحـد شيـوخنا بما يقـوم به هذا الرجل ، أصدروا على الفور فتوى ضـده ، وقالوا بأنه غير راشد ، لكن هؤلاء الناس مـتحـررون قبـلا من الدين ، وما عـدا ذلك فهـو « بوليتـيكا » . وباختصار يقضى هؤلاء وقتهم على ظهر السفينة بشكل ممتع بين المزاح والضحك ، وبين السرور والانبساط .

هزتنا الأمواج ، وصرنا كأننا فوق أرجـوحة ؛ فالسفينة ترتفع بنا ناحية السماء حينا ، وتنزل بنا على الأرض حينا آخر .

١٠ يونيو ١٩١١ م

السـبت ، عقـدت اليوم جلسـة عند أخوتنا المسلمين مـن ركاب الدرجة الثالثة ، عمت البهجة والسرور نتيجة لهذه الصحبة والكلمات الطيبة والانشراح الذى عم الجميع . كان بينهم رجل مجوسى أيضا ، وهو رجل متـواضع ، يسافـر من بمباى كل سنة ، ولا يمل السـفر ، ينفـق مـائة وثـلاثين روبـيـة ، ويؤجـر سـريرا بأربـع روبيـات فـى بمـباى ، نفس الطاولة ، نفس الـكرسى ، نفس المخدع ، هكذا تكون الغربة . يجب على المسلمـين الفقراء أن يسافـروا على هذه الدرجة ، يجـب أن يـخـرجـوا من بيوتـهم وينتـشروا لـيـشاهــدوا أرض الله ، لا يفكرون فى تعب أو إرهاق ، فعلى الله تسهيل الأمور ، شريطة أن نتوكل عليه .

وأهل أوربا يشكلون جماعات ، ثم يأتون للفسحة والسياحة فى الهند . ألا يجوز لنا نحن المسلمين أيضا أن نشكل جماعة ونسيح فى أرض الله ؟! وليسافر الأغنياء فى الدرجة الأولى ، ونحن الفقراء يمكن أن نسافر فى الدرجة الثالثة ، وسوف يؤدى السفر فى جماعات إلى خفض النفقات .

ويجب أن نبدأ أولا السفر للسياحة فى البلدان الإسلامية ، إننى أتمنى أن أجمع فى العام القادم مجموعة كبيرة ، ثم ننطلق معا للتجول فى جميع أنحاء جزيرة العرب والعراق وإفريقيا . وسوف أعلن لمن يوافقنى الرأى أن يستعد لذلك ، على أن نسافر إلى جزيرة العرب والشام وتركيا وإفريقيا ، شريطة أن يكون سفرنا بالدرجة الثالثة ، وعندئذ سيكون مبلغ خمسمائة روبية كافيا للشخص ؛ فنحن ذاهبون إلى حيث لا يسافر السياح المدللون . سوف نطوف هذه البلدان قرية بعد قرية ، ومديرية من بعد مديرية ، ومدينة من بعد مدينة ؛ لنطلع على عظمة ماضينا التليد وملامح مجدنا السابق .

١١ يونيو ١٩١١ م

الأحد ، تبادلت الحديث صباح اليوم ولمدة ساعة مع القنصل الإنجليزى العام فى البصرة ، ودار الحديث عن مسلمى العالم وبالخصوص مسملى تركيا . والقنصل الإنجليزى يجيد اللغة الفارسية ، وهو يأسف كثيرا على أحوال المسلمين المتدنية هذه الأيام . وأثناء الحديث ورد ذكر السلطان عبد الحميد ، فقال :

- مع أنه لم يكن رجلا جيدا ، لكنه كان فردا واحدا ، والآن بعد تشكيل البرلمان صار كل تركى عبد الحميد ، لا يعطى اعتبارا لمن أمامه .

فقلت له :

- هل تعتقد أن رقيا وتطورا حدثا فى الشعب التركى بتشكيل البرلمان ؟!

فأجاب :

- على حد علمى لن يتطور الشعب التركى للأمام قيد بوصة ؛ فهم منصرفون إلى شرب القهوة وتدخين السيكار ، يتكلمون كثيرا ، لم يتدنَ وضعهم كثيرا حتى الآن . إنهم يخططون حتى يصل القطار والترام والطائرات إلى كل شارع وحارة فى بلادهم ، لكنهم لا يفكرون فى كيفية تحقيق هذا الأمر ، ولا يتدبرون كيفية الوصول إليه ، ولا يدرسون عن الأشياء التى تمكنهم من تهيئة هذه الأمور ، وهل هى متوفرة لديهم أم لا ؛ فالأتراك أمة مقاتلة ، وروح القتال تسرى فى كل فرد من أفراد هذه الأمة التركية . وهذا شيء طيب ، لكن الأمة تحقق التطور والتقدم عن طريق التجارة والصناعة ، مع كون القتال والحرب فى جذورها . ومن هنا فجذور الأمة التركية صحيحة ، لكن ينقصها التطور والنماء ؛ فليس من بينهم رجل يحمل بداخله صلاحية تطوير البنوك والأعمال التجارية ،

وهو ما تحتاجه الأمة التركية اليوم . إن حركة الرقى والتطور التى أجدها اليوم فى مسلمى الهند تجعلنى أضع الأمل فى أنهم سيصلون إلى هدفهم قبل الأتراك ؛ لأن النجاح أو التوفيق يتحقق من فكرة أننى لا أعرف شيئا ، ولهذا يجب علىّ أن أتعلم ؛ حتى أعرف . لكن الحكومة التركية فى غمرة اعتدادها وفخرها بنفسها ، تظن أنها على دراية بكل شىء ، ومن هنا فهى تحاول أن تعمل شيئا .

أظن أن كلام القنصل العام قائم فى أساسه على الفهم الخاطئ المنتشر فى أوربا فيما يتعلق بالأتراك .

١٢ الوصول إلى السويس - ١٢ يونيو ١٩١١ م

منذ الليلة الماضية بل منذ يومين وأنا أشعر بالبرد ، ولهذا صار من الضرورى أن أتلفح بالملابس الثقيلة داخل « الكابينة » ، مع أننا لا نستطيع قبلا النوم دون استخدام المروحة الكهربائية .

مساء أمس حين كنا ننظر إلى شاطئ البحر حيث بدت لنا سلسلة الجبال العالية ، قال أحد الأصدقاء الألمان :

- هناك فى هذه الناحية جبل ذو لون واحد ، بينما هناك فى الجانب الآخر جبل أبلق .

فسألته عما يقصد بهذا الكلام ، فقال :

- الجبل ذو اللون الأبيض جبل الحجاز ، حيث الأتراك يحكمون منفردين لا يشاركهم أحد . وفى الناحية الأخرى سلسلة الجبال المصرية حيث يشاركهم الإنجليز فى حكم البلاد ، ونتيجة لاختلاط الأسود والأبيض فقد سميته الأبلق .

كان هذا الصديق الألمانى يعمل فى البحرين ، وهو يجيد الفارسية . ذكرت له ما قاله القنصل الإنجليزى العام سابق الذكر ، وأخبرته أيضا بوجهة نظرى وشعورى بأن القنصل الإنجليزى لا يميل إلى الأتراك ، ثم سألته :

- ما رأيك فى الأتراك فأنتم الألمان قريبون منهم ؟

فتلعثم قائلا :

- أنا أختلف تماما فى الرأى مع القنصل العام الإنجليزى ، فهو لم يذكر الحقيقة ، لكنه أدى واجبه بالتعبير عن اتجاهات السياسة الإنجليزية ؛ فالإنجليز يحاولون أن يخفوا عن العالم الإسلامى التطور الذى أحرزه الأتراك . لابد أن تتأكد من أن الأتراك يمضون بخطوات سريعة على درب التطور والرقى ، وسوف يدخلون مضمار التقدم الأوربى عن قريب .

يا للعجب ! أى منهما أصدق ؟! إنه أمر صعب حقا ! فأنا أختلف بصفة شخصية مع رأى الألمانى ، وأنا أعرف جيدا أن الألمان أعداء للإنجليز . ومن الخطأ القول بأنهم يعادون الأتراك مثلما يعادون

الإنجليز ، والإنجليز ليسوا من الجهل حتى يحاولوا إخفاء هذه الأمور التى يصعب إبقاؤها فى الخفاء ، ثم ماذا يفيد الإنجليز إذا بقى التطور التركى مخفيا عن أنظار المسلمين ؟!

إن عداوة أهل ألمانيا للإنجليز لا يمكن أن تظل فى الخفاء ، وهكذا قال الألمانى فى النهاية :

– ملك ألمانيا صديق للمسلمين ، إن حكومة ألمانيا لم تستعمر أى بلد ، كما أنها تود تطوير التجارة فقط .

وهكذا يمكن للقارئ أن يستنتج التعصب الألمانى !

فى الساعة السادسة صباحا ألقت السفينة بمرساها عند ميناء السويس ، ووصلنا إلى الشاطئ بعد انتهاء المعاينة الطبية . وقد دفعنا أجر المركب روبيتين لكل شخص ، وهؤلاء « المراكبية » أشرار جدا ، فقد لاحظوا أننى من مسافرى الدرجة الأولى ، وهكذا صرت فى نظرهم « مستر MR » ، فأرادوا أن يأخذوا منى أربع روبيات ، إلا أن صديقى التركى هددهم فسكتوا . وعلى الشاطئ كان فى انتظارنا موظف شركة « كوك » فأوصلنا بسرعة إلى مقر « القرنطينة » ، وتم تبخير الملابس المتسخة الخاصة بأصدقائنا . وبعدها أخذ أحد الموظفين المصريين عشرة قروش ، وسلمنا الشهادة الطبية . لقد اشتكى مولانا شبلى وغيره من السياح من الحمالين هنا ، ومن « المراكبية » ومن المترجمين وغيرهم من عامة الناس ، وقد وجدت شكواهم فى محلها ؛

فهـؤلاء الناس يعتقـدون أن الشخص الطيب الذى لا تجربة له بالسـفر بقرة أو نعجة ، فيريدون ذبحه بالسكين ، وكلامهم من أوله إلى آخره نصب وخداع واحتيال ، لكن مـاذا يفعل المسافر المسكين ؟! إن هؤلاء التعـساء يستغلـونه أبشع استغلال ، فـيأخذون منه فى ظرف سـاعتين حـوالى نصف جنيه ، ومع هذا لا يشـبع نهـمهم ، ولا يقـضى على طمعهم .

أجرنا عربة وتجـولنا فى مدينة السويس ، كانت المنطقـة التجارية من المدينة عامرة ومـبهجة ، كل ما فيهـا يسر الناظرين ، لكن المنطقة السكنيـة كانت خـاوية موحـشة . وفى هذا الوقت القـصيـر أمكننى التعـرف على بعض مزارات وأضـرحة الشـيوخ الذين يعـدون مرجع الخلائق فى مدينة السويس ، وأثبت للقارىء أسماءهم :

١ - سعيد عبد الله الغريب .

٢ - سيد الخضر .

٣ - سيد أبو النور .

٤ - سيدى شيخ مشمش .

٥ - سيدى شيخ فرح .

٦ - سيدى العشرى .

٧ - سيدى الأنصارى .

٨ - سيدى الأربعين .

٩ - سيدى أبو ليف .

١٠ - سيدى شيخ جنيدى رحمهم الله .

حين بدأ « الحنطور » يمضى بنا فى شوارع مدينة السويس ، بدأ « العربجى » يصيح بالناس :

- يمينك . . يمينك . .

أغرقنى هذا النداء الذى صدر بالعربية فى حالة من الوجد .

كان إذا ما اعترض طريقه صبى صاح فيه :

- يا ولد . . يا ولد .

وإذا ما اعترضت طريقه امرأة صاح فيها :

- يا بنت . . . يا بنت . . .

آه ! يا لها من لغة حلوة . . عذبة !!

ذهبت إلى مكتب البريد ، كان مدير مكتب البريد مصريا مسلما ، أظهر اهتماما شديدا بأحوال المسلمين .

والخلاصة أننا وصلنا إلى محطة القطار فى الساعة الحادية عشرة والنصف ، يتحرك القطار فى الساعة الثانية عشرة ، أخذ المترجم يشترى لنا التذاكر ويتدبر بقية الأمور . حين ركبنا القطار كان برفقتنا

حافظ عبـد القادر نكينوى (بكاف فارسيـة) الترزى ، وكان متـوجها إلى مصر (القاهرة) ،وكان أحد المترجمين قد ركب دماغه ، لا يريد أن يتحرك دون أن نعطيه روبيتين . .

- أعطنى روبيتين . .

أخذ يزعق ويصرخ وكأن روحه قد طلعت ، فتدخل مترجمنا فى الأمر قائلا بأنه يجب أن نعطيه شيئا ، فقال الترزى :

- على أى شيء ؟ ماذا فـعل لى ؟ لقد أحـضر التذكـرة فقط ، وجلس معى هكذا دون حـاجة لمدة ساعـتين ، لم تكن لى به حاجة تذكر . .

فقال المترجم :

- هل قلت لى لا ضرورة لك ، وأنك لا تحتاجنى .

فقال الترزى :

- كان يجب أن تفهم هذا من البـداية ، فحين ذهبت إلى السوق لتناول الطعام رافقتنى وشاركتنى فيه دون داع لذلك ، وكلفتنى أيضا ثمن طعامك ، وطلّعت عيونى .

ولكن المترجم لم يـتزحزح عن مطلبـه ، وكان على استـعداد أن يموت دونه ، فقلت للترزى :

- لا تخف ، واجه بشجاعة ، هؤلاء الناس يظنوننا جبناء .

وقمت أنا أيضا بتعنيفه ، وأمام جمع غفير من الناس وقفنا بأجسامنا الضعيفة ، وظللنا واقفين ، وإذا بالمترجم يمد يديه طالبا العفو قائلا :

- دعونى أذهب . .

ثم أخذ يسب ويشتم وهو يغادر عربة القطار .

حقا ! لقد كتب حافظ عبد الرحمن السائح الصدق حين ذكر أن المصريين أعداء للمسافرين القادمين إلى بلادهم ، وأنه إذا حدث عراك أو شجار بين مصرى وأجنبى ، انضم إلى المصرى جميع مواطنيه ، لكن أحدا من المصريين لم يتدخل فى هذا العراك الذى دار بيننا ، وجلسوا جميعا صامتين يتطلعون إلى ما كان يدور أمامهم .

يجب الاحتراز تماما من هؤلاء المترجمين ، فإذا ما ظهروا أمامك وجب عليك أن تهددهم ، وأن تبعدهم عن طريقك . وفى السويس تجد من يتكلم أى لغة فى العالم ، وحتى إذا لم تصب بضرر ما فإنك تخطئ إذا ما اعتمدت على هؤلاء المترجمين ، وإذا حدث واضطررت إلى التعامل معهم فلا تخش أجسامهم الضخمة وهيئتهم المخيفة ؛ فهم جبناء ضعاف الهمة ، كما أنهم يتصفون بالدناءة ، فإذا ما هددتهم مرة واحدة ، هربوا على الفور من المواجهة .

يجب أن نغير القطار بعد سفر ساعة من مدينة السويس ، فقد وصلنا إلى الإسماعيلية ، كما يجب أن ننتظر قرابة ساعة . كان رصيف المحطة نظيفا جدا وجميلا للغاية . فى مقهى جميل جلسنا ، فظهر أمامنا على الفور صبى أرمنى يرتدى « حلة » نظيفة ، تلقى طلبنا بإحضار الشاى ، وذهب على الفور .

حين كان الناس يطلبون منه طلبا ، كان يبتسم إليهم ابتسامة تغطى جميع قسمات وجهه ، ويحنى رقبته قائلا :

- طيب . . طيب .

ويحرك قامته الممشوقة ، وهو يمشى بطريقة تنم عن أنه تعلم هذه الطريقة من ممثلى المسرح . . هؤلاء النصارى الأرمن اليونانيون يكسبون المال بهذه الحركات ، كما أنهم يختارون لوظائفهم الأولاد الذين يتصفون بالوسامة والرشاقة ؛ لكى يجذبوا الزبائن إلى محلاتهم .

رأيت الزبائن الأثرياء ينادون على هذا الصبى مرة بعد أخرى ، بينما أخذ الصبى يلتفت هنا وهناك ، يلبى فور نداء من يشير إليه ، فيهرع إليه يضحك ويبتسم ويبدى لهم العجائب !

قال رفاقى إن معظم المقاهى فى مصر (القاهرة) تستخدم مثل هؤلاء الصبية المدربين ، لكن حين وصلت إلى القاهرة لم أشاهد سوى القليل جدا من المقاهى التى تستخدم مثل هؤلاء الصبية .

الوصول إلى القاهرة

وصلنا القاهرة فى الساعة الخامسة مساء ، كان القطار يمضى بسرعة كبيرة ، تاركا خلفه عددا كبيرا من المحطات ، ريف مصر مملوء بالخضرة . على محطة سكة حديد القاهرة واجهنا أيضا عراك الحمالين الذين انتشروا فى كل مكان ، وقدموا إلينا فى شكل جماعات تضم كل منها ثلاثة أو أربعة حمالين ، وفى النهاية فض أحد رجال الشرطة الاشتباك القائم . وحين عرف الشرطى والحمالون أن بيننا أحد الأتراك ، وأنه عثمانى ، خفضوا رؤوسهم احتراما له .

كان المترجم قد أرسل من السويس برقية إلى مدير « اللوكاندة الخضرة » بعد أن امتدحها كثيرا ، وفى القاهرة كان عامل « اللوكاندة الخضرة » فى انتظارنا على محطة القطار .. لكن حين مضينا فى الطريق إلى « اللوكاندة » أصابنا الدوار .. كان مكان « اللوكاندة » بين الحوارى الضيقة ، بالإضافة إلى أن المبنى كان مملوءا بالأسرة لدرجة أنك لا تجد مكانا للسير . وقد وصل الطمع بهؤلاء الناس إلى درجة أنهم صفوا الأسرة متلاصقة بجوار بعضها البعض ، والأجرة عشرة قروش فى اليوم ! انحبست أنفاسى من هول المنظر ، وربما أصابنى الدوار لو انتظرت قليلا ؛ وهكذا رجعت على الفور ، وقلت لسائق العربة :

- خذنى إلى الفندق الذى يقيم فيه الإنجليز .

وهكذا أخذنى إلى سوق الأزبكية ، حيث الشوارع فسيحة واسعة والمبانى رائعة ، كأنها تضارع شوارع باريس ، وينزل هنا جميع أهل أوربا بلا استثناء ، وتوجد هنا فنادق كبيرة . أعجبنا فندق يسمى « المنتزه » يمتلكه يونانى نصرانى ، ومن حيث البناء فهو فندق جميل جدا ، أرضيته كلها من المرمر ، وغرفه واسعة جيدة التهوية . ويوجد فى الغرف الكبيرة سريران « بناموسية » ،وفى الغرف الصغيرة سرير واحد « بناموسية» ، والغرفة مهيأة بسبل الراحة على أعلى مستوى، ودورة المياه نظيفة جدا ، والماء الساخن متوفر فى جميع الأوقات . وخلاصة القول أن كل شىء هنا على مستوى عال ، ويساويه فندق « ميدن » وفندق « سيسل » فى دهلى الذى إيجاره سبع روبيات ، بل هما أقل كثيرا منه من حيث المستوى . وحين سألنا عن الأجرة قيل لنا ١٢ قرشا فى اليوم ، أى بزيادة قرش واحد فقط عن اللوكاندة الخضرة . . الله أكبر ! فرق السماء والأرض . .

إن هؤلاء المسلمين لا يعرفون على الإطلاق أسلوب الكسب ، يريدون أن يغمضوا أعينهم وينهبوا الناس ! انظروا إلى النصارى ! كيف قدروا هذا الإيجار القليل إذا ما قورن بجودة الغرفة ومحتوياتها وسبل الراحة المتوفرة فيها ؛ وهكذا يجبرون الإنسان على قبول السكن عندهم على الفور ، وكلما جاء هنا حرص على أن يأتى إليهم أيضا دون غيرهم .والمسلمون الذين يفكرون فى أمور الدين لا يقيمون هنا لمجرد أنهم يرون أن هذا فندق مملوك للنصارى ، بينما هؤلاء النصارى

لا يدرسون فيه تعاليم الإنجيل ، بل هو مكان لنزول المسافرين فقط . أما أخلاق مالك الفندق فحدث ولا حرج ، إذا ما ذهب ناحيته مسافر نهض من فوره ، وتقدم نحوه بالتعظيم والسلام ، وقام بخدمته على أحسن وجه ، وعاين بنفسه تنفيذ ما أمر به . وتجدر الإشارة إلى أن جميع العاملين بالفندق من المسلمين ، والفندق مكتظ بالنزلاء من أوله إلى آخره ، وجميعهم تقريبا من أعيان المسلمين الكبار ، ومالك الفندق من الذكاء والدهاء لدرجة أنه إذا ما شاهد النزلاء يسبحون أمسك بمسبحة فى يده ، وقد سألته :

- أنت نصرانى ، فلماذ تسبح ؟

فقال :

- إن التسبيح مأمور به فى ديننا أيضا .

ومالك الفندق هذا شيخ عجوز ، كنت إذا ما خرجت للنزهة فى « الحنطور » وأراد صاحب « الحنطور » أن يتعارك معى ، أتيت الفندق ، وسلمت الأجرة إلى مالك الفندق ، فيتولى بنفسه تصريف مثل هذه الأمور .

خرجنا لتناول الطعام فى أحد المطاعم ؛ لأن الفندق للإقامة فقط ، والمطاعم منتشرة بكثرة فى هذا المكان ، تقدم فى كل الأوقات أجود أنواع الطعام ، تناولنا طعاما احتوى على أربعة أصناف جيدة من الأطباق اللذيذة ، وكان السعر مناسبا جدا ؛ لأننى سمعت حكايات

كثيرة عن غلاء مصر ، وهذا السعر مثل السعر فى بمباى ، حيث لا يتيسر الطعام الجيد حتى بعشر آنات أو باثنتى عشرة آنة . ولما كنت مقيدا داخل قفص بالسفينة مدة اثنى عشر يوما ، لهذا أُصبت اليوم بتعب شديد من كثرة المشى تحت أشعة الشمس ؛ وهكذا أعددت العدة للنوم المبكر . وكنت قد تعودت عادة سخيفة ، وهى تدليك قدمى قبل النوم ، وقد دفعت اليوم ثمن العادة السيئة ، فلم يوانينى النوم بأى شكل من الأشكال ، وعانيت كثيرا ، وكنت كلما داعب النوم جفونى استيقظت على كوابيس مرعبة .

١٣ يونيو ١٩١١ م

الثلاثاء ، استيقظت وظل التعب الذى حل بى من قبل كما هو ، ففكرت فى الذهاب إلى حمام ، لعله يزيل عنى هذا التعب ، وأرشدنى صاحب الفندق إلى حمام جيد ، فركبت العربة وذهبت إلى الحمام . .

كان الحمام واسعا ، لكن رائحة العفونة كانت تفوح من بين جوانبه ! يا حفيظ !! خلعت ملابسى ولففت إزارى ، ونزلت إلى أسفل فوجدت عددا من المصريين العرايا ، أجسامهم ضخمة وبنيانهم قوى ، شاهدوا جسدى النحيل ، فأخذوا يدعون بصوت عال أن ينجينى الله من مرض الهزال الذى أعانى منه ، فتأذيت كثيرا من كلامهم هذا ، مما أضاف إلى معاناتى من رائحة الحمام الكريهة

وشـدة الحرارة . وبدأت أشـعر بأنفـاسى تحـتبس ، كل شيء قـذر ، والحمـام فى القـاع كله قذارة . وكـان هؤلاء الناس عرايا تمامـا وقت الاستحمـام ، وبينما كان بعض العجائز يجلسـون عرايا أمام المدلكين العاملين فى الحمام شعرت بعـرق الخجل يتصبب منى بغزارة . وحين جـاء دورى أراد المدلك أن يفك إزارى ، فـنهرته بـشدة ، وانتـهـيت سريعا ، وخرجت . .

كتب حافظ عـبد الرحمن فى مذكـراته أن الأجرة ثلاثة قروش ، لكن عامل الحمام فهم أننى أجنبى ،وطبقـا لقاعدة الخداع المصرية أخذ منى عشـرة قروش . فإذا كـان هذا هو الحمام الذى ذاعت شـهرته ، فعليـه وعلى جميع الحـمامات السـلام ، فالحمـامات عندنا فى دهلى والمدلـكون العـاملـون فـيهـا ألطف ألف مرة ، وأحسـن ألف مرة من هذا الحمّام .

من الممكن أن يكون سـائق العربة قـد أوصلنى إلى مكان سئ ، سوف أبحث الأمر ،وأحقق فى الموضوع بالتفصيل .

عند الظهر وصل البريد من شركـة « كوك » ، أشعرتنا الصحف والرسائـل التى وصلت من دهلى برائحة الوطن . فـى العصر قـمت أولا بزيارة « رأس » سيدى ومولاى أميـر المؤمنين مولانا الحسين عليه السلام المبارك ، لكن للأسف افتقـدت حضور القلب ، فقد تلاحقت علىّ الأفكار من كـل صـوب ، ولم أنجح فى اسـتـحـضـار قلبى بما

يتناسب والمقام ، ولهذا رجعت على الفـور . والتقيت بعدها بشخص يدعى عـبد الـكريم ، من سكان « كهـنايت » ، يعمل بـالتجـارة فى القـاهرة منذ مـدة طويـلة . وهو رجل عـلى خلق عظيم ، ويشـتهـر بكرم الضيـافة . أخـذته معى (واعتـبرته متـرجما لـى) لزيارة شيخ المشايخ المصـرى الشهير سـيد توفيق البكرى ، وهو فى درجـة تساوى درجـة شـيخ الإسـلام التـركى ، وبيـتـه بؤرة تجـمع لكل مـشـايخ مصر،والخـديوى نفسه ينصاع لكلامه ، بـل يعمل طبقا لمشورته فـيما يتعلق بمعظم الأمور الدينية ، وفى شئون البلاد أيضا .

رأى اسمى على الـبطاقة ، وهكذا دعيت إلى مـجلس الضيـافة حيث يلتقى الشيخ بضيوفه ، صالة فسيحة تساوى صالة « ستريتشى » فى على كره . قـال إن حلقة الذكر تقام فى هذه الصـالة ، (إن شاء الله سوف نؤسس قريبـا مثل هذه الصالة من أجل حلقة مـشايخنا فى دهلى) . صُفَّت الكراسى المذهبة فى جـوانب المجلس الأربعة ، كلها كراسى مـتشابهة لا يوجـد بينها أى فرق ، ويفهم من هذا أن حـضرة الشيخ لا يميـز نفسه عن بقيـة الناس ، كما أنه لـم يخص نفـسه بمكان متميز بين الحاضرين . .

دخل الشـيخ بعد قليل ، شـيخ جليل فى الأربعين من عـمره ، جسمه يشبه جسمى تماما ، نحـيف ضعيف ، وبشرته مثل بشرة العباد الزهاد ، شاحبة ، يلبس عباءة سـوداء وعمامة بيضاء . أجلسنى على كرسى قريب منه ، وبدأنـا تبادل الأحاديث ، أكثر الشـيخ من أسئلته

عن مسلمى الهند ، وكأنه كان يرغب فى التعرف على جغرافية مسلمى الهند . وسأل عن أحوال الهندوس والمسلمين ، وعن أحوال الخاصة والعامة والنساء والرجال والعلماء والمشايخ ، سأل عن أحوال كل طبقة وكل فرقة ، وظل يستفسر عن تعليمهم وعن أحوالهم التجارية والثقافية ، وبدا من أسئلته أنه أكثر خبرة من صحافيى أهل أوربا .

فى بعض الأحيان كان المترجم يجيب من عنده على بعض الأسئلة فكان يقول له :

- اسأله . . لا تجب بنفسك . .

استغرق الحديث ساعتين بالتمام والكمال . وفى النهاية قدمت له صفحات تضمنت معلومات عن أهداف حلقة المشايخ عندنا ، كانت مترجمة إلى اللغة العربية ، مع شرح موجز لبعض النقاط التى وردت فيها ، ظل يقرأها لنصف ساعة ، وهو يردد : طيب ، طيب ! ثم قال :

- إننى أود أن أتحدث معك مستفسرا عن هذا الموضوع ، غدا تتناول معى طعام الغداء ؛ حتى يمكن أن نتحدث .

ثم قال :

- كنت قد كتبت شيئا عن مشايخ مصر وأشغالهم ، سوف أطلعك على ما كتبت ، ويمكنك ساعتها أن تشرح لى أفكارك وتصورك عن حلقة مشايخكم فى الهند .

عندئذ طلبنا الإذن من هذا الرجل الفاضل ، فريد زمانه ووحيد عصره ، فودعنا حتى الباب ؛ ليعبر بذلك عن أخلاقه الإسلامية الطيبة .

بعد أن ودعنا الشيخ البكرى رجعنا إلى الفندق ، ثم تناولنا الطعام . وفى المساء تفسحنا فى الحديقة القريبة من الفندق ، كانت التذكرة بنصف قرش ، شاهدنا فى الداخل الشبان المصريين يتجولون فى الحديقة وهم يرتدون « البدل » الأنيقة ، كانت هناك لوحات مثبتة على الحشائش منتشرة فى أماكن متفرقة ، مكتوب عليها « ممنوع قطف الزهور » .

كان عدد النسوة المصريات والرجال المصريين من المسلمين أكثر من عدد النسوة والرجال النصارى ؛ فالنساء المصريات المسلمات صرن الآن أكثر جرأة وحرية ، فى البداية كن يضعن فى نقابهم بجوار الأنف شيئا قبيحا مثل الخرطوم . وقد شكا جميع السياح الذين زاروا مصر من هذا المنظر ، لكن مثل هذا النقاب لم يعد شائعا بين نساء اليوم ؛ فالمرأة الآن تضع على وجهها قطعة سوداء من القماش ، فتغطى أنفها قليلا ، أما العيون وما فوقها وما تحتها فيظل مكشوفا لمن يريد أن يصوب سهمه ! والقماش المستخدم هنا شفاف جدا لدرجة أن «أحمر الشفايف» يبدو من تحته واضحا جدا للعيان ، وكأنهن بذلك يعرضن القمر خلف غلالة من السحاب الخفيف ، وفى السماء الصافية تستلزم رؤية بهجة القمر رفع العين قليلا إلى أعلى ؛ حتى تتمتع بالمشاهدة . أما العيون فهى سوداء ، زاد من سوادها الكحل الذى وضع على الرموش .

ترتدى المرأة هنا شيئا أشبه بالفستان ، تضع عليه « عباءة » سوداء[١٩] من الحرير ، وهى ملساء ، فكانت المرأة حين تمشى تتزحلق العباءة ، فتعمد المرأة إلى التطلع هنا وهناك ، وهى تتظاهر بالاضطراب خشية أن يشاهد أحد من الناس ما تحت العباءة ، وتقوم بتثبيت العباءة ، بينما يجلس الشباب على الأرائك ، ينتظرون فرصة مشاهدة هذا المنظر . وحين تقترب النسوة من منطقة الحشائش الخضراء ، تزداد حركات التدلل عن حدها ، فيهرولن ويتخبطن معا ، فتنبعث ضحكاتهن الرنانة وهن ينحنين خافضات رؤوسهن ، فى حركة يُظهرن بها أنهن لا يستطعن السيطرة على حالة النشوة التى تنتابهن .

آه من مقص جزّ الحشائش الذى تطوره المدنية الغربية ، فقد أخذ يجذ ويقطع أغصان الإيمان والقدسية البريئة مع قطعه للحشائش !

إذا كان هذا هو مستوى رقى المسلمين المصريين ، وإذا كان ما نراه هو غاية تعليم الإنجليز وتربيتهم ، فإن المتدينين الهنود عليهم من الآن أن يروا نتيجة المثقفين عندهم ، وعليهم أن يحفظوا غيرتهم وشرفهم فى خزانة محكمة ؛ حتى لا تصل إليها الرياح الموسمية ، وإلا فإذا خرجت النزعات المتوحشة فى مرحلة الشباب ، فإن ما يسمى بالمدنية سوف يحطم جميع الكائنات على وجه الأرض !

إن أهل مصر لم يأخذوا هذه الحرية التى يطلق عليها مسلمو الهند مصطلح « عدم الحياء » من أوربا ، بل إن مثل هذه العادات

موجودة لديهم من البداية ، ولتقرأوا « سورة يوسف » ، فقد ورد فيها تقديس المرأة للجمال . والرجل فـى ذلك الوقت لم يكن يجد حرجا من اهتمـامات المرأة وميلهـا لكل ما هو جمـيل حتى لو لم يكن ذلك مشروعا ، وكان يغمض الطرف عمدا ، وهكذا رأى عزيز مصر بعينيه حكاية زوجته زليخا مع يوسف عليه السلام ، تلك الحكاية التى ثبتت بالإشارات الغيبـية ، فقد أشارت الآيات القرآنيـة إلى أن زليخا كانت تحاول استـمالة يوسف إليها ، فـإذا كانت هناك ذرة شهامـة وغيرة ، لقُطّعت الرقاب وسـالت الدماء ، لكن عزيز مـصر اكتـفى بأن يشرح لزوجـته الموقف قـائلا : انظرى الخطأ خطـؤك ، يجب أن تقلعى عن ارتكاب مثـل هذه الأمور مسـتقـبلا ، إن كيـدكن عظيم ! وهكذا !! وانتهت الحكاية . . ثم نتعجب مما نراه ونحن فى عصر التمدن . . لماذا نأسى على نساء مصر ؟!

نمت نوما عميقـا ، كان الجو باردا إلى حد ما ، مما اضطرنى إلى الالتحاف جيـدا خشية البرد . لا ترتفع درجة الحرارة فى مـصر مثلما ترتفع فى دهلى ، وقد بدأت درجة الحـرارة فى الارتفاع اليوم ، لكن الحـرارة تشتـد فى شهـر أغسطس ، لكن ارتفـاع درجة الحـرارة ليس بالشىء الذى لا يحتمل ، فقد كنت قلقا جدا فيما يتعلق بارتفاع درجة الجو . وهكذا شعرت بالاطمئنان على ما قد يكون فى الأيام القادمة ، فلا يمكن أبدا أن تكون الحرارة هنا بأى حـال من الأحوال أشد مما هى عليه فى دهلى .

الحياة في القاهرة - ١٤ يونيو ١٩١١ م

الأربعاء ، في الصباح فرغت من الأمور العادية ، بعدها انشغلت بالكتابة . في الساعة العاشرة حضر عندى سيد محمد شاه جيلانى ، وهو من كبار أعيان السند ، كان يشتغل بالتجارة ، ولد في اليابان ، وتجول في جميع بلدان آسيا ، وهو الآن يمتلك متجرا في القاهرة . وسيد محمد شاه جيلانى رجل مستنير ، وعلى دراية تامة بأحوال الهند ، كما أنه يعرف الكثير عن نشاطاتى شخصيا ، من خلال مطالعته للصحف . وكنت قد التقيت به عند مزار سيدى الحسين عليه السلام ، واليوم جاء عندى ليجدد اللقاء ، فخرجت بصحبته للنزهة . عرفنى في البداية على أحد المصريين المسلمين المهتمين كثيرا بالهند وبالتصوف ، فدار بيننا حديث ممتع . هؤلاء الناس مثل الأوربيين ،وهم مثابرون ، كما أنهم يقفون جميعا في خندق « القومية » ، وكل شخص هنا يحاول بشكل فردى تحصيل علوم الدنيا وفنونها ، وعليه يجب أن نقيس الحماس الدينى لهذا المسلم الذى أذاب وجوده في فلسفة الهند ، فمعلومات هذا المسلم المصرى عن « الويد » معلومات طيبة ، ويمكن القول بأنه وصل في علم الويد إلى درجة رجل الدين الهندوكى(٢٠) ، بل إن عشقه للويد يفوق عشق البرهمن .

عند الظهر ذهبنا حسب الموعد إلى منزل السيد البكرى ، فتناولنا الطعام . وأشير إلى أن المشايخ هنا يتناولون الطعام جالسين على

الكراسى حول الطاولة ، ويحرص الشيخ البكرى فى الغالب على إعداد جميع أصناف الطعام اللذيذة المشهورة فى مصر ، ويصل تنوع الأطباق لدرجة أنه يصعب عليك أن تأخذ من بين أربعة أو خمسة أطباق متنوعة لقمة واحدة .

كان من بين هذه الأصناف فخذ خروف بالكامل ، وأيضا فطير بعسل النحل ، وشاهدت على فخذ الخروف الدهن الذى احمر لونه نتيجة الشواء ، وكان لحمه طريا لدرجة أنك إذا وضعت عليه يدك ، انفصلت قطع اللحم منه بسهولة . أما الفطير بالعسل فيبدو أنه صنع من العجين المخمر ، وكان العسل يتخلل طبقاته لدرجة أنك تشاهده بوضوح من فوقه ، فإذا وضعت لقمة فى فمك سال العسل منها ، وكان الشيخ البكرى يحثنى على متابعة الطعام قائلا :

- تفضل يا سيدى ! تفضل !

لكن بالصدفة لم يكن لى غير معدة واحدة ، وهى تلك المعدة التى حملتها بداخلى من دهلى . ولابد أن أذكر أن طعم الطعام فى دهلى ولكهنو لا مثيل له هنا !

بعد الطعام بدأ الكلام ، فورد ذكر مسلمى الصين ، كما ورد ذكر مسلمى الهند وبقية الدول الإسلامية ، وأنصت الشيخ جيدا لحديثى عن الجماعة الهندوكية « آرية سماج » ، لم أجد فرصة اليوم لأحدثه عن حلقتنا نظرا لكثرة الموضوعات التى ناقشناها اليوم وتنوعها .

ولما كان الشيخ يعانى من المرض ، ونظرا لضعفه وتواصل الحديث بيننا لأكثر من ساعتين ، فقد اضطربت دقات قلبه ، ومن هنا أجلنا استكمال الحديث لوقت آخر ، وطلبنا الإذن بالانصراف ، وتوجهنا مباشرة إلى الجامع الأزهر . .

الله أكبر ! الله أكبر ! هذا هو المكان الذى طبقت شهرته الآفاق ، والذى كنا ننصت إلى حكاياته منذ الطفولة . لكن لسوء الحظ كان الأزهر فى عطلة ، وهى عطلة ستستمر لثمانية أيام ، ومن هنا عاد الطلبة إلى بلادهم ، ومع هذا كان هناك حوالى ألف وخمسمائة طالب ، لم يكن الوقت وقت الدرس ، وانتشرت جماعات من الطلبة هنا وهناك ، انشغلوا جميعا بمراجعة دروسهم .

ذهبنا إلى رواق الهنود ، فوجدنا أربعة طلاب : واحد من دهلى من سكان بهاتك ، يدعى عبد الرحمن . وقد علمت أن أهل مصر غير راضين عن أحوال الأزهر ، وغير قانعين بأوضاعه الحالية ، وهم يريدون أن يضعوا الأزهر على الطريق الجديد ، لكن الشيوخ القدامى خائفون ، وخوفهم هذا يتضاءل تدريجيا ، والطلاب يطالعون الصحف بشراهة ، وهم متأثرون بتيارات العصر الجديد . وخلال أيام قليلة قد تظهر هنا ثورة عظيمة ، فينصلح حال الأزهر ، فهو قوة لا مثيل لها فى العالم الإسلامى ، ولا نظير لها أيضا فى أوربا .

بعد عودتنا من الأزهر ذهبنا للقاء المحامى المصرى الوطنى الشهير محمود بيه سالم ، وهو رجل متنور ذكى ، يفدى أمته بروحه . وكان قد دعانا لزيارته مساء السبت ؛ لكى نتحدث معا بالتفصيل .

أود أن أشير هنا إلى أن « السقّا » الذى يسقى الناس الماء فى مصر (القاهرة) مثله مثل السقا فى دهلى ، يضرب الصاجات النحاسية المثبتة بين أصابعه ، ويسقى الناس . والفرق فقط فى أن ملابس « السقا » المصرى نظيفة جدا ومهندمة ، وبدلا من قربة الماء يحمل إبريقا ضخما من الزجاج الشفاف . والباعة هنا أيضا يترنمون بأصوات جميلة وهم ينادون على بضاعتهم ، لكن للأسف لا أتمكن من فهم كلماتهم بطريقة جيدة ، وهكذا لم أستطع تدوينها .

ويمكن أن تقارن مدينة القاهرة بمدينة بمباى ، لكن . . يا حفيظ ! إن الفرق بين القاهرة وبمباى كالفرق بين السماء والأرض ؛ فالقاهرة حورية إسلامية ، بينما بمباى عفريت هندوسى ، فكل إنسان هنا وسيم ومهذب ومهندم ، وفى بمباى آلاف مؤلفة من العرايا كالحى الوجوه ، قبيحى المنظر ، غير مهذبين . ويندر هنا أن تجد رجلا أسود ، وإذا وجدت حبشيا فهو فى غاية النظافة والأناقة ، يرتدى البنطلون والبدلة ، حتى الحمال وعامل النظافة الذى يكنس الشوارع يرتدى زيا خاصا نظيفا . .

آه ! كان هذا فى دهلى فى يوم من الأيام ، لكنه ضاع وامحى بفعل الزمان . . .

أما البدلة التى يرتديها المصريون مع الطربوش فهى تعطيهم مظهرا بديعا . وإذا أردت أن تشاهد مقهى من مقاهى القاهرة فاذهب إلى كلية « على كره » ،حيث يرتدى الطلاب زى الكلية ، والفرق هو أن الزحام هنا هو داخل مقهى ، لكن يظل هناك فرق فيما يتعلق بعلى كره ، وهو أن من بين الطلبة فيها من هم سود البشرة أو نحيفو الجسم ، لكن فى مصر لا يتراءى لك رجل أسود أو ضعيف . والعجيب أننى لم أشاهد شخصا نحيفا ، فجميع المصريين أقوياء ، وأجسامهم ممتلئة ، قوية البنيان ، لكن معظمهم يعانى من أمراض العين لدرجة أننا لو حسبنا نسبتهم لوجدنا أن ثمانين بالمائة من المصريين يعانون من هذا المرض . وقد سألت الدكتور نصوحى عن السبب فقال إنهم يلقون بالماء الملوث فى الشوارع ، مما يصيب العيون بالأذى ، لكن هذا الكلام لم يدخل العقل !

كنت قد التقيت بالدكتور نصحي ، وكان قد زار الهند وتجول فيها ، ونشر إعلانا فى الصحف الأردية عن دوائه المشهور ، وقد اشتكى من سوء معاملة إحدى صحف البنجاب المشهورة ، وقد خجلت كثيرا مما ذكره لى فى شكواه .

الآثار الإسلامية والفرعونية ١٥ يونيو - ٢١ يونيو ١٩١١ م

أصبت بنزلة برد شديدة فى الخامس عشر من يونيو ، نظراً للتغير المفاجئ فى حالة الجـو ، مما تسبب فى استمرار ارتفـاع درجة الحرارة ، وإصابتى بالحمى لثلاث ليال متـواصلات . ورغم أننى قضيت عمرى بأكمله أعانى من المرض، لكننى لم أتعرض لمثل هذا العجز من قبل ، وستظل ذكرى اللـيلة الأولى عالقة فى ذهنى لمدة طويلة ، فقـد فقدت الوعى وفقدت كل إحساس بالوجود ، ووصلت شدة البرد الذى كنت أشعر به إلى درجة جعلتنى أصيح وأصرخ فى السيد / واجدى :

- زمّلنى . . زمّلنى . . غطنى باللحاف !

لكن أحـدًا لم يأت لنجدتى أو لمواسـاتى فيـما أشـعر به . لـقد أفادنى عـلاج الدكتور نصوحى ، كانت الحمى تعاودنى أثنـاء الليل ، فـإذا ما أفـقت منها قليلا وقت النهار ، بدأت فى التـجول ، لم أكن أود أن أضيـع الوقت هباءً ، لكن الصـداع زاد نتيـجة للزكـام . ولم أتمكن من كتابة يومـياتى لمدة ثمانية أيام متـواصلة ، ولهذا أسجل هنا باختصـار وبشكل كُلى مذكرات أسبـوع كامل ، على أن أبدأ من يوم ٢٢ الاستمرار فى كتابة مـذكراتى بشكل يومى كالمعتاد ، لأننى بفضل الله قد تحسنت كثيرا .

فى هذا الأسبوع كنت أذهب فى الغالب إلى مـزار سيدنا الحسين عليه السـلام ، وقد عوضت اليـوم الأول الذى لم أشعر فـيه باللطف

والوجد بتلك الزيارات المستمرة ، وقد تركت هذه الزيارات بداخلى وجدا ولطفا .

ذات يوم كتبت طلبا ، أخذته إلى مزار سيدنا الحسين ، وبعد صلاة الظهر ، ووسط جمهور غفير من الزوار ، وقفت أمام المزار المبارك ، وعرضت طلبى :

« السلام عليك يا ابن رسول الله ، السلام عليك يا فلذة كبد بنت رسول الله ، السلام على تلك الرأس التى قطعت وسقطت فى تراب كربلاء ، تلك الرأس التى تدلت منها الزلف المباركة التى لُفت عليها عمامة الإمامة ، تلك الرأس التى تحمل وجها شبيها بوجه صاحب الرسالة المنير ، وفى هذا الوجه عيون ينبعث منها نور الهداية ، وتلك الشفاه التى كان يقبلها سيد العرب والعجم ، أيتها الرأس التى حملت اللسان العطشان والحلقوم الجاف الذى كان إلى قطرة ماء ولهان . إن الأمة التى من أجلها كان مصيرك هى اليوم أمة ذليلة بين أمم العالم كلها ، هى أمة عشطى، أمة جوعى، أمة حقيرة ، أمة ذليلة ، بعض أفرادها فى الهند ، وقد حملت سلام هؤلاء المساكين فى الهند لأبلغك إياه ، فاقبل سلامهم يا صاحب القبول لدى الحضرة الإلهية ، يا محبوب رب العالمين . .

يا إلهى إنك تعلم أننى أقف فى مقام مقدس طاهر ، هذا المكان الذى يبعد ذراعا واحدة عن المكان الذى دفن فيه رأس الحسين ابن

فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ، ولهذا وبحق هذا المكان أطلب منك يا إلهى أن تقبل دعائى المتواضع .

بعدها بدأت أذكر مطالب كل شخص باسمه ، من بين أصحاب الطريقة والخلان وأهل الحلقة فى دهلى الذين طلبوا منى أن أدعو لهم ، وكتابة أسمائهم جميعا هنا يؤدى إلى التطويل دون حاجة ؛ لأننى سوف أقرأ الفهرس المطول بأسمائهم عند المقام المبارك ، وأدعو الله أن يحقق لكل منهم حاجته ، ولا أظن أن هناك متسعا لكتابة أسمائهم ضمن هذه المذكرات . ولا شك أن الدعاء المؤثر الذى جهزته من أجل المدينة المنورة ، وأعتبره آخر متاعى للتعبير عن عواطف الشوق فى حياتى ، يمكن أن يتضمن الأسماء التى سأدعو لأصحابها ، وأيضا الأسماء التى وصلتنى أثناء سفرى والتى وصلتنى حتى وصولى إلى المدينة المنورة ، ويعد هذا الفهرس من ناحية ترتيب الدرجات وثيقة تاريخية .

شاهدت فى هذا الأسبوع كل الأماكن التاريخية فى مصر على وجه التقريب ، ومنها الأهرام ، وهى تستحق الزيارة نظرا لتاريخها العريق ، ولهذا أبدأ بذكرها .

تحرك الترام من القاهرة إلى الأهرام ، وهناك ترام يقوم من القاهرة إلى الأهرام كل ساعة خلال النهار ، والأجرة قرشان للذهاب ومثلهما للإياب .

تقع الأهرام على هضبة عـالية ، ويفهم من هذا أن هذا البناء ربما بُنى على جبل عال .

يصل الترام بالركـاب إلى مكان قريب جـدا من الأهرام ، فينزل الركـاب ويرون الأهرام أمامــهم . شاهدت فى هذا المكان كـثيـرا من المطـاعم والمقاهى التـى أُقيمت لراحـة السيـاح ، لكن أسعارها غـالية جدا ، وقد شربت الشاى فكلفنى ذلك أربعة قروش .

بعد أن نزلنا من الترام أحاط بنا الصبية المترجمون الذين يتكلمون جميع لغـات أوربا ، و لما كنت سمعت عن شيطنتـهم ولؤمهم ، لذا أبعدتهم جمـيعا ، لكن هؤلاء العفاريت ظلوا يلاحقـوننى فى محاولة لإغرائى قائلين :

- سوف نُفسحك ، ونُريك جميع الأماكن الأثرية .

سألت صاحب فندق :

- هل يوجد هنا كتيب إرشادى باللغة العربية ؟

فأجـاب بالنفى ، وهكذا اضطررت إلى الاستعـانة بمترجم ، لم يكن من بين المترجـمين من يعرف اللغـة الأردية ، وهكذا دار الحديث بيننا باللغة العربية .

قطعت المسـافة بين الفندق ومنطقـة الأهرام فى خمس دقـائق ، والطريق مـرتفع بالتدريج ، وهو طريق رملى ، يمكن أن تمضـى عليه

الحمير والجمال بسهولة كبيرة ، ولهذا فإن أصحاب الحمير والجمال يقفون طوال الوقت فى وضع استعداد لحمل السياح ، لكنى وجدت أن السير على الأقدام أفضل ألف مرة من ركوب حمار أو جمل .

يجب أن تتذكر أنه بعد النزول من الترام عليك أن تستعين برجل الشرطة ، وسوف يكفيك شر هؤلاء ، ويعينك فى أمر الاتفاق معهم ، وإلا فالمترجم يأخذ منك عشرة أضعاف السعر ، مع أن المسافة ليست بالطويلة حتى تضطر للركوب ، وقد يصعب على الإنسان نقل أقدامه بسبب الغوص فى الرمال ، وقد شاهدت جميع المواقع التاريخية والأثرية فى ظرف ساعة تقريبا .

يطالعك فى البداية الهرم[٢١] الأكبر الذى يعد من عجائب الدنيا السبع ، وقد تحيرت لماذا اعتبر كوم الحجارة الضخم هذا من عجائب الدنيا ، إننى أعترف أنه من حيث الأصول الهندسية فيه محاسن وجماليات هندسية رائعة ، ويدل أيضا على أن المصريين قديما كانوا خبراء فى « فن الجر الثقيل » ، لكن هذا ليس بالأمر العجيب ، فالمبانى القديمة فى معظمها مشيدة على أصول هندسية ، وقد شاهدت مئات المبانى الشبيهة التى استخدم فى بنائها « فن الجر الثقيل » على أعلى مستوى .

والحقيقة التى لا تقبل الشك هى أننا فى هذا الزمان نقلد أصحاب الوجوه الحمراء حتى فيما يجرى على ألسنتهم من كلام ، وكأنه نقش

على حجر . ولأن أهل أوربا قالوا إنه عجيب أو إنه من العجائب لهذا رددت الدنيا كلها الكلمة ذاتها .

وبجوار الهرم الأكبر هرم آخر أصغر منه قليلا ، والطبقة الخارجية لا تزال باقية على جدرانه ، حين كنا نشاهد الأهرامات سمعت عربيا يقول :

- إننى اليوم أشاهد شيئا عمره آلاف السنين . . . يا لحظى السعيد .

ضحكت كثيرا على التفكير الصبيانى لهذا العربى ، أو لعدم درايته بالأمور ، أو ربما كان هذا المسكين يقلد الأوربيين أصحاب الوجوه الحمر ، فقلت بلغة عربية ركيكة :

- أخى ! هل أخبرك عن شيء أقدم آلاف السنين من الأهرام ، وتستطيع رؤيته أمامك كل يوم .

فقال العربى :

- ضرورى ! أخبرنى !

فقلت له :

- الأرض ! الأرض التى تعيش فوقها ، إنها سابقة على الأهرامات بآلاف الآلاف من السنوات .

فضحك العربى على كلامى ، فقلت له :

- إذا كان هذا يضحكك ، وكان هدفك التطلع إلى أقدم شيء مصنوع ، فانظر إلى جسمك أنت ، فهو مصنوع (مخلوق) من تراب قديم .

وخلاصة القول أنه بعد مشاهدة الأهرامات شاهدت أبا الهول ، وهو معبود المصريين ، فوجهه وجه إنسان ، وجسده جسد أسد ، وهو تمثال مهيب ، بحجم فيلين. وقد قام المسلمون بتشويه وجه هذا التمثال من عند الأنف ، فهل يا تُرى سينتقم ملك مصر القديم مما فعل المسلمون فى معبوده هذا ، أى فى أبى الهول ، كما يحدث لدى هندوس الهند ؟!.

أخبرنى المترجم عن مكان يؤدى إلى خندق أو ممر تحت الأرض فيه غرف ، لكنى لم أنزل إلى هذه الغرف ، فهناك فقط بيوت العمال والصناع المصريين ، التى كانت توضع فيها جثثهم . ولما كنت قد شاهدت جميع المومياات فى المتحف فقد رأيت أن مشاهدة هذه الأماكن مجرد فضول ليس إلا .

إن نظرت إلى هذه الأشياء من وجهة نظر معمارية فقط ، فكأنك لم تر شيئا ، فطبقا للأوامر الإلهية ،وطبقا للحكم الإلهى يجب أن تكون المشاهدة والرؤية للعبرة ؛ وهكذا وقفت على تل مرتفع ، وأخذت ألقى بنظرة شاملة على هذه الآثار القديمة حتى تعتبر النفس الأمارة من النهاية التى آلت إليها الأمم الغابرة. . صحراء مقفرة ،

كثبان من الرمال التى لا تترك لهـا الرياح الشديدة مجالا للاستقرار أو الراحـة ، إذ تشـاهد ذرات الرمـال تعلو وتهبـط كل لمحة مع هبـوب الريح . .

هذا الوادى الساكن الموحش الذى يمتـد على مرمى البصـر ، كان فى زمن من الأزمان مملوءًا بالبـهجة والرونق والعـمران ، تماما مـثلما القاهرة اليوم ، ومثلمـا هى لندن وباريس وغيرها من المدن والبلدان . وفـى هذا المكـان أيضا كان أصحاب العظمة والجـاه وأصحاب التيجان يقضون أوقـاتهم فى فرح وسرور وبهجة ومتـعة وهناء ، لكن اليوم لا أثر لأحدهم ، ولا أثر لكل ما كان ، فلا وجود لتلك الحضارة ، ولا وجود لتلك الفلسـفة ، ولا وجود لعرش أو تاج ، فـلا وجود إلا لله الواحد الأحد الذى لا إله إلا هو ، هو الحق . .

فى زمن العمران لو قال إنسان بأن هـذه المدنية ستتلاشى فى يوم مـن الأيـام ، وتـدفن تحـت تلال من الرمال ، وتصـبح أثرا من بعـد عين ، فهل كان هناك من يصدقـه ؟! هل هذا يجعلنا نشك فى تطبيق هذه النظرية إذا ما تنبأنا بما قد يؤول إليه حال لندن وباريس وغيرها ؟

تخـابث المترجم هنا أيضـا وأراد أن يتلاعب بى ، ولم يقـبل أن يرفع يده عنى إلا بعد استدعاء الشرطة .

مسـاجد مصر لا نظير لها ، لقد زرت جميع المساجد المشهورة هنا ، ومن بينهـا مسـجـد الصـحـابى الجليل المختـار عـمرو بن الـعاص -

رضى الله عنه - فاتح مصر . وهو أكثر المساجد من حيث القدسية والقدم ، وهو من حيث الصورة والشكل يفتقد إلى الجمال ، لكنه من حيث المعنى يحرك المشاعر الإسلامية داخل القلب ويثير لهيبها ، لكن داخل قلب من ؟! قلوبنا نحن الغرباء عن هذا البلد ؛ لأن قلوب المصريين تشعر بحرارة ولهيب زيارة أوربا ، ولا اهتمام لهم بمثل هذه الأشياء، ولهذا لم يعتنوا بهذا المسجد حتى أصابه الخراب تمامًا [٢٢] والناس يتجولون فى هذا المكان بأحذيتهم ، حيث صلى أصحاب رسول الله ﷺ ركعتى الشكر لله على نصره لهم ، فى هذا المكان الذى ألقى فيه عمرو بن العاص خطبته وهو يقبض على سيفه البتار . هناك بجوار المنبر شاهدت بعض الصناديق المتهالكة ،يضع فيها الناس أحذيتهم حين يأتون للصلاة ، وهنا مزار فى الجانب الأيسر ، قيل إنه لابن عمرو بن العاص رضى الله عنه . .

ليتنى أستطيع أن أحمل هذا المسجد على كتفى وآخذه إلى الهند ، يمكن للهنود أن يفرشوه بأهداب عيونهم ، وبقلوبهم وفلذات أكبادهم ، نعم إننى أفخر بأن أقول بأن حب رسول الله ﷺ وحب صحابة رسول الله ﷺ فى قلوبنا أكثر كثيرا مما هو فى قلوب المصريين ، والحمد لله .

أما مسجد السلطان حسن فيعد مسجدا فريدا بين مساجد الدنيا من حيث اتساع محرابه ؛ فمحرابه الذى يوجد فيه المنبر فسيح جدا ، يبلغ طوله ٣٨ قدما وعرضه ٢٩ قدما ، وبلغ حدا من الارتفاع يجعله

جديرا بمشاهدة كل من يـدخل المسجد ، وفى مواجهـته على الأركان الأربعـة شـيـدت مـحـارب أخـرى . والمســجـد هذه الأيام فى طور الترميم ، وقد شيدت من حوله بيوت عالية تستخدم لإقامة الطلاب ، وفى وقت من الأوقات كانت هناك مدرسة شبيهة بالأزهر .

يقـع مسـجد السلطان حسن فى القلعـة ،حيث يوجد مسـجدان آخران ، ومما يؤسـف له أنهم أنفقوا أمـوالا كثـيرة لبناء هذه المسـاجد المتجـاورة بلا طائل ، فـقد كان يكـفى بناء مسـجد واحد . ويـوجد مسجـد رائع أمرت ببنائه جدة الخـديوى المعظمة أمام مسـجد السلطان حسن . والحقيقة هى أن المرحومـة جدة الخديوى كانت قد أمرت ببناء مقبرة لشيخها ومرشـدها حضرة سيد على أبو شهاب ابن أخت حضرة سيد رفاعى رحمه الله ، وطبقا لما هو متعارف عليه فى مصر ، تم بناء مسجد بالقرب من رفات هذه السيـدة ، والمقبرة والمسجد كلاهما الآن تحت الإنشاء . والواقع أنه لا يوجد مثل هـذا المبنى الجميل فى مـصر (القاهرة) ، وقد قال المسئولون عن البناء إنهم أنفقوا حتى ذلك الحين مبلغ سبعمائة ألف أشـرفى . ولا شك أنهم كما يبدو ضحوا بمثل هذا المبلغ الكبير من أجل ما شهدناه من حسن وجمال معمارى .

إذا ما تقدمنا قـليلا وجدنا فوق القلعة مـسجد محـمد على باشا ومقـبرته، وهذه أيضا تحفـة معمـارية رائعة ، تمتاز بزخارفـها ، حين وصلنا إلى هذا المكان شعـرنا بجو الحكم الإسلامى ورائحـته . . آه ! تذكرت المسجد الجامع فى دهلى :

من يزخرفك ويزينك أيها المسجد ؛ حتى لا نصاب بصدمة حين نرى مساجد البلدان الأخرى ، ونشعر بأنك صرت يتيما !

ففى مساجد مصر (القاهرة) علقت مئات الثريات المحملة بالمصابيح الكهربائية التى بلغت تكلفتها آلاف الروبيات ، والمسجد الجامع فى دهلى لا يوجد فيه مصباح كهربائى واحد ، بينما تتلألأ المصابيح الكهربائية فى الكثير من بيوت أهل دهلى .

تبدو القاهرة كلها من مسجد محمد على باشا تحت عين الناظرين ، مما يجعل القلب يطرب نشوة وسرورا .

فى تراب مصر ووريت أجساد ثلاث أميرات من بيت النبوة ، الحمد لله ثم الحمد لله ، فقد زرتهن جميعا . الأولى حضرة السيدة زينب بنت سيدة النساء فاطمة الزهراء ، واسمها ذائع ومشهور فى مصر ، كما أن مكتب البريد يسمى على اسمها ، والحى نفسه يطلق عليه اسم « حى السيدة زينب » ، وتجد حتى اسمها فوق الترام كتب هكذا « سيدة زينب » ، والجالس من خلف نافذة الفندق يشاهد اسمها الطاهر على الترام مائة مرة على الأقل ، وعلى مزارها الطاهر تتساقط أشعة النور ، ويتزاحم مئات المريدين يتشبثون بشباك المزار ، يبكون وينتحبون .

أتدرون من هى زينب ؟ إنها ابنة أسد الله ، الشجاعة ، أخت الحسين شهيد كربلاء .

أما السيدة نفيسة والسيدة عائشة - وهما أيضا من سلسلة آل البيت - فمزارهما قريب من هذا المكان ، وبالصدفة المحضة كان « مولد » السيدة نفيسة مقاما فى تلك الأيام ، فذهبت إلى هناك ، ودعوت الله دعاء طويلا ، فمزارها مشهور لدى القريب والبعيد والدانى والقاصى باستجابة الدعاء عنده .

ولقد سررت كثيرا وفرحت بزيارة ضريح الإمام الشافعى المبارك ؛ فهو مخزن للفيوض والأنوار ، وشاهدت داخل الروضة عدة مقابر ، قيل إن من بينها قبر « ملكة شمس » ! يحيط بضريح الإمام الشافعى سور من النحاس الأصفر ، بينما جانبه الأيسر ترك خاليا حيث علقت مئات الأوراق ، قيل إنها طلبات كتبت فيها الأدعية ،وقد جلست فى هذا الجانب أراقب ما يدور أمامى ، ومع أننى حنفى المذهب لكننى لم أحرم من بركات الإمام الشافعى . وفى مقدمة الضريح وضعت لوحة من المرمر عليها تاريخ الوفاة ، وأشير إلى أنهم فى مصر يضعون على معظم الأضرحة عمامة كبيرة على الطريقة العربية القديمة ، وهكذا وضعت فى مقدمة ضريح الإمام الشافعى عمامة خضراء يبدو عليها أثر الأيام . وأشير أيضا إلى أن خدام الأضرحة هنا أكثر طمعا وإجبارا للزائر من خدام مزارات أهل البيت ، فعند مزارات أهل البيت لا يُجبر أحد على دفع شىء .

فى ركن من أركان مزار حضرة آدم ! دفن شيخ من أسرة الشيخ البكرى شيخ مشايخ مصر . وإذا ما خرجنا قليلا عن حدود هذا

الضريح - وعلى مسافة ليست ببعيدة - وجدنا ضريح حضرة الفقيه أبى الليث السمرقندى .

ما يوجد فى المتحف المصرى من أعاجيب يفوق جميع أعاجيب الدنيا ، ومن بين آلاف الأشياء الموجودة هنا يوجد شيء واحد يستحق أن يأتى إليه الناس من مسافات بعيدة ،حتى لو استغرق ذلك عشرسنوات ! ألا وهو مومياء فرعون موسى . .

إن قلوب أهل أوربا تفتقد معرفة القيم الدينية وفهمها ، من أدرى هؤلاء أن المسلم يقرأ قصة فرعون فى القرآن الكريم كل يوم ، وقصة فرعون تلك منقوشة على قلبه بكل ملامحها : كبرياء فرعون ، غطرسته وعظمته وجبروته وحواره مع موسى عليه السلام ، وغيرها من مناظر جذابة لا يمكن أن يهملها المسلم وهو يقرأ قصة فرعون مع موسى مرة بعد مرة ، ترى كيف سيجيش قلبه بالشوق إذا سمع أن جسد فرعون نفسه موجود هنا فى مصر ! وهل يمكن أن تخمد جذوة الشوق بداخله ؟!! لقد ذهبت إلى المتحف المصرى أكثر من مرة ، أشاهد جسد فرعون ، وفى كل مرة كنت أذهب إلى المتحف كان يطرأ على قلبى أثر جديد .

يضم المتحف المصرى أشياء ترجع إلى جميع عصور حكام مصر ، كما أن الزائر إلى المتحف يشاهد موميات معظم حكامها ، بالإضافة إلى كل ما يوضح ملامح الحضارة والمدنية فى تلك الفترة ،

ويشرح كيفية الحياة الاجتماعية فى تلك الأزمنة ، إلا أن آثار المصريين القدمـاء تدعو للعبـرة والعظة . لقد بقيت أربعين يومـا فى القاهرة ، وقد استفدت من طول هذه المدة فى زيارة المتاحف حتى عرفت حقيقة كل شىء فيها ، كيف تتأتى لى فـرصة الكتابة عن كل ما شاهدته فى المتحف ؟! سأشير هنا فقط إلى حالة بعض الموميات .

كـان سكان مصـر القدمـاء - على مـا يبدو - يشـبهـون الهنود القدامى ؛ فهم على شاكلة « المهاتما بده » . . . ويتضح من الصور أن لباسهم وأمتعتهم المستخدمة فى حياتهم الاجتماعية اليومية تشبه ما كان لدى الهندوس . وحين يرى الباحث نفسه هذا الشبه الكبير فإنه يصيح رغما عنه قائلا بأن البرهمن كـانوا من سكان مصر ، وأنهم انتقلوا من مصـر وعمروا الهند . أمـا زمان هجرتهم إلى الهند فـقد يكون نفس الزمان الذى غـرق فيه فـرعون مصـر فى البحر ومـات ، وكان هناك خوف من أن يلـحق الأذى بالبرهمن على يد بنى إسـرائيل ، ويمكنك أن ترى البرهمنيين حتى اليوم، ويـقال لهم فى الهند (مصر جى) [٢٣] وربما هذا دليل على أنهم من أهل مصر .

كان المصـريون القدماء يعـرفون نوعا مـن الخليط ، يستخـدمونه لتحنيط الجـثث فلا تخرب ولا تتعفن ، فكانـت تظل كما هى لآلاف السنين . وكانوا يقومون فى البداية باستـخراج الأحشاء من داخل جثة الميت ، لكن لا يعرف بالضبط من أين كانت تسـتخرج . وقد عاينت بطن العديد من الموميات ، فلم أجد فـيها أثرًا لجرح أو قطع . وكانوا

يقومون بعد ذلك بإعداد الخليط ، ثم يلفون الجثة بخيوط حريرية ، ويكفنونها بكفن من حرير ، ويضعونها فى صندوق خشبى مطلى ومنقوش عليه نقوش ذهبية حسب مكانة الميت . وكانوا يرسمون على الصندوق صورة صاحبه ، فيظهر وكأنه هو ؛ لأن الصورة كانت ترسم بمهارة فائقة ، فتشبه صورة الميت التى كان عليها فى حياته ، حتى يعتبر الرائى حين يشاهد صورة الميت الحالية ويقارن بينها وبين صورته الأصلية قبل مماته ، وهكذا يكون تغير الأحوال . ثم يوضع الصندوق الخشبى فى صندوق حجرى كبير ، ثم يوضع هذا الصندوق الحجرى فى المقبرة العظيمة تحت الأهرام .

كانت طريقة الكتابة عند أهل مصر طريقة فريدة فى العالم كله ؛ فقدكانوا يرسمون الحروف على هيئة الحيوانات والطيور ، فالكاتب مثلا يرسم ببغاء وفيلا وفرسا ، فيقوم القارئ بترتيبها معا ليستخرج منها مطلبه ، وتكتب هذه الحروف على كفن الجثة ، وعلى التابوت الخشبى وعلى الصندوق الحجرى الضخم الذى يضم التابوت .

كشف جديد

مع أن العالم كله يسلم بأن هذه المومياات محفوظة حتى اليوم بسبب الخليط الذى صنعه المصريون القدماء ، إلا أننى أرى عكس هذا الرأى ، وأدعى بوجود جانب علمى آخر مهم وخطير ، وهو أن سبب بقاء هذه المومياات على حالها هو « عمل سحرى » . وأنا لا أدعى هذا

من غير دليل ، خاصة أن هذا الأمر مسلم به فى جميع أنحاء العالم ،ولهذا أريد أن أبحث فيه بوضوح وجلاء :

أولا : يجب أن نفكر لماذا ظهرت فكرة الخليط فى أذهان الأوربيين ؟ والجواب هو أنهم وجدوا شيئا ما لاصقا بالموميات . لكن عددا من الموميات فى المتحف المصرى تشاهد نظيفة تماما لا يعلق بها شيء إطلاقا ، حتى أنك تظن أنها تماثيل صنعت حالا من الشمع . ومن بينها مومياء لساحرة فرعونية ، سوف أذكر شيئا عن أحوالها فيما بعد ، ويبدو جسدها كأنه غسل حالا ، وهناك ميومياء الملك سيتى الثانى ، لا يوجد عليها أى أثر للخليط الذى يقولون عنه .

ثانيا : إذا كان هناك خليط ما فإن أهل أوربا قد حملوا إلى بلادهم مئات من الموميات ، وكشفوا جميع ما كان فوق الموميات ، ثم قاموا بفحصها فحصا كيميائيا . ولم يكن من الممكن ألا يعرفوا مكونات هذا الخليط بعد التحليل الكيميائى ، ولا يقومون بتحنيط موتاهم ، وكان هذا يفيدهم تجاريا فى حفظ المواد التجارية لفترات طويلة . ومع هذا فلم يعرف الأوربيون من المواد التى تحفظ الأشياء بحالتها الأصلية لفترة طويلة سوى الثلج والكحول .

ولهذا يثبت أن الموميات المصرية لم تبق على حالتها تلك بسبب خليط ما ، وسر بقائها هذا منقوش على الصناديق الخشبية التى تحويها . والمصريون يؤمنون بتأثير النجوم والكواكب ،وكان لديهم علم

كامل وإطلاع تام على تأثير النجوم والكواكب . وهذا مذكور أيضا فى كتاب التاريخ ومنقوش أيضا على الصناديق الخشبية ذاتها.

أنا لا أعرف الخط الفرعونى ، ولكن من بين هذه النقوش التى رأيتها نقوش تشبه التعاويذ السحرية والتعاويذ المتعلقة بالنجوم التى تروج فى الهند . ولهذا فإننى على يقين من أن هذه الموميات قد تم حفظها عن طريق وضعها تحت تأثير النجوم والكواكب . ونجد دليل ذلك فى القرآن الكريم أيضا ؛ إذ ذكر أنه فى زمان فرعون كان أهل مصر قد برعوا فى السحر ، ومن هنا كانت معجزة موسى عليه السلام من عند الله معجزة سحرية ، وقف أمامها السحرة عاجزين .

وتوجد من بين الموميات موميات كثيرة للسحرة عليها نقوش واضحة ، مما يدل على أن للسحر دخلا كبيرا فى هذا الأمر . وإننى أود أن يأتى إلى مصر أولئك الهنود المهتمون بفن الأعمال (السحرية) ، وأن يفكروا بالضرورة فى هذا الأمر ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

ويلاحظ أن من بين هذه الموميات ما هو أسود ، ومن بينها الجاف الصلب . وإذا ما نظرنا إلى تمثال رمسيس الثانى عرفنا أنه كان ملكا عظيما مهيبا ، وأنه كان محاربا ومصارعا ، لكن إذا دققنا النظر فى جسده المحنط ، وجدناه جسدا ضعيفا ، ذراعاه نحيلتان ، أما صدره فبعرض شبر واحد، ورقبته طويلة نحيفة ، وشكله العام مخيف ، يا حفيظ !

ومن الملاحظ أن وجه سيتى الأول أسود تماما ، وملامحه الزنجية (الحبشية) واضحة ،لكن ملامح الخوف لا تبدو على شكله ، وإنما يبدو كشخص مستغرق فى نوم عميق ، وشعره وأظافره لا تزال قائمة . وإذا ما دققنا النظر فى أظافر جميع هذه الموميات وجدناها طويلة ، لا ندرى ألم يستطع الفراعنة القدماء تقليم الأظافر عند الموت بسبب المرض أم إنهم لم يهتموا بهذا الأمر ؟ ويبدو جسد سيتى الثانى نظيفا براقا .

تحيرت كثيرا حين شاهدت جسم ساحرة ؛ لأنه كان شفافا ولامعا ، وكأنه دمية صنعت من زجاج . لكن للأسف لم يكن من السهل رؤية وجهها ، شىء مهيب ، فقد انفتح فمها من ألم سكرة الموت ساعة النزع ، وانفتح بدرجة تزيد عن الحد ، مما جعل شكلها مخيفا جدا . ويفهم من هذا أنها كانت فى حالة من الكرب والهم والغم ، مما جعلها تفتح فمها صارخة . . كم شعرت بالأذى والألم ؛ فقد شاهدت وجهها ، ولفنى الخجل من خشية الله . وبينما كنت أشاهد الصندوق الذى وضعت فيه مومياء هذه الساحرة ، وقع نظرى فجأة على بعض النقوش ، فأخذ عقلى يعمل ، وخيالى يتحرك ، وأحسست أن هذا سحر خاص بكراهية العدو وهلاكه . وكان أحد السحرة الهندوس قد أطلعنى أثناء سفرى على مثل هذه النقوش ، وذلك فى مركز الحج الهندوسى ، لكنه ذكر بأن أحدا لا يعرف شيئا عن هذه النقوش . وقد قمت بنقل النقوش المرسومة على تابوت

الساحرة ،وقد نقلتها بتمامها وكمالها ، لكن حين رأيت نهاية العاملين بهذا السحر ، وهى نهاية تجسدها مومياء هذا الساحرة ، دق قلبى وأصابنى الاضطراب ، فدعوت الله أن يحفظ كل إنسان - وبخاصة كل مسلم - من هذه الخرافات الخبيثة .

معصية الله

انظر إلى فرعون يرقد : عيناه مغمضتان ، وقدماه ممتدتان ، ووجه كما هو بلحمه وشحمه . ويلاحظ أن قامة جميع المومياوات مماثلة لقامة الإنسان فى عصرنا هذا ، مما يثبت خطأ الفكرة الشائعة بأن قامة الإنسان فى الأزمنة القديمة كانت تصل إلى سبعين ذراعا . ولاحظت أن قامة فرعون أيضًا(٢٤) قامة عادية ، لكنها قامة منتصبة ومعتدلة ، ولم لا فالإنسان الذى يتحدى ربه لا يمكن أن يكون إنسانا عاديا . . لكن انظر إليه اليوم ، ها هو مطروح مثل مصارع مهزوم ملقى فى حلبة مصارعة ، لا حول له ولا قوة ، لا يملك من أمر نفسه شيئا .

لا توجد على وجه أى من هذه المومياوات شارب أو لحية ؛ فقد كانوا جميعا - فى الغالب - مثل الشباب على آخر صيحة ،لكننى لاحظت مكان لحية فرعون بروزًا عظميًّا ، وهناك كسر ، وحول العينين أثر ضربة ! وعلى العكس من بقية المومياوات كانت مومياء فرعون سمينة ، مما يدل على أنه كان موفور الصحة قوى البنيان ،

بالإضافة إلى أنه غرق فى البحر ، أما بقية الملوك فقد ماتوا بعد صراع مع المرض ، ولهذا كانت أجسامهم ضعيفة ونحيفة .

أخـذت أتطلـع مـرة بعـد أخـرى إلى شـفاه فـرعـون ، وأفكر وأتخيـل ، وأتصور تلك الشـفاه التى كانت تـنطق أمام موسى عـليه السلام ، تلك الشفاه التى أصدرت الحكم لهامان كى يبنى منارة عالية حتى ينظروا إلى إله موسى كيف يكون . . واليوم يا ابن آدم لقد رأيت كيف هو رب موسى وكم هو عظيم !

إن لم يكن أسف ، فلنأسف فى هذا الزمان ، وإلا فـعلماء أوربا وأمـريكا يـسلكون سلوكـا طيـبـا ، شـريطة أن تتـخـلى عن الحكم الديكتاتورى ، وتشكل البرلمان !!

انهض يا فرعون ! هيا لتذهب إلـى الفندق ، ولتشرب كأسا من الخمر ، ولتنظر كم عدد أصحـاب البنطلونات والقمصان والبدل الذين يتجولون هنا وهناك ، يدقون الأرض بأحذيتهم فى خيلاء . .

هل تظن يا فـرعون أن إله موسى قـد أغرقك فى البـحر فمـحا بذلك اسـمك ورسمك ؟! لا . . وألـف لا . . لقد وهب لاسـمك الخلود حتى يوم القيامة ؛ فالناس يتدافعون على تلك الكتب التى يذكر فيها اسمك ، ويضعـونها على رؤوسهم ،و لعلك تقول إن إله موسى كان عـدوا لك ! لا . . ألا تدرى كم كان يحبك ؟! إذا ما تصـفحت القرآن وجدت اسمك وذكـرك بين سطوره ، والمثل العربى يقول : « من

أحب شيئا أكثر ذكـره » ،وهذا ينطبق على أمرك . فلتقرأ ما ورد عن قصـة فرعون ومـوسى ، فلا يوجد موضـوع إلا وذكر فيـه اسمك . واليوم إن جماعة أهل القرآن (فى الهند) (٢٥) تعيش فى عصر شبيه بعصرك ، ويمكنهم أن يعـرفوا أن ما ورد بالنسبة لفـرعون موسى يدل على أن نيل الشهرة هنا كان نتيجـة للعداء لله ،وستكون خاتمتهم أسوأ من خاتمتك ، فسيحل القهر الإلهى بهم بشكل أشد مما حل بك .

إن أهل أوربا يريدون أن ينسبوا لأنفسهم كل شىء من خلال ما يقومون به من أبحـاث ، ولهذا شاع أنهم هم الذين اكتشفـوا الموميات المصرية ، وأنهم هم الذين أخرجوها من أماكنها ، كما أن أى أمة من الأمم لم تعـرف أن الجـثث يمكن أن تحـفظ صـحـيحـة سـالمة لآلاف السنوات . ولا يـدرى هؤلاء أن القـرآن الكـريم دسـتـور الإسـلام والمسلمين قـد أخـبر عن ذلك من قـبل ألف وثلاثمـائة سنة ، وفـهم أصحاب العـقول ذلك ، لكن الله قدر لكل حادث وقـته ، وحين أتى هذا الوقت كشفت القـدرة الإلهية عن أسرارها . وفيما يتـعلق بمومياء فرعون ، فقد ذكر القرآن الكريم - بوضوح كامل - أن جسمه محفوظ ليكون عبـرة للأمم القادمة ؛ وهكذا يقـول تعالى : « فاليـوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » ، أى أننا نحفـظ جسدك ؛ حتى يكون عبرة لمن يأتى من بعدك فى هذه الدنيا .

ونشيـر هنا أيضا إلى نكتـة دقيقـة جدا ، وهى بقاء بدن فـرعون مخفيا لآلاف السنين ، ثم يظهر فى زماننا هذا . وهذه علامة على أن

الناس الذين سبقـونا لم يكونوا فى حاجة ليعتبـروا ، بينما نحن اليوم فى أمس الحاجة لذلك . ولهذا فقد حدث هذا الكشف فى هذا الزمان الذى تتـصارع فيـه الأمم للاستـيلاءَ على العـالم أجمع ، وهم مـثل فرعون ينكرون الذات الإلهية ، ولهذا ظهرت لهم هذه الآية ، فلعلهم يجـدون فيـها الموعظـة ، ولعلهم يعتـبرون من رؤية جسد فـرعون ، ولا شك فى هذا !

لكن يا إلهـى إن آلاف الأوربيين يأتون إلى مـصـــر كل عـام ، يشاهدون هذا الجسد ، ولا يتأثرون على الإطلاق بما يشاهدون ، فهم لايزالون على حالهم من الطمع والظلم والقهر . . يا إلهى يا رحمن يا رحيم ! إن أمثال هؤلاء الفـراعنة الذين لا حصر لهم لا يمكن السيطرة عليهم ما لم يأتهم من هو مثل موسى عليه السلام .

القـدرة الإلـهيـة

ولأن الله تبارك وتعالى شاء أن يظل بدن فرعون ماثلا أمام الناس كما هو ، لهذا حـفظه بطريقة عجيبة وغـريبة . وقد ورد فى الكتيب الإرشادى الذى طبعه المتحف المصرى (صفحة ٩٤) أن هذه الموميات وضعت فى مبنى شيد فى الصـحراء ، وذات ليلة ظن أهل قرية قريبة من المبنى أن هذه المومـيات تحمل ذهـبا ومجـوهرات وأن معـها كنوزا كبيرة ، ولهـذا قاموا بدخول المبنى تحت ستر الظلام بقـصد السرقة ، وحين لم يجدوا ذهبا أو مجوهرات ، ذهبـوا بعد أن خدشوا الموميات .

وكان مـوميا‌ء فـرعون موجودا وسـط بقية المومـيات ، فلم يصب بأى خدش أو خمش . وحين شاهد الناس فى الصباح ما حدث تعجبوا ، لكن حين رأوا جـسد فـرعون عن قـرب عـرفوا أن بداخله نوعـا من الرطوبة ، تخرج منها حرارة شديدة ، وغالبا ما يكون هذا هو السبب فى خوف اللصوص وفرارهم .

وهذا هو الدليل على أن هذه المومياء هى مومياء فرعون .

فى البداية لم يتعرف أحد على الوضع الصحيح لجسد فرعون ، حتى قرأ المستر بوريه نقـوش التابـوت واسـتنتج أن هـذا الجـسد هـو الملـك « خونيا تنو » ، لكن « المسـتر جروف » ساوره الشك فى هذا . وفى النهاية فتح التابوت فى حضور خمسة أو ستة علماء أوربيين ، فثبت من العبارة المكتـوبة على الكفن أن تلك مومياء منفتـاح ابن الملك رمسيس الثـانى الذى غرق فى البحر الأحمر وقت خروج موسى وقومه من مصر .

وقد عرفت جـميع أحوال منفتاح ابن رمـسيس الثانى من تواريخ عصـر الإسكندر ، وعرف أنه هو ذلك الفـرعون الذى واجـه موسى عليه السلام .

الزبير باشا ملك السودان السابق (٢٦)

تقع حلوان على مسـافة ساعة على الطـريق القريب من مـصر (القاهرة) ،ويصلها قطار كل ساعة ، وهناك يسكن معظم أمراء مصر .

وقد سمعت أن الزبير باشا ملك السودان السابق يقيم أيضا فى حلوان ، ولأننى كنت أريد أن أتعرف على أحوال دراويش السودان ، لهذا ذهبت إلى حلوان لمقابلة الباشا . كان مرشدى إلى هناك مسلما مراكشيا يدعى محمد إدريس البنانى .

حين وصل « الحنطور » إلى بوابة قصر الباشا ، هرع إلينا حارس حبشى ، فألقى علينا بالتحية ، وأخذ بطاقتى . وبعد قليل قدم الباشا لاستقبال جماعة من العلماء الذين بدأوا يمسكون بذراعى ويشدونها طبقا لعادات بلادهم ، ولأننى كنت قرأت فى بعض الكتب عن تقاليد وعادات أهل مراكش والسودان ، لم أضطرب من هذا الاستقبال الموحش والعجيب ، وإلا فمن لا يدرى شيئا عن هذه الآداب سيضطرب ويقلق كثيرا ؛ لأن شدهم للذراع يبدو أمرا عجيبا . ووجهة نظر هؤلاء الناس عن هذه الحركات طريفة جدا ؛ فهم يفخرون على جميع العرب بأنهم يجذبون ذراع ضيفهم بالقوة ، ليأخذوه إلى البيت لاستضافته وإكرامه .

حين انكب هذا النمل الأسمر على قمحة وجودى ، وسحبونى إلى بوابة القصر ، انشقت الأرض عن عدد كبير من الأحباش الذين أخذوا يمطرون يدى وثوبى بالقبلات .

المبنى من داخله مزخرف بطريقة جميلة ، سعيد بيه نجل الباشا فى الثامنة عشرة من عمره ، يدرس فى الكلية الحربية ، قام سعيد بيه

بواجب الضيافة والترحيب بينما كان الباشا فى الداخل ، ظل سعيد بيه يستفسر بشوق كبيـر عن أحوال مسلمى الهند . وبعد فترة قليلة أعلن أحد الغلمان عن استعداد الباشا للقائى ، عندئذ أمسك سعيد بيه - ومعه العلماء الآخرون - بذراعى ، وأخـذونى إلى الباشا . وهو شيخ طاعن فى السن ، فى الثمانين تقريبا ، طويل القـامة ، قمحى البشرة ، لحيته مثل الخشخاش ، على رأسه عمامة مخـملية لها أربعة أركان ، يرتدى زيا عربيا أبيض ، ونظرا لتقدمه فى العمر ، لاحظت الارتعاش على يديه وقدميه .

حين دخلت عليـه نهض احـترامـا وتعظيـما ،وأمـسك بذراعى وأجلسنى بجـواره ، ثم أمـر بإحـضار الطعـام ، وعلى الفـور وضع الطعام على المائدة ،فقلت :

- ليس الوقت وقت طعام . .

فقال :

- الضـيف لا يمـكن أن يذهب عن بيت العــربى دون أن يتناول الطعام .

واشـتـرك البـاشـا مـعنا فى تنـاول الـطعام ، وهكـذا بـدأ يضـرب بمخـالب الأسـد على قـطـع اللحم ، فـذكرنى « بمـشهـد أفغانى » .

كان الغلمان الأحباش يقفــون ممسكين بالأكواب الزجاجية ،وحين طلبت الماء أشار الباشا بيده طالبا الكوب الذى يشرب فيه عادة ، وهو وعاء مدور مصنوع من الخشب ، وكان فيه منقوع البرقوق ،قال الباشا :

- الكوب الزجاجى متوفـر أيضا ، لكنى أشرب دائما فى هذا ، فهو منحـوت من الخشب ، وأنا لا أدع تقاليد البـداوة السابقة التى يبلغ عـمـرها ألف وثلاثمـائة سنة تفلت من يدى ؛ فـأنا عبّـاسى النسب (٢٧) ، ومن واجب العـبـاسى أن يُبـقى على تقالـيده وعاداته الـقديمة ، ومنقـوع البرقـوق يعالج الصـفراء ويقاومهــا ، فإن شئت شربت من هذا الكـوب الخشبى ، وإلا أمرت لك بكوب زجاجى .

فقلت :

- مثلمـا يحافظ العباسى على تـقاليده القديمة وعـاداته التليدة ، فالحسنى الهاشمى أيضا يفدى هذه التقاليد والعادات بروحه . . لا يا ملك العرب ! إننى أفضل هذا الكوب الخشبى على الكوب الزجاجى .

وحين سمع البـاشا أننى حسينى النسب مط صـوته الرخيم الذى تشوبه رنّة الشـيخوخة ، وهو يحــمل قطعة من اللحم ، ويقدمـها لى قائلا :

- خُذ ! كُل يا ابن العم .

فى ذلك الوقـت بدت مـلامح السرور الـعظيم على وجه الزبيـر باشـا ، فتناولـت قطعة اللحـم وأكلتهـا ثم شـربت نصف الكوب ، وحمل الزبير باشا الكوب بيـد مرتعشة ، وأخذ يتجرع مـا فيه بصوت يخرج من حلقه .

صار البـاشا أثناء تناول الطعـام يدعونى بابن العم ، بينـما كنت بدورى أخاطبه بملك العـرب . وقد كان الزبير باشـا قبل ثورة المهدى السودانى ملكا على السودان كله ، ثم خدعه خديـوى مصر فاستدعاه إلى مصر واعتقله [٢٨] .

وبعدهـا أعلن المهدى الثـورة ، واستولى علـى السودان ، إلا أن مـصر تمكنت بمسـاعـدة الإنجليز من القـضـاء على حكومة المهـدى ، وسلـبت الحكم من خليـفته عـبد الله التـعايشى ، فـضُم السودان إلى مصر ، والآن يحصل الزبير باشا على أربعة آلاف روبية شهريا لتغطية نفقاته[٢٩] .

يبدو ابنه سعـيد بيه ذكيـا جدا وذا مواهب ،وهو يدرس الآن فى الكلية الحربية . ويمتدح الزبير باشا أسلوب الحكم الإنجليزى ، وقال :

- إن العرب لا يتـملقون ، كما أنهم لا ينسـون المعروف ، و لا يخفـون الحق . ومن هنا فإننى أقـول بحرية كامـلة إن طريقة الحكم الإنجليـزى أفضل كثـيرا من طريقـة الحكم فى الأوقات السابقة .

بعدها سألنى إن كان مسلمو الهند يعرفون شيئا عن مسلمى السودان ومصر ، وبالخصوص يعرفون اسمه . . فقلت :

- يا ملك العرب ، عندهم كتب ، إنهم على دراية كاملة بكل صغيرة وكبيرة تخص مصروالسودان .

فقال زبير باشا :

- بلغ سلامى وتحياتى إلى جميع مسلمى الهند ، صغيرهم وكبيرهم ، فقيرهم وغنيهم .

وهكذا حملت سلام وتحية هذا الباشا العباسى الطيب المتحمس إلى جميع أخوانى فى الدين من أهل الهند .

وقبل أن أختم الحديث هنا أجد من الضرورى الإشارة إلى إننى وجدت من فضائل الزبير باشا ما كنت قد قرأت عنه فيما يتعلق بالحكام العرب فى الأزمنة الأولى . وعند الوداع خرج الباشا عن قصره رغم أشعة الشمس المحرقة ، ورافقنى حتى الشارع ، وظل يعتذر لى مرة بعد الأخرى :

- يا ابن العم لم أستطع أن أوفيك حق الضيافة . .

كان مشهدا لا وجود له أبدا فى زمن الحضارة الحديثة !

٢٢ يونيو ١٩١١ م

ذكرت أثناء حديثي عن زيارتي للزبير باشا الأسبوع الماضي اسم إدريس البنائي المراكشي ، ويجب أن أوضح بعض المعلومات عنه حتى يحتاط من يسافر إلى مصر من هؤلاء الأشرار الخبثاء .

حين وصلت هنا وجدت صعوبة في فهم اللغة العربية الدارجة وفي التكلم بها ، فضغطت على الطالب الأزهري مولوي عبد الرحمن الدهلوي وكلفته بالبقاء معي ، فقام بالتكرم عليّ وأعطاني من وقته الكثير ، فساعدني في الترجمة وغيرها من الأمور . ورغم هذا كنت أجد نفسي مضطرا أحيانا للتجول وحيدا ، وحدث أن نسيت الطريق ذات ليلة ، فوصلت إلى محل الدكتور نصوحي ؛ حتى يرسل معي من يدلني على الطريق . وهناك عرفني على شيخ مراكشي طاعن في السن ، وهو بالاضافة إلى كونه شيخا ممتازا في مراكش فهو تاجر ثري أيضا . وبينما كنت أتحدث معه إذا بشاب في الرابعة والعشرين قدم علينا في عربة ،وأخذ الشيخ وذهب . وعند الذهاب سأل نصوحي عن أحوالي ، ولما عرف أنني ضللت الطريق قام باصطحابي معه في العربة معبرا بذلك عن حسن أخلاقه ، وقال :

– سوف أوصل هذا الشيخ إلى الفندق وبعدها آخذك إلى حيث تريد .

وفى الطريق ظل يتكلم مرة بالعربية ومرة بالإنجليزية ، وظل يظهر احترامه الشديد ، لدرجة أنه ظل يقبل تلابيب قميصى وهو يقول :

- هذا من حسن حظى أن يتيسر لى التبرك بشيخ هندى . .

وحين عرف أننى أرغب فى لقاء مشايخ مصر وعمدائها المشهورين ، بدأ يردد على مسمعى مئات الأسماء قائلا بأنهم جميعا من أصدقائه وأنه سوف يعرفنى عليهم .

ورغم أن حديثه كان فى غاية التأثير وأنه كان يتكلم بثقة كاملة ، إلا أن الشك ساورنى فى هذه المحبة الفورية ! وعلى الفور بدأت أفكر فى ضرورة التأنى والتروى . . والخلاصة أنه حين وصلت إلى مكان إقامة الشيخ ، بدأ الشاب يمتدح مقامى بصفات لا معنى لها أمام الناس ، وأجبر الحاضرين على تقبيل يدى . وكان لكلام هذا الشقى الظالم أثر عجيب على الناس ، فانشقت الأرض وانفرجت عن عدد كبير من الناس الذين قدموا لتقبيل يدى ، بعدها حضر الشاى فى « صينية » رائعة ، وتحيرت وتساءلت من هذا الرجل ؟ وماذا يريد ؟

بعد الانتهاء من تناول الشاى ، انفرد هذا الشاب بى ، وبدأ يتحدث معى ، فألقى خطبة رائعة عن السياسة المصرية ، تثير الإعجاب ، ثم بدأ يقول :

- يمكن أن نأخذ عربة حنطور من أى مكان ، وعلى كل حال لقد حل الظلام ،وسوف آخذك من طريق يوصلك إلى الفندق بسرعة ، لكنه يمر عبر الحوارى الضيقة التى لا يمكن للعربة الحنطور أن تسير فيها .

وهكذا قبلت الذهاب إلى الفندق مشيا على الأقدام .

كانت الساعة قد تخطت الحادية عشرة ، وكنت أود الوصول بسرعة إلى الفندق ، لكن البنانى لا يدرى أى حوارى مظلمة تاه فيها ، حيث لا أثر لإنسان أو حيوان ، طريق مخيف . . رفضت الاستمرار فى المشى ، وأردت أن أعود أدراجى ، لكن البنانى أكد لى على أن المحلات التجارية قريبة جدا من هنا . وبعد أن مشينا قليلا ، طرق على باب مبنى شامخ ، فانفتح الباب وظهر أمامنا رجل عربى سمين ، قال البنانى :

- هذا بيت شيخ كبير ، فلنقابله .

فرفضت ، واعتذرت بضيق الوقت وأردت الذهاب ، لكن البنانى أوقفنى بإصرار شديد ، وأخذ يتملقنى ، يرجونى الانتظار ، فاضطررت إلى الدخول . رأيت ضوء مصباح كهربائى ، وحجرة مزينة . ومفروشة بفرش جميل ، لكنها خالية من أى إنسان . جلسنا على الكراسى المرصوصة بالغرفة ، وبينما نحن كذلك انغلق باب الغرفة ، فشعرت بالخوف وأصابتنى رهبة شديدة بعد أن خيم الصمت

على المكان ،ورغم ذلك لم أشأ أن أظهر للبنانى شعورى بالخوف ، استفسر البنانى من الرجل الذى فتح لنا :

- أين الشيخ ؟

وقبل أن يجيب الرجل أخذ ينظر إليه بتمعن ، ثم أجاب دون مبالاة :

- لقد سافر إلى الإسكندرية .

فقال لى البنانى :

- هنا يعيش شيخ مراكشى يستطيع أن يحول « التعريفة »(وهى عملة مصرية تساوى خمس بيسات) إلى جنيه ذهبى بعد أن يفركها بين أصابعه .

فقلت :

- يا بنانى ! أنا نفسى أعرف هذا الفن ، لا ضرورة للقاء أحد ، إننى سأذهب إلى الفندق ، لا تتكلم معى هذا الكلام الفارغ .

ونهضت على الفور ، فوقف البنانى أيضا ، ثم بدأ يهمس فى أذن الرجل .. رأيت هذا المنظر فتقدمت خطوات إلى الأمام ، ثم فتحت باب الغرفة ، وخرجت ..

بعد أن خطوت عدة خطوات سمعت من خلفى صوت تحريك العملات المعدنية ، فالتفت فوجدت البنانى يعطى الرجل شيئا من النقود ، ثم اقترب منى وقال :

- هذا الرجل ضيف على الشيخ ، وهو فقير ، ولهذا عطفت عليه ببعض النقود . .

ولم أرد على خطبته تلك وبدأت أغز فى المشى ، وبعد ألف قدم ظهر لى نور المحلات التجارية ، لكنى نظرت فوجدت أننا فى سوق الدعارة !! فزاد اضطرابى ألف مرة . . كان علىّ أن أخرج من هذا الجحيم . .

حين وصلت إلى السوق (٣٠) كانت الساعة قد دقت الثانية عشرة ، وفى مصر هذا وقت متعة الأوباش ، وكان السوق من أوله إلى آخره يعج بالنشاط البالغ . .

وصلت إلى الفندق ، فغيرت ملابسى ثم خرجت لتناول الطعام فى مكان آخر . كان البنانى لايزال يلازمنى ، وظل يؤجل ذهابه ، لكن إلى متى ؟! شاركنى الطعام ، وتناول وجبة بأربعة قروش ! ثم نهض طالبا الإذن بالذهاب . .

وفى الصباح لم أكد أنتهى من تلاوة القرآن الكريم حتى حضر عندى البنانى ، و كان برنامجى زيارة الزبير باشا ملك السودان السابق ، وأردت ألا يرافقنى البنانى ، لكن هذا كان أمرا مستحيلا ،

فقد ظل هذا البـلاء يلازمنى مثل ظلى . . وقد يتسـاءل القارئ : هل من الصعب الابتعاد عن إنسان مهما كان ؟ لكن حين يرى القارئ هذا البنـانى فى حـلته الرائعـة ، ويسـمع صـوته المهـذب ، ويرى شكله الوسيم ، ويـسمعـه يتحدث حـديث العلماء ، وهو يدعـى أنه يقدم خدماته مجانا دون غرض ، بالإضـافة إلى سلوكه الذى يتسم بالثقة - يعـذرنى ويـعرف أنه لم يكـن من السـهل عـلىّ أبدا طـرده بطريـقة غير لائقة .

بعد لقاء الـزبيـر باشا قـام البـنانى بتـرتيب لقـاءات مع ثـلاثين أو أربعـين من كبار الشـخصيات ذائعـة الشهـرة ، وكنا كلما ذهـبنا إلى بيـوت هؤلاء قـام البنـانـى بتعظيـمى وتكريمى ، وكـأنه غـلام يعـمل فى خـدمتى ، وكـلمـا دفعت ثمن تذكـرة القطار أو الترام ، أو دفعت أجـــرة « الحنـطور » كان الـبـنانى يقـوم بـدس الباقى فى جيـبه ، وكـأن النـقـود نـقوده هو . وبعد أن فـعل هذه الحركـة عدة مرات ، أخفى عنى هـذه الثروة التى جمعها . وفى العصر طلبت منه ألا يتعب نـفسه ، وأن يتـوقف عن تتبـعى ؛ لأننى لن أذهب إلى أى مكان فى الغد . وهكذا غـاب عنى فى الـيوم التـالى ، فتـفسحت برفقة مولوى عبد الرحمن ،لكـن لسوء الحظ حين ودعنى مولوى عبد الرحـمن فى المساء ، وركـبـت الترام للذهاب إلى الفنـدق ، وجدت السـيد البنانـى قـد استـقل الـتـرام أيضا ، وجلس وعـلى وجـهـه ابتـسامة عريضة !

حين وصل الترام عند الفندق وأردت النزول أمسك بى البنانى وهو يقول :

- هيا نذهب إلى مسافة أبعد . .

وكان سحب يدى منه أمام ركاب الترام أمرا بعيدا عن الذوق والأدب ، ولهذا بقيت معه رغما عن أنفى . نزلنا من الترام ، فأراد أن يدخل المحطة لكنى رفضت ، فتلعثم وهو يقول :

- لقد رأى أحد شيوخ الطريقة الخلوتية الكبار اسمك فى الصحف فأرسلنى إليك ، وهو يدعوك إلى بيته ،وهناك جمع غفير من كبار الشيوخ وعمائد الطريقة .

فقلت له :

- هذه ليست طريقة لدعوة إنسان إلى مكان ما حتى يرسلك من تتحدث عنه ، ولن ألبى مطلقا مثل هذه الدعوة حتى إذا كان من الواجب أن ألقاه .

فحملق البنانى فى وجهى ، وأراد أن ينتهز فرصة وجودنا وسط جموع الناس أمام المحلات التجارية ، وكان يعرف تماما أننى لن أستطيع أن أتعارك معه وسط السوق ، إلا أننى خيبت ظنه وبدأت أتعامل معه بعنف شديد ، فتجمع خلق كثير بعد أن شاهدوا ما يدور بيننا ، فصمت البنانى وسار معى دون أن ينبس بكلمة حتى وصلنا إلى الفندق .

بعد أن دخلنا الفندق بدأ يتملق ويداهن ويقول :

- حسنا ! أعطنى بطاقتك ، وسوف أقدمها للشيخ معتذرا له نيابة عنك .

فقلت له :

- إن لم تذهب عنى سأطلب لك الشرطة .

وحين سمع هذه العبارة ابتعد بسرعة ، وبعد ذهابه أخبرت صاحب الفندق ، فقال :

- لو كنت أخبرتنى من قبل لكنت قد أريته قدره ، وعلى كل حال سوف أُصلح من شأنه تماما إن عاود المجيء إلى هنا !

وحين جاء البنانى إلى الفندق فى صباح اليوم التالى أمسك به الحارس ؛ لأنه يعرف شكله ، وأخذه إلى صاحب الفندق الذى قام بصفع هذا الجنتلمان على وجهه عدة « كفوف » وطرده خارج الفندق .

لم يكن إدريس البنانى يبدو - من شكله وهيئته - إنسانا شريرا أو خبيثا ، لكنه كان يشغلك بالحديث ويستمر فى الكلام ، ثم يشفط فى بطنه ثلاثين أو أربعين روبية ، وفى النهاية يخترع أو يبتدع حكاية ما ، بعد أن يقضى على جميع متاع السفر ! قال الناس فى الفندق إنه نشال محترف .

كان هناك احتفال كبير فى مصر أيضا بمناسبة اعتلاء العرش فى لندن ، وقد وصلتنى بطاقة رسمية من الحكومة ، إلا أننى لم أستطع الذهاب بسبب بعض الظروف والالتزامات ، فأرسلت تهنئة خطية .

نشر خطابى الذى وزعته على الصحافة فى جميع الصحف اليومية المشهورة الصادرة فى القاهرة والإسكندرية ، وتضمن هذا الخطاب تعريف أهل مصر بأهداف « حلقة نظام الشيخ » فى دهلى ، مع الإعلان عن رغبتى فى لقاء مشايخ مصر ، كما طلبت الرأى والمشورة فيما يتعلق بهذا النظام . وهكذا كانت رسائل السادة من أهل الرأى تصلنى يوميا إلى الفندق ، لكن للأسف كان عدد الرسائل التى وردت من الشيوخ قليلاً . وقد أرسل بعضهم رأيه مكتوبا ، بينما أرسل بعضهم بعض المجلات ، وسوف أقدم خلاصة كل هذا فيما بعد .

وصلتنى مساء أمس دعوة من أحد السادة ، ذكر فيها أن لديه ما أبغى ، وطلب منى أن أقابله فى المكان الفلانى ، وهكذا أخذت سيد جيلانى شاه وذهبنا للقائه . وجدت أمامى شيخا سمح الوجه ، أهدانى بعض مؤلفاته . ومن خلال الحديث عرفت أنه ينتمى إلى جماعة الخوارج ! فأسفت على ضياع وقتى ، رغم أننى كسبت عدة كتب عن عقيدة الخوارج . ويعتقد من هم على شاكلته أنهم من المسلمين ، إلا أنهم جميعا من الكفار .

دعانى اليوم عبد الكريم الهندى ، فقضيت بصحبته مساء جميلا جدا .

لقاء مع مدير تحرير جريدة اللواء ٢٣ يونيو ١٩١١ م

رغم أننى التقيت من قبل بمدير تحرير جريدة اللواء ، لكننى ذهبت للقائه اليوم مرة أخرى . وهو شاب مهتم جدا بإصلاح المتصوفة ، وقد نشر فى جريدته بالأمس تعليقا بسيطا على رسالتى ، ذكر فيه فلسفة التصوف وامتدحها كثيرا . ومثل هذا الشخص فى مدينة مثل مصر (القاهرة) غنيمة كبرى ، حيث يكون نقاش أى موضوع غير موضوع السياسة كفرا ليس إلا .

دار الحديث بيننا لفترة طويلة ، تناولنا فيه قضايا التصوف وبعض القضايا الأخرى . والتقيت عصرا بقائد الوطنيين المصريين الأعظم عبد العزيز شاويش (جاويش) ، وهو صاحب لسان رشيق ، ورجل ذكى بارع واثق من نفسه . دار الحديث بيننا عن مشايخ مصر ، واستمر مدة ساعتين . ومن الجدير بالذكر أنه يشرف على إصدار الصحيفة اليومية الشهرية فى مصر « العلم » ، وقد وعد بنشر أفكاره وآرائه عن قضايا التصوف ، وتعريف أهل مصر بحلقة مشايخ الهند على صفحات جريدة « العلم » .

لقاء مع مدير المنار رشيد رضا - ٢٤ يونيو ١٩١١ م

ذهبت في معية مولوى عبد الرحمن للقاء مدير المنار رشيد رضا . وهذا الشخص من حيث الشكل والصورة أيضا ، ومن ناحية العادات والخصال يشبه تماما « ميرزا حيرت الدهلوى »[٣١] ، وقد دهشت كثيرا من الشبه الكبير بينهما .والمنار مجلة مشهورة ، وهى مقروءة بكثرة فى الهند ؛ أهل الهند يستمعون دائما بشوق ورغبة إلى الطبل الذى يدق من بعيد ، ويعتقدون بأن مغنى الحى لا يطرب ، ولهذا فهم معجبون بمقالات المنار غاية الإعجاب . ويعتبر هذا الشخص فى مصر مغرورا متكبرا وانتهازيا أيضا ، ولا يمكننى أن أقيم رأيا ذاتيا عن رشيد رضا من خلال تجربتى الذاتية ؛ لأنه سلك معى مسلكا أخلاقيا غير عادى . ولكن بعد الاطلاع على مقالاته التى يكتبها دائما ضد الصوفية الكرام ، وبعد سماع أحواله ومعرفة أموره الخاصة من أهل مصر - يمكن أن أقرر أن رشيد رضا هو « مرزا حيرت » مصر .

تحدثت معه عن المشايخ أيضا ، وهو يستعمل طريقة مؤثرة للاستدلال العلمى لإثبات وجهة نظره وتعضيد رأيه . وتجدر الإشارة إلى أننى كنت أعلم من البداية أنه لن يقدم رأيا طيبا عن المتصوفة .

التقيت فى المساء بالمحامى محمود بك سالم ، وهو شخص فريد لا مثيل له فى مصر (القاهرة) ، يشارك فى جميع النشاطات القومية

والدنيوية بإخلاص قلبى صميم ، وهو يقدم للصحفيين سراً مساعدة مالية معقولة ، وهو محام ناجح بالإضافة إلى دخله الكبير من أملاكه الخاصة .

تناولت عنده طعام وجبتي اليوم ، وكان يرافقنى حكيم غلام نقشبندى الكابلى ، الذى يقوم بعلاج العيون فى القاهرة منذ عدة سنوات ، وقد حقق نجاحا كبيرا . وهو رجل يملؤه الحماس ، كما أنه متدين وعلى خلق عظيم .

مصر الجديدة - ٢٥ يونيو ١٩١١ م

أشعر اليوم بوعكة، لذا مكثت فى الفندق حتى المساء . وبعد العصر ذهبت فى صحبة مولوى عبد الرحمن للتنزه فى مصر الجديدة ، وهى قطعة من باريس ، تبعد عن مصر الحالية (القاهرة) مسافة أربعة أميال ، ويذهب الترام إليها . وترام مصر الجديدة يمتاز عن الترام العادى بعرباته الجميلة ، كما أن السفر به يكون بالدرجة الثانية والأولى فقط ، ولا توجد به درجة ثالثة .

حين وصلنا إلى مصر الجديدة وجدنا بالفعل منظرا رائعا للغاية ، ومساحات فارغة شاسعة . . آه المبانى والبيوت فى غاية الجمال ، شيدت على نمط خاص ، وبأسلوب فريد ، والشوارع فسيحة ونظيفة ، وأحواض الزهور منتشرة فى كل مكان. . من الصعب أن

أرسم هذا المنظر بالـكلمات ، ولـو أن باريس على هذا النمط ، فـلا شك أننا سوف نعجب بها أيضـا . والسكان هنا كلهم بشرتهم ناصعة البياض ، وهي بالنسـبة لنا تبدو بشرة شاحـبة ، بلون رأس الفجل ، ونحن نعتـبر هذا اللون الشـاحب لونا غير طيـب . ومن ناحية فـقد تتفوق مصر الجديدة على باريس ؛ لأن السـكان هنا جميعهم فى غاية الوسامة ، وفى غاية الملاحة والجاذبية والفتنة .

وقد شاهدت فى مصر الجديدة شيئا عجيبا وغريبا يقال له « منتزه إينا » ، تذكرة الدخول بقرشين ، لهذا اشترينا التذاكر ودخلنا المتنزه ، هضـبة صـناعية عـاليـة حمـراء اللون ،يجرى عليـها قطار ، ويدور فوقها صـعودا وهبوطا ، مما يعطى الركاب متعـة فائقة . وحين يرتفع القطار فجأة صاعدا الهـضبة يدب الرعب فى قلوب المشاهدين . وفى أسفل الهضبة العـالية توجد بحيرة صناعية يفور فيـها الماء باستمرار ، مصـدرا صوتا عـاليا ، ويتم هذا بـاستخـدام الآلات ، بينما يـنساب القطار الذى يدور حـول الهضـبة علـى قضـبان حـديدية على سطح البحيرة ، دون أن يطوله الماء ، فيبدو كـأنه سفينة تسبح . وقد شيدوا جسرا من سلالم تتحرك بقوة الكهرباء ، وحين يصعد الناس على هذه السـلالم المتـحركـة ترتفـع ضـحـكاتهم ؛ لأن السـلالم تهتـز بتأثيـر الكهرباء ، فيـبدو الناس من فوقها كأنـهم « يتنططون » أو يقفزون فى أمـاكنهم ، وترتفع السلالم ثم تـهبط فى نظام دقـيق وبديع ، يصعـد عليها المئـات بينما مئـات آخـرون يقفـون أسفلـها ، يضحكون على

ما يحدث للناس من فوقها . وهناك جسر آخر مماثل يعلو ويهبط بقوة الكهرباء ، ومنظر المرور عليه شبيه بركوب السلالم سابقة الذكر.

كان منظر الماء وهو ينساب بطريقة صناعية ، وكذا المراكب تمضى فى القنوات الصغيرة مثار إعجاب الجميع . وفى ركن من الأركان وضعوا مرايا بطول الإنسان ، يبدو الواقف أمام بعضها صغير القامة ، بينما يبدو فى بعضها الآخر معقوفا أو ملتويا ، ويبدو رأس الواقف أمام بعضها ضخما بينما رجلاه طويلة . والخلاصة أن هذه المرايا تثير الضحك إلى حد كبير .

أما المصابيح الكهربائية فهى بالآلاف ، تثير البهجة ، ونورها يبهر العيون ، وهى بلا شك جديرة بالمشاهدة . وجميع أهل مصر (القاهرة) المغرمين بالتنزه من رجال ونساء يفدون على هذا المكان فى المساء للفسحة والترويح عن النفس وقضاء أوقات ممتعة ، والحديقة ذاتها فرجة للأجانب أنفسهم . لقد شاهدت هذه الأشياء بعينى فقط ، لكنى لم أنل نصيبا من ممارسة الألعاب المنتشرة فيها ، وأقصد أننى لم أجرب القطار ولم أركب القارب أو شيئا من هذا القبيل ؛ فهذه النزهة فى معية من هم على شاكلتى من الأحباب تعطينى متعة لم تتيسر لى من قبل .

فى هذا المكان استطعنا أن نرى جيدا مجتمع أهل مصر (القاهرة) ، كيف أنهم مثل أهل أوربا ؛ جاء كل واحد منهم فى صحبة امرأة ،

وأخذ يتفسح ويتنزه بحرية كاملة ، وكان بعض المسلمين يدورون هنا وهناك متأبطين نساءً فرنسيات .

تجار السند الهندوس فى القاهرة ٢٦ يونيو ١٩١١ م

التقيت اليوم فى حلوان بسيد أحمد بك الحسينى ،وهو أميرمصرى مشهور بعلمه ، وقد أهدانى بعض مؤلفاته التى يظهر من مطالعتها براعة المؤلف وإجادته ،وقد أخذ منى وعدا أن أقيم عنده إذا ما جئت مصر ثانية ، وألا أقيم فى الفندق ، وهو رجل اجتماعى على خلق حسن .

فى المساء دعانى تجار السند الهندوس إلى حضور اجتماعهم الدورى ؛ حتى أتكلم قليلا عن المذهب الهندوسى . ويشكل هؤلاء التجار جماعة تضم حوالى مائة فرد يقومون بالتجارة فى مصر ، وكلهم فى أحسن حال . وهم يعقدون اجتماعا دوريا كل ثمانية أيام ، فيؤدون المراسم الدينية ، ثم يناقشون معا خلافاتهم وكيفية الوصول إلى حلول لمشاكلهم ، ويحاول هؤلاء التجار بقدر الإمكان عدم اللجوء إلى المحاكم . ويرأس الجماعة شخص يدعى « موتى رام » ، يمتلك محلا تجاريا يحقق نجاحا كبيرا ، وفيه دائما بضاعة تتراوح قيمتها ما بين ثلاثة وأربعة ملايين روبية ، من بينها الملابس والأوانى وأدوات الزينة المختلفة وغيرها .

ذهبنا إلى هذا الاجتماع بعد المغرب ،وقد حضر مندوبهم إلى الفندق لاصطحابى إلى مكان الاجتماع . كان اجتماعا رائعا ، فى بدايته تُليت موعظة « سريمد بهاكوت » الهندوسية ، وبعدها أُلقيت خطبة عن سيرة « كوبند سنكه جى »، وعندها سُكبت دموع غزيرة - مرة تلو الأخرى - على ما أصاب الهندوس من مظالم على يد الحكام المسلمين .

حين سمعت هذا الكلام فكرت فى الأسباب التى جعلت الاتحاد بين الهندوس المتطفلين وبين المسلمين أمرا مستحيلا ؛ فليس فى دين المسلمين ما يدعوهم إلى إثارة الأفكار العامة ضد أمة أخرى ، لكن هؤلاء الناس يستخدمون أسلوب الإثارة ، ويجعلونه ضمن مراسم دينهم ، مما زاد العداء بين الهندوس والمسلمين . بعد انتهاء هذه المراسم طُلب منى أن ألقى خطابى ، لكنى اعتذرت متعللا بضيق الوقت ؛ لأننى لم أكن أرغب فى التحدث إلى أمثال هؤلاء الناس الذين يجيزون الطعن فى الأديان الأخرى . إن دينى - وهو الإسلام - دين سلام للجميع ، وهو يدعو إلى اجتماع جميع الأمم ، لكن إذا أرادت أمة من الأمم الهجوم على الأمة المسلمة ،فإن الرد العادل يكون أمرا ضروريا فى العقيدة الإسلامية . وحين أصر الحاضرون على أن أتكلم إليهم ، عندئذ قرأت لهم بعض أقوال « كرشن جى » ، وذكرت الحاضرين بواقعة « كوبند سنكه جى » ، موضحا لهم أن المسلمين إذا كانوا قد ارتكبوا بعض التجاوزات فإن ذلك كان لمجرد ضبط نظام

الدولة ، فإذا أعلن الأشرار من الناس العصيان ، فسوف يختل أمن البلاد ، ولهذا وجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى مواجهة العصيان بشدة . . وطلبت من الحضور أن يتمعنوا فيما ورد فى « الجيتا » حين رفض « أرجن » القتال فى زمان « مهابهارت » قائلا إن قتل أقاربه من أجل أن يبقى هو على قيد الحياة أمر لا جدوى منه . لقد كانت الحياة بالنسبة لهم متعة لا تعادلها متعة أخرى ، لكن « كرشن جى » نصحهم قائلا بأن هذا الجيش الذى أمامهم لو كان يضم أقاربهم ، فهؤلاء الأقارب صاروا نجسين بسبب عصيان الإله ، والسيوف سوف تطهر الملابس ، وينال من بداخلها أجساما طاهرة بعد الموت ، لهذا وجبت محاربتهم . وهكذا حاربهم « أرجن » بناء على أمر « كرشن جى » ، وحدث قتل كثير ، وسالت دماء غزيرة ، فقيسوا حال المسلمين على هذا ، فقد قاتلوا الخبثاء والأشرار حتى ينالوا الأجساد الطاهرة . . وضربتُ أمثلة ، وتحدثتُ بأحاديث شبيهة بالمثال الذى ذكرته من قبل . وقد ظهر على الحاضرين التأثر الفورى ، وهو تأثر وقتى على كل حال ؛ لأننى غير متأكد من أن بعض كلماتى التى قلتها يمكن أن تقلل من عداوتهم للمسلمين .

بعد خطابى أُعدت مائدة فخمة ، وقد انصرفت فى حوالى الساعة الثانية عشرة ، وأذكر أننى حين غادرت القاهرة قدم لى هؤلاء الهندوس هدية قيمة .

٢٧ يونيو ١٩١١ م

ذهبت اليوم للمرة الثانية لمقابلة « عباس أفندى عرف عبد البابية » من أتباع الفرقة البهائية . يذهب القطار من مصر (القاهرة) إلى منطقة الزيتون - حيث يقيم عباس أفندى - فى نصف ساعة ، وهناك قطارات كثيرة فى جميع الأوقات . وعباس أفندى رجل بسيط ، رغم أنه لا يتوانى لحظة عن تعظيم مريده وتكريمه . وعند الوداع أهدانى رسالة فى التصوف من تأليف والده مؤسس الفرقة البابية ، كما أنه كتب أيضا على كتابى تعليقات مفيدة مستقبلا ، كتبها باللغة العربية ، وسوف أقوم بنشرها مع الرسالة سابقة الذكر قريبا لتصدر عن حلقة « نظام المشايخ » فى دهلى . وهو رجل على خلق ؛ فقد أصر على أن يودعنى حتى محطة القطار ، كما قدم لى وقت الذهاب جنيها ، فاعتذرت له عن قبوله قائلا : لا حاجة لى به ، فقال إن الفقراء يقدمون الصدقات ، فقبلته .

٢٨ يونيو ١٩١١ م

التقيت اليوم بالبابى الحلبى تاجر الكتب المعروف فى الشرق ، وهو تاجر طبقت شهرته الآفاق ، ليس فى مصر وحدها بل فى جميع بلدان العالم الإسلامى ، تجد عنده كتبا فى جميع العلوم والفنون ، يتعامل مع الناس بطريقة رائعة وواضحة . وهكذا يمتدحه جميع الناس

- دون استثناء - ويقدرونه . وكنت قد التقيت فى البداية بالهنود الذين جاءوا إلى مصر ، فاستفدت كثيرا من مشورتهم ، وقد نصحونى بلقائه . والرجل على دراية كاملة بمسألة القوميات ، وفى قلبه هم وغم نتيجة ما آل إليه حال المسلمين .

منذ أن نشرت الصحف خبر وجودى ، والمتسولون يضيقون علىّ الخناق ، فيأتى إلى الفندق يوميا رجال فى غاية الهندام ، لكنهم جاءوا للاستجداء !

بينما كنت أجلس اليوم على باب الفندق ، إذا بشاب فى مقتبل العمر يرتدى « بدلة » إنجليزية ثمينة ، قدم إلى فألقى بالسلام وانحنى وأخذ يقبل يدى ، ثم جلس على الكرسى فى مواجهتى ، وقال بكل ثقة :

- كان أبى من أهل كلكتا ، أما أنا فولدت هنا فى مصر ، ولهذا فأنا لا أعرف اللغة الهندية . قرأت ما نشر عنك فى الصحف ، ولهذا لجأت إليك ؛ فأنا أعانى الحاجة والعوز ، لم يعد فى جيبى مليم واحد ، فأعطنى شيئا حتى أشترى الطعام .

استمعت فى حيرة شديدة إلى هذه الخطبة ، ثم أجبته قائلا :

- أنت شاب فاعمل حتى تكسب قوتك ، إن التسول أمر ممقوت مذموم .

ولأننى كنت أعد العدة للرحيل فى اليوم التالى ، لهذا رتبت بسرعة أمتعتى ، وقابلت من لم أقابلهم . وللأسف لم أتمكن من مقابلة صديقى المتصوف « مستر جيب » (الذى يرغب من كل قلبه فى التعرف على الويدا الهندوسية) ، ولهذا منحته - بالاتفاق مع مولوى عبد الرحمن - لقب « مكنون المصرى » ؛ فهو يستحق بجدارة هذا اللقب . وهذا اللقب كان بناء على رغبته ، فقد أراد أن يكون للقب مفهوم صوفى ،وهكذا وجدت أن أفضل وأنسب لقب لهذا الرجل (الذى فنى فى التصوف) هو « مكنون المصرى » على وزن « ذو النون المصرى » .

التقيت اليوم أيضا بجرجى زيدان رئيس تحرير مجلة الهلال المعروف ، وهو فى الخمسين من عمره ، مبتسم دائما ضحوك بشاش ، على خلق طيب ، أهدانى صورته . ومن المعروف أن كتابه فى التاريخ الإسلامى معترف به فى جميع أنحاء الدنيا[٣٢] . انتهت فترة إقامتى فى القاهرة اليوم .

السفر إلى طنطا - ٣٠ يونيو ١٩١١ م

أصر معظم كبار شخصيات مصر (القاهرة) على أن أخبرهم بموعد رحيلى ؛ حتى يتمكنوا من المجىء لوداعى فى محطة القطار ، ولكنى لا أحب هذا التقليد . وقد أكد الوطنى العظيم عبد العزيز شاويش مدير اللواء ومحمود بك سالم وغيره من الأحباب على ضرورة الذهاب إلى محطة السكة الحديد . وكنت قد عزمت على أن

أخبرهم بموعد رحيلى ، لكنى تراجعت عن ذلك واضعا فى اعتبارى عدة أمور تهدف فى النهاية إلى مصلحة الجميع . وتلقى صاحب الفندق عددا من الرسائل والمكالمات الهاتفية يسأل فيها أصحابها عن موعد سفر شيخ الهند . وحين استفسر صاحب الفندق منى عن موعد السفر ، أخبرته بأن يبلغ سلامى إلى الجميع بعد رحيلى ، وأن يشكرهم جميعا ويخبرهم بأننى ركبت القطار ، وهكذا عمل صاحب الفندق بكلامى ولم يخبر أحدا .

ودعت القاهرة فى الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم ، كان يرافقنى إمام الدين الخياط البنجابى وحافظ عبد القادر تكينوى ، وكانا فى طريقهما لزيارة بيت المقدس والشام والحجاز .

ركبنا القطار فى صمت ، كانت الساعة السابعة ، بعدها انطلق القطار ليصل إلى طنطا بعد ساعة ونصف . وفى طنطا يوجد مزار حضرة سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه ، ومقامه هنا فى مصر مثل مقام حضرة خواجه خواجكان الأجميرى رحمة الله عليه ، وهو ملتقى لجميع الزوار من جميع أنحاء مصر والشام وإفريقية . ومن الجدير بالذكر أن الشيخ السنوسى المشهور والمعروف الذى يرد ذكره فى صحف أوربا ينتمى إلى هذه السلسلة .

نزلنا من القطار ، ووضعنا الأمتعة فى « لوكاندة » ، وانطلقنا مباشرة إلى مزار حضرة السيد البدوى ، مبنى عظيم رائع . فى مسجد

حضرة السيد البدوى مدرسة يدرس فيها العلوم الدينية ما يقرب من ثلاثة آلاف طالب ، كما يدرسون أيضا الحساب والجغرافيا .

بينما كنا نتجول في المسجد وقع نظرنا فجأة على المنبر ،حيث رأيت لوحة سوداء منقوش عليها حروف بالإنجليزية ومثبتة على المنبر . تحيرنا كثيرا ، لماذا يستولى الإنجليز على منبر المسلمين ؟! وسألت فعرفت أن الأستاذ حين كان يقوم بالتدريس قام بحفر هذه اللوحة وهو يحك بإصبع « الإرتواز » المستخدم فى الكتابة على الألواح ، فقام أحد الأساتذة بتثبيت اللوح فيما بعد على المنبر .

بنيت على مزار حضرة سيدى البدوى قبة ضخمة مطلية من الداخل بماء الذهب ومزينة بزخارف جميلة ، وطبقا لتقاليد المزارات المصرية كانت الموسيقى تعزف حول المزار . وقد بقينا هنا مدة ساعتين دعونا الله فيهما كثيرا .

وعند عودتى استفسرت عن خليفة الشيخ (صاحب السجادة) فأخذنا أحد الناس إلى مقر إقامته ، حيث وجدنا مئات الأشخاص يرغبون مثلنا فى لقاء الشيخ والتبرك بملاقاته . وهو شيخ يختلف عن عامة مشايخ مصر ، وهو ملتزم بالشريعة ، كما أنه ذو حسب ونسب .

انتظرنا مدة ساعة تقريبا ، إلا أن الشيخ لم يخرج للقائنا ، مما اضطرنا إلى العودة إلى « اللوكاندة » ، فاسترحنا قليلا ثم عاودنا الحضور إليه ، فوجدنا أن الزحام لا يزال شديدا . أرسلنا إليه بطاقاتنا فحضر

إلينا على الفور بعد أن اطلع عليها ، واصطحبنا إلى خلوته الخاصة ، وأجلسنا هناك حيث لا يسمح لأى شخص آخر بالدخول .

سمعت أن عمر الشيخ يتراوح ما بين الخمسين والستين ، من طلعته ينبعث النور ، بينما حديثه يبعث على الطرب والسرور . ظل لفترة طويلة يسأل عن أحوال مسلمى الهند وخصوصا عن أحوال المشايخ ، فقلت له :

- لقد وصلنى أيضا فيض السلسلة الأحمدية والسلسلة النقشبندية .

فقال متعجبا :

- كيف ؟! بأى وسيلة ؟!

فقلت :

- لقد وصلنى هذا الفيض عن طريق حضرة مولانا شاه سيد بدر الدين بهلوارى الذى نال بدوره فيض هذه السلسلة عن طريق الشيخ عبد الرحمن أبى حصير المصرى .

فقال الشيخ حين سمع اسم الشيخ عبد الرحمن أبى حصير :

- آه ! إنه صديقنا الحميم ، وقد بقى معنا لفترة طويلة .

بعدها جاء ذكر الحلقة فى دهلى ، وقد أعجب الشيخ كثيرا بأهدافها ،ودعا بأن يوفقنا الله لتحقيق هذه الأهداف ، فقلت :

- أرجو أن تدعو لجميع أهل حلقتنا ولفلان وفلان (وذكرت عدة أسماء).

وهكذا أخذ الشيخ يدعو للجميع .

بعد أن قدموا لنا « الشربات » والقهوة قال :

- لك علينا حق يجب أن تأخذه ؛ فإننى أرى آثار الاجتهاد على وجهك .

جعلتنى عباراته هذه أصاب بالهيبة ، فدمعت عيناى .

أمر بإحضار قلم ودواة وورقة ، وكتب عدة سطور ذكر فيها ما يلى :

« لقد شاهدنا آثار الجد والاجتهاد على وجه حسن نظامى ، وعرفنا أنه يتولى تنظيم جماعة من الفقراء ، وقد سمحنا له بل أعطيناه إجازة سلسلتنا القادرية والشاذلية والأحمدية وغيرها ، وأجزنا له أن يأخذ البيعة من أهل الهند لجميع هذه الطرق الصوفية . »

ثم كتب بعدها عدة نصائح ،ووقع الورقة ومهرها أيضا ثم سلمها للعبد الفقير ، وطلب أن يأتوا لى بكتاب خاص يتضمن أوراده وأدعيته ووظائفه وأهداه لى ، وأذن لى بقراءة الأوراد والأدعية والإفادة مما فيه من وظائف .

كان علينا أن نصل إلى الإسكندرية اليوم ؛ لأن السفينة يافا سوف تقلع غدا ، ولهذا طلبنا الإذن بالمغادرة ، فقال حضرة الشيخ : كنت

أود أن تقضوا عندنا الليلة ، لكن ما باليد حيلة ، فى أمان الله ، أطلعونى دائما على أحوالكم ، وودعنا الشيخ ، ووصلنا إلى محطة القطار .

ركبنا القطار فى الساعة الخامسة والنصف ، ووصلنا الإسكندرية فى الساعة الثامنة . كان فرع نهر النيل يمضى على طول خط السكة الحديد ، ولهذا كان الوادى مخضرا ، يبعث فى النفس البهجة والسرور .

لم يكد القطار يصل إلى الإسكندرية حتى قامت القيامة ، أحاط بنا من الجهات الأربع دلالو الفنادق ، كان معظمهم من الأوربيين ، بينهم قلة من المسلمين تعد على الأصابع ، كان كل منهم يمد يده حاملا بطاقته ، مبينا مزايا الفندق الذى يمثله. كنت فى حيرة من أمرى ، ماذا أفعل ؟! فكنت أردد على سمعهم : اصبروا . . اصبروا . . اتركونى أقرأ البطاقة باطمئنان وهدوء ، لكن أنى لهؤلاء أن يستمعوا إلى ما أقول . . بدأوا يقسمون أمتعتى فيما بينهم بعد أن فصلوها عن بعضها ، وعلت الضوضاء والضجيج ، يقول المسلم : هذا حرامى نصرانى ، اذهب معنا ، أنت أيضا مسلم ونحن أيضا مسلمون ، كان المتكلمون باللغات الأوربية كثيرين . . سمع عدد من المسلمين تلك الشتائم ولم يعلقوا ، لهذا اضطررت - وأنا فى غاية القلق - أن آخذ بطاقة دلال يلبس الطربوش التركى ، ولم أكد آخذ البطاقة حتى ارتفع الصراخ : هذا حرامى . . نصرانى . وفى النهاية خرجت

بصعوبة شديدة من رصيف المحطـة ، وشرحت لرجل الشرطة ما حدث ، فقـام رجل الشرطة المسلم بـتسليم أمتـعتى إلى دلال مـسلم ، وهكذا وصلنا إلى « لوكاندة عثمانى » المملوكة لأحد الأتراك .

استـقبلنا صاحب « اللوكـاندة » بترحاب وكرم ، كـانت الغرف جـيـدة والأجـرة معـقـولة (١٢ قـرشا فى الـيوم) . تناولت طعـام العشاء ، ثم رقدت فى الفراش ، إلا أن حشرة « البق » لم تسمح لى بالنوم . . من الأمور السيئـة جدا فى فنادق المسلمين أن النظافة ليست من طبعهم ، ولهذا ينتشر البق فى فنادقهم بكثرة .

الوصـول إلـى الإسـكـنـدريـة - أول يـولـيـو ١٩١١ م

تجـولت صبـاح اليـوم في الإسكندرية ، مديـنة جميلة ورائعة ، لا يمكن وصفـها أو ذكر محـاسنها . ذهبنا فى البـداية إلى مزار النبى دانيال ، لا أدرى هل هذه المزارات مـزارات حقيـقية أم إنها مـزيفة ، فمن حـيث القدم فـقد كـانت متهـالكة ، وكلا المزارين يـوجدان فى سراديب . بعـد الانتهاء من زيارة هذين المزارين توجـهت لزيارة مزار الإمام البوصيرى مؤلف قصيدة نهج البردة ، مكان جذاب وممتع ، يثير الشـجون ، والمبنى جـميل ورائع ، ملحق به مـدرسة لتـدريس المواد الدينـية ، وطـبقا لـكلام خـدام المـزار ، يـدرس فـيهـا مـا يقرب من ألفـى طـالب . وقـد كتبت قـصيـدة « نهج البـردة » بحروف مـذهبة داخل الروضة .

جلست هناك فترة طويلة ، والحقيقة أننى لم أر مثل هذه المزار فى أى مكان طوال رحلتى . وفى طريق العودة أخذنا « المترجم » إلى قبر الإسكندر ذو القرنين ، وهو قبر عادى متهالك ، ويبدو أنه لإنسان آخر يدعى الإسكندر ، فأطلق عليه هؤلاء الناس لقب « ذو القرنين » ، فشاع هذا الاسم بينهم . ومجاورو هذا القبر أشرار خبثاء ، حين نزلنا إلى الغار قاموا بإغلاق الباب من الخارج ، وهكذا وضعونا فى مأزق ، وبدأوا يطليون « الحسنة » فهددناهم بأننا سنشكوهم للحكومة ، وحين فتحوا الباب وجدنا المكان مظلما جدا !

كانت لدى رغبة فى لقاء المشايخ الأحياء ، فأخذنا المترجم إلى شيخ يدعى « سيد الحبشى » ، وهو طاعن فى السن ، يبدو أن عمره مائة عام ، كما يبدو أيضا أنه فقد عقله وحواسه ، لا يتكلم مع أحد ، كما أنه لا يستطيع المشى ، ويقوم الخدام بحمله على أكتافهم من البيت إلى الخانقاه ، ثم يجلسونه على مسند المشيخة .

يظل الشيخ يصرخ ويبكى فى معظم الأوقات ، ويُعتقد أنه يعانى من حالة جذب خاصة ، وهو يكمل الكلمات التى قد ينطقها ، قام الخدام بالاقتراب من أذنه وصاحوا قائلين :

- هؤلاء الناس من الهند .

لكن الشيخ لم ينتبه إلينا البتة ، فقال له أحد الأشخاص :

- يا شيخ . . ادع لهم !

فلم يجبه أيضا ، فقال ثالث :

- يا شيخ ! إنهم يعانون من حكم الإنجليز ، فادع لهم أن ينجيهم الله من هذا العناء .

ولم يجب الشيخ أيضا على هذا الطالب ، وكنت قد أسرعت ناحية الشيخ وقلت له :

- يا شيخ ! نحن لا نعانى من حكم الإنجليز ، إن الأمر الذى نعانيه فى داخل القلب ، فادع لنا الله أن يطهر قلوبنا .

قلت هذا وانحنيت ، فوضعت رأسى على يد الشيخ ، عندها نطق الشيخ بكلمة :

- أيوه .

أى نعم سوف أقوم بذلك . . وبعد أن سمعوا كلمة « أيوه » تخرج من فم الشيخ ، حدثت ضجة وصياح فى جميع الأنحاء : مبروك . . مبروك . وبدأ الناس يتمتمون : تم المطلوب ، يكفى أن تخرج هذه الكلمة من فم الشيخ ، إنه لا يقول هذه الكلمة لأحد أبدا ، فإذا قالها لأحد فإن هذا يعنى أن الله سيحقق مطلب هذا الشخص . وبعدها غادرنا المكان بعد أن قضينا ساعة رائعة ممتعة ؛ فالشيخ ينتسب إلى سلسلة الطريقة القادرية .

خرجنا من عند الشيخ ، ووصلنا إلى منطقة المحلات التجارية ، كان هناك مقهى شاهدت عليه أحد العرب يقوم من مكانه ويأتى ناحيتنا ، ويسألنى :

- هل أنت سيد ؟

فقلت :

- نعم .. ماذا تريد ؟

فقال :

- اقرأ لى الفاتحة ، وادع لى الله !

وهكذا قرأنا الفاتحة وقوفا ، وحين أردنا التحرك لم يسمح لى العربى بالتقدم خطوة ، وهجم على لحيتى بطريقة متوحشة وأخذ يقبلها . وحين رأى الجالسون على المقهى هذه الحركة اندفعوا ناحيتى ، وأخذوا يقبلون لحيتى ، لقد اضطرتنى عقيدتهم البدوية تلك إلى أن أفلت منهم ، وأسرعت فركبت عربة حنطور وهربت منهم .

رجعت إلى الفندق فرتبت أمتعتى وانطلقت إلى الباخرة ، وكنت قد اشتريت التذاكر . تمت المعاينة الطبية بشكل عادى ، ثم ركبت الباخرة الخديوية المتجهة إلى يافا . وكنت قد قطعت تذكرة درجة ثالثة ؛ لأن الطريق إلى يافا يستغرق ليلتين فقط ، إلا أننى استأجرت كابينة عن طريق المترجم من أحد موظفى السفينة ، وذلك بعد أن دفعت ست روبيات . وقد وجدت بها سريرا من أسرَّة الدرجة الثانية ، كان مريحا جدا فى النوم ، كما كانت أغطيته نظيفة .

تعاركنا مع المترجم هنا أيضا ، كما هى العادة دائما ، وقد أعطيناه ريالا ، لكنه لم يقبل ، وغضب وزمجر ، وفى النهاية أعطيناه خمسة قروش أخرى . ومن العجيب أنه رغم هذا العراك طلب منى أن أكتب له شهادة ، فكتبت له : « هؤلاء المترجمون هم قضاء الله ، ولا يدرى أحد ما المكتوب على جبينه » ، وأعطيته الشهادة فأخذها فرحا مسرورا .

زاد تلاطم الموج فى البحر ،كانت السفينة قد أقلعت فى الساعة الرابعة ، وعندها صار العبد الفقير طريح الفراش بسبب دوران البحر . لكننى أخذت أقرأ كتابا بمتعة كبيرة ، فلم أكن أعانى من مضايقات أو متاعب . وفى الليل نمت نوما عميقا ، الحمد لله على ذلك .

فى بورسعيد - ٢ يوليو ١٩١١ م

فى الساعة السابعة صباحا ألقت السفينة بمرساها عند بورسعيد ، نزلنا من السفينة ، وذهبنا لنتجول فى المدينة ، مدينة عامرة جدا . تناولنا الطعام ،وتفسحنا قليلا ، وأرسلت الخطابات إلى الهند ، لا بل أرسلت خطابا واحدا ؛ لأننى أرسلت اليوم رسالة اطمئنان فقط لعزيزى واحدى[٣٣] ، لم أجد فرصة لكتابة المزيد من الخطابات . وانطلقت السفينة فى المساء متجهة إلى يافا .

من يافا إلى بيت المقدس - ٣ يوليو ١٩١١ م

في تمام الساعة السادسة صباحا بدت لنا يافا ، وفي الساعة السابعة ألقت السفينة بمرساها . ولما كانت سفينتنا قادمة من مصر حيث ينتشر الطاعون ، فقد جعلوا منها « قرنطينة » أي مكانا للحجر الصحي مدة يوم وليلة ؛ وهكذا ستظل السفينة واقفة بالركاب طوال النهار والليل . وبدا تضييع الوقت دونما سبب أمرا صعبا ؛ فقد كانت يافا أمامنا لكننا لا نستطيع أن نصل إليها . وعند العصر صعد الطبيب التركي إلى السفينة ، فقام الشخص الذى أجرنا منه الكابينة بإغلاقها حتى يحفظني من مضايقة مسئولي الفحص الطبي ، وهكذا تعرضت لحالة من حبس الدم لمدة ثلاث ساعات في جو من الحر الشديد .

قام الطبيب برش « البودرة » على ملابس ركاب الدرجة الثالثة ، فأصابها البلل ، ثم عاد أدراجه ! انظروا إلى حسن التنظيم ، فرسوم الشهادة الطبية قليلة جدا ، لدرجة أنني حصلت عليها رغم أنني لم أر شكل الطبيب ، ولم ير هو أيضا شكلي . والسفينة الخديوية ليست نظيفة مثل السفن الأوربية ، كما أنه لا يوجد حد مقرر لعدد المسافرين عليها ، كل من يأتي يُدفع به إلى داخل السفينة ، وكأنهم يدفعون بهم داخل علب السردين . . يا إلهي ! متى يتعلم المسلمون حسن النظام .

في الليل تم إنهاء حساب صاحب الكابينة : تسعة أكواب من الشاي ، خمسة في كل كوب ، وثلاثة أطباق من الطبيخ . . آه !! سلب ونهب عجيب . .

في هذه الليلة مات مسافر مصري مسكين على ظهر السفينة ،

كان أولاده مع زوجته قادمين وراءه فى سفينة أخرى . وقد قام مسئولو السفينة القاسية قلوبهم بإلقاء جثته فى البحر دون انتظار ورثته . لقد ترك عجزه هذا أثراً كبيرا على نفسى حتى غشى علىّ . . آه ! على الغريب . . آه !!

٤ يوليو ١٩١١ م

يوجد تفاوت فى التوقيت بين مصر ويافا ، فقد أشرقت الشمس فى الساعة الرابعة والنصف ، ونزلنا من السفينة فى الساعة السادسة . قام بإيصالنا إلى الشاطئ بسهولة وأمان شخص يدعى حاجى درويش ، يعمل فى يافا على خدمة الزائرين ، وأركبنا القطار المتجه إلى بيت المقدس فى الساعة الثامنة .

يوجد فى يافا عدد كبير من الوكلاء الذين يتنازعون فيما بينهم بسبب التسابق على خدمة الزائرين ، وهكذا تعرضنا أيضا لهجوم وكلاء منطقة بيت المقدس أثناء وصولنا إلى القطار . وقد ركب معى أحد الوكلاء ، وهو يبدو من ناحية الشكل إنسانا شريفا ، فلنر كيف سيكون سلوكه .

يقوم القطار من يافا إلى بيت المقدس مرتين فى اليوم ، والمسافة أربعون ميلا فقط ، لكن القطار يقطع هذه المسافة فى أربع ساعات بسبب طبيعة المنطقة الجبلية التى تعلو وتهبط .

والجبال كلها خضراء ، والمساحات المزروعة بالعنب تمتد فى جميع الجهات . كانت المحطة التالية بعد يافا هى محطة الرملة ،ومعناها أرض فلسطين ، وهذا مكان تاريخى مشهور ، أنوى النزول هنا عند العودة .

فى الساعة الثانية عشرة وضعت قدمى على أرض بيت المقدس . . ما أسعدنى وما أحسن حظى ، شاهدت يوما كيوم الحشر المملوء بالحمالين و « العربجية » ،لكن هذه المرحلة تمت بسلام وسهولة بفضل الوكيل ، فانطلقت مباشرة حتى وصلت إلى تكية سيدى ومولاى حضرة بابا فريد كنج (بكاف فارسية) شكر[٣٤] رحمه الله . ورغم أننى كنت قد عقدت العزم على أن أقيم فى الفندق ، لكنى حين سمعت اسم حضرة بابا فريد ، لم يكن أمامى أى خيار ؛ فهذا التراب الذى داسته قدمه هو بالنسبة لى أفضل وأحسن من ألف فندق .

وتكية حضرة بابا فريد كنج نظيفة رائعة ، يتولى أمرها الشيخ عبد القادر المدراسى ، وهو حسن الترتيب والنظام ، قابلنا ببشاشة وترحيب ، ورتب أمر إقامتنا . والموسم هذه الأيام شبيه بفصل الشتاء المزهر (فى الهند) ، وهم يقولون إن هذا الوقت مناسب جدا لزيارة القدس ؛ فالجو معتدل لا هو بالبارد ولا هو بالحار . وفصل الشتاء هنا صعب على الضعفاء من أمثالى ؛ فالجو يكون شديد البرودة ،كما أن الجليد يسقط بكميات كبيرة . ففى شتاء هذا العام

مات فى هذه التكية ستة بنغاليين ، فقد قاموا بإشعال الفحم للتدفئة نظرا لشدة البرد ، وأغلقوا الأبواب وناموا ، وفى الصباح مات ستة من اثنى عشر .

لم أذهب إلى أى مكان طوال اليوم ؛ فقد غلبنى التعب ، وغدا أبدأ فى الزيارة . فى الليل دعانا شيخ التكية ، وأطعمنى طعاما لذيذا .

٥ يوليو ١٩١١ م

لم أتمكن من النوم بعمق فى الليل ، فاستيقظت فى الساعة الثالثة صباحا ، ودخلت الحمام حيث قضيت حاجتى ، واغتسلت وتوضأت ، و انشغلت بتلاوة القرآن الكريم . وفى الساعة الثامنة حضر عندى إبراهيم عبد القادر أفندى مزور بيت المقدس ، وخرجت فى صحبته لزيارة الأماكن الخاصة هنا . ولما كان بيت المقدس يقع على هضبة جبلية مرتفعة ، ولهذا كان الفرق بين الطرق كالفرق بين السماء والأرض ارتفاعا وهبوطا . لم يكن الحرم القدسى يبعد كثيرا عن التكية ، وبدأ حال القلب يتغير ويتبدل ، وبعد أن قطعنا مساحة صحن الحرم غير المعبّد ، ووصلنا إلى صحن الحرم الُمعبّد ، خلعت حذائى ، لكننى شاهدت معظم الناس يتجولون وأحذيتهم فى أرجلهم . وقبل أن ندخل هذا الصحن توقف المزور ، وقرأ بعض الأدعية المؤثرة جدا ، بينما كنا نردد بعد كل دعاء كلمة آمين . وفى

النهاية طلبت من المزور أن يدعو أيضا لأهل حلقتى ولأصدقائى ، ولم يصدق خبرا ، وانطلق يدعو مستخدما عبارات مؤثرة جدا ، انفلت على أثرها زمام القلب ، فعلا البكاء والصراخ بشكل تلقائى .

توجهنا فى البداية إلى قبة الصخرة ، فصلينا النوافل ، ثم قمنا بعدها بالتجول فى جميع أنحاء المسجد الأقصى . وتفحصت كل ما فيه ، كل شىء هنا عجيب ولا مثيل له ، ولهذا يحتاج إلى حديث مفصل حتى يتمتع أهل وطنى بالزيارة وهم جالسون فى بيوتهم ، إلا أن يوما واحدا لا يتسع لتفصيل هذا الحديث . وسوف أزور الحرم يوميا ، ومن ثم سأكتب قليلا قليلا مما أراه كل يوم .

كان مسجد حضرة سليمان مغلقا هذه الأيام ؛ لأن بعض الإنجليز كانوا قد حفروا من هذا المكان سردابا ، وسرقوا بعض الآثار الدنيية . وشاع الأمر ، وانتشر الخبر ، وعُزل الحاكم ، وسُجن شيخ الحرم . والتحقيقات فى هذه القضية مستمرة ، ولهذا سيظل المسجد مغلقا حتى الانتهاء من إجراءات التحقيق .

بعد زيارة آثار القدس ذهبنا إلى كنيسة النصارى ، حيث يوجد قبر عيسى[٣٥] وبقية الآثار . وقد كانت طريقة زيارة اليهود هى الأكثر تأثيرا فى يومنا هذا ، فهؤلاء الناس لا يدخلون الحرم ؛ لأنهم يعتقدون أن التوراة مدفونة داخل المسجد ، ولهذا فقد منعوا من دخول المسجد ، إلا أنه فى الخارج يوجد حائط يقومون بالالتصاق به

واحتضانه والانخراط فى البكاء . وهم يقومون بالالتصاق بشدة بالحائط ،يقبلونه وهم يبكون بحرقة شديدة ، كأنهم يقطعون نياط القلب . وكان الرجال والنساء والأطفال والشيوخ كلهم جميعا على نفس الهيئة، يمسكون بالكتب فى أيديهم ، بينما ألسنتهم تلهج بالدعاء .

وحارس بوابة كنيسة النصارى مسلم ، عنده مفتاح الكنيسة ، كان صاحب الفخامة يجلس على مسند متكئا بلحيته البيضاء كأنه قبلة النصارى . ومنذ زمان سيدنا عمر حتى يومنا هذا فإن مفتاح هذه الكنيسة فى يد المسلمين ، وحين يحل الظلام يقوم حامل المفتاح بإشعار القساوسة وجميع الزوار بأنه سيغلق الباب ، فيخرجون من الكنيسة ، ويقفل الباب . ويقوم بعض الناس بالبقاء داخل الكنيسة بعد محاولات ووساطات ، وهكذا يظل هؤلاء محبوسين طوال الليل بسبب القفل الموضوع على الباب .

حج النصارى

ينقسم النصارى إلى عدة فرق ، تقوم كل فرقة بالحج إلى القدس طبقا لحساباتها الخاصة ، وليس لهم يوم محدد متفق عليه . كان عدد الحجاج النصارى الروم كبيرا ، ولا يوجد موضع قدم فى مدينة بيت المقدس فى ذلك الوقت ؛ فالحجاج يأتون بأعداد غفيرة ، ومراسم هؤلاء الناس عجيبة . وهناك فرقة أخرى من النصارى تأتى فقط إلى المدينة لمجرد أن تسجل أسماء أفرادها فى سجل الكنيسة ،

وتعتبر هذا حجا . وللبعض هنا أيضا تقاليد أخرى لم أبحث حتى الآن فى أحوالها بطريقة كاملة ، وسوف أقوم بالبحث والكتابة عنها فيما بعد . ولا شك أن حج النصارى الروم هو الأعجب ، فهؤلاء الناس يتجمعون فى هذه الكنيسة ، حيث يعتقدون أن المسيح صلب ، وحيث يعتقدون بوجود قبره أيضا . وفى الوسط يوجد مكان عال ، توضع فيه مادة نارية ، ومن فوق السطح يأتى خدام الكنيسة بشمعة لها تركيب خاص ، فيضعونها ببطء على هذه المادة النارية ، وحين يقربون الشمع تشتعل هذه المادة ، فيبدأ لهيبها يضيء الجهات الأربع للقبر . عندئذ يبدأ أحد القساوسة الذى ينال ألف أشرفى لأداء هذا الطقس بحمل شمعة كبيرة فى يده والجرى بينما تضاء الشموع بهذا اللهب ، ويأتى فى الخارج حيث يوجد آلاف البشر يقفون ممسكين بالشموع ، فيضيئون شموعهم من شمعة هذا القسيس ، ويعتقدون بذلك أنهم نالوا نور الله . بعد ذلك ينطلق القسيس مباشرة وهو يحمل الشمعة إلى مزار حضرة مريم ، وحين يصل هناك يطفئ الشمعة ، فيقوم الناس أيضا بإطفاء شموعهم ، ويأخذونها معهم إلى بيوتهم على سبيل البركة ، وهذا هو حج هؤلاء الناس .

فى بيت المقدس شيدت كنائس منفصلة لكل طائفة ولكل ملة ، ولا يذهب أهل طائفة أو ملة إلى كنيسة طائفة أخرى ، إلا أن الجميع دون استثناء يأتون إلى هذه الكنيسة الكبيرة التى يعتقدون أن المسيح

صلب فيها . والذاهب إلى هذه الكنيسة الكبيرة يرى آلاف الصور تعبر عن حياة المسيح بجوانبها المختلفة حتى آخر أوقاته ، وفى الوسط صورة المسيح مشدودا على الصليب ، وأمامها شموع كبيرة غليظة مضاءة ليل نهار ، بينما يسجد له آلاف النصارى من الرجال والنساء . وفى المكان الذى يعتقدون أن جسد المسيح غُسّل فيه شاهدت مئات النصارى يتقدمونني ويسجدون في هذا المكان .

الروافض من الإنجليز

معظم المطارنة والقساوسة الكبار يلقبون الإنجليز بالروافض ، فسألت عن السبب ، فقيل لى إنهم يستهزئون بعقائدنا الدينية . ورغم أن معظم أمم أوربا يؤمنون بهذه المراسم ، إلا أن الإنجليز ينكرونها ، وهم إن أتوا هنا فإنما يأتون للسياحة والفسحة ، وقلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، يشاهدوننا ونحن نؤدى هذه المراسم فيضحكون علينا ويسخرون منا . وبينما يوجد فى هذه الكنيسة بالضرورة مكان خاص لكل أمة ولكل دولة ، لا يوجد للإنجليز مكان هنا ؛ فهم لا يهتمون بمثل هذه الأمور .

ورغم أن الإنجليز فى رأى القساوسة من الروافض لكنى أعتقد أن أسلوبهم فى هذا الشأن جدير بالإعجاب ، ويدل على ذكائهم وتعقلهم . شكرا لله لأنهم نصبوا علينا جماعة من النصارى ليسوا من عبدة الأصنام ، وقلوبهم خالية من الأوهام .

مرقد المسيح

فى ركن من أركان هذه الكنيسة توجد حجرة صغيرة من حجر المرمر ، وهى غرفة حالكة الظلام ، لا يمكن لأحد أن يخطو بداخلها خطوة واحدة دون الاستعانة بضوء الشموع ، دخلنا إليها منحنين من فتحة تشبه النافذة . وهناك فى غرفة داخلية صغيرة يوجد قبر المسيح ، ولا يوجد تعويذ على القبر ، وفوق مصطبة من المرمر يوجد لوحان من المرمر ، يعتقد النصارى أن المسيح دفن هنا مدة ثلاثة أيام ، ومن هذا المكان رُفع إلى السماء . ويوجد هنا أيضا صور معلقة للمسيح ، وقد قام القسيس بتمرير البخور على أيدينا تبرُّكًا ، فقمنا بوضع بعض النقود فى « طاسة الشحاذة » . ومن المعروف أن عمر بن الخطاب قد بنى مسجدا فى جانب من جوانب هذه الكنيسة ، لا يزال باقيا حتى اليوم . وعلى سطح تلك الكنيسة – وطبقا لما قاله المعلم – فإن السلطان صلاح الدين الأيوبى كان قد بنى خانقاه لأحد الدراويش المتصوفة ، لا تزال فى حوزة ورثة هذا الشيخ حتى اليوم . ويريد النصارى دفع أى مبلغ من المال لشراء هذا المكان ، لكن أبناء الشيخ لم يخضعوا لهذا الإغراء ، ولم يقبلوا ما يعرضونه عليهم من أموال طائلة .

ذهبنا فى المساء لمشاهدة الكنيسة الروسية ، كنيسة رائعة ، والقاعدة المتبعة هنا أن تؤسس دار لضيافة المسافرين تلحق بكنيسة كل

أمة ، بالإضافة إلى مستشفى ؛ حتى يجد الزائرون راحتهم . وفى الطريق إلى الكنيسة الروسية تبدو للنظر قلعة عظيمة ، وضعت أسسها فى زمان حضرة سليمان ، وبنى الجزء العلوى منها السلطان سليمان التركى . وشوارع بيت المقدس شوارع موحشة خربة جدا بسبب عدم رشها وتسويتها ؛ فالماء هنا نادر ، وفى موسم المطر والثلج يملأ الناس الآبار ، و يعيشون على مائها طوال العام ، فمن أين يأتى هؤلاء بماء لرش الشوارع ؟

٦ يوليو ١٩١١ م

فى الصباح وبعد تناول طعام الفطور وصلنا إلى المسجد الأقصى ، وجلسنا فى محراب حضرة زكريا عليه السلام ، ودعونا بهذا الدعاء ، فى هذا الوقت كنت فى خلوة تامة بينما شعرت بأن الله يشملنى برعايته .

الدعاء فى محراب حضرة زكريا عليه السلام[٣٦]

« يا رب زكريا أجب نداء عبدك برحمتك . . يا الله ! حين جلس زكريا فى هذا المحراب داعيا إياك أن تلبى له مطلبه ، فإنه دعاك دعاء خفيا كما أمرته ، فاستجبت لدعائه ، وهكذا ملأت جيب مراد زكريا بجوهر مقصوده ، أنت أعلم بما أريد سواء دعوتك دعاء خفيا أو ناديتك جهرا على الملأ ، كان زكريا شيخا طاعنا فى السن ،

وأنا من حيث القوة إنسـان ضعيف ، كان زكـريا يشكو عقم زوجه ، وأنا أشكو عقم أمتى ، أى إنها أمة افتقدت اليوم صفة التطور .

كـان زكريا يتـمنـى وريثـا له ، يرث آل يعقـوب ، ويحفظ اسم عائلتـه ، كان زكريـا يخاف أقاربه الآخـرين ، ويخشى أن تـتلاشى طريقـة الأجـداد الطـيبين بسـبب عـدم وجـود ولى على حق . . وأنا أيضا يا إلهـى أتمنـى وريثا يبقى على مـتاع الإسـلام ، يحـرص عليه ويزيـده ، وأخـاف أيضا أصـحـاب طريـقـتى من غـير الأكفـاء مثلما كـان يخشـاهم زكريا أيضـا . كـان زكريا على يقين من الاسـتجـابة لدعائه ، وأنا أيضا على يقين من أنك لن ترد دعائى ، كل ما أبغيه يا إلهى أن ينال قلبى شـيـئا مـن واردات الغيب . إننى مـثل زكـريا لن أتعجب لظهـور قدرتك ، إننى لست من أهل هذا الزمان الغر تصـيبه الحـيـرة إذا مـا رأى أمـرا على خـلاف العـادة ، لقـد سـمـعت عن معجزاتك ، ورأيت مـعجزاتك . لقد بـشرت زكـريا بالغلام وسـميته أيضا ، كل مـا أتمناه يا إلهى غلاما مـعنويا ، لن أطلب منك يا إلهى تسمـيتـه ؛ فيكفى أن يكون اسـمه مسلمًـا ، وهو الاسم الذى وضع لنبيك إبراهيم عليه السلام .

أيتهـا الأرض المباركة ، أيهـا المحراب الذى نال القـبول من رب العـالمين ، أيها المسـجد . . صـدقوا على دعـائى . . قولوا جميـعا آمين . .

سوف أظل اليوم أناجي ربي ، أدعوه .. أطلب ابنا ليس بالنسب ، لكني أطلب ابنا روحانيا ، لا أطلب ابنا من صلبي ، لكني أطلب ابنا من فؤادي ، ينشر السرور والراحة في الدنيا طبقا لما أريد وأرغب ، لا أريد ابنا بكاءً مثل يحيى ؛ فيحيى كان مناسبا لوقته وزمانه ، واليوم هناك ضرورة للأولاد أصحاب الوجوه المبتسمة الضاحكة .

يا إلهي ! في هذا المحراب قام الكفار بإيذاء زكريا ، كما لوثوا يحيى - نعمتك المجزاة - بالتراب والدم ، إنني أستجير بك من هؤلاء ، أريد أن يكون ابني شجاعا لا يهاب الموت أمام الأعداء ، أريده ابنا لا يهاب الدخول في الميدان ، يلعب بعربات المدافع ، يملؤها بالبارود والطلقات . يا رب املأ قلبه بحرارة الإيمان ، واجعل كلامه رأفة بالأمة ، واجعله مدافعا عن الحق قاهرا للباطل ، وأخرجه من حلقة الإلحاد والدهرية ، يا إلهي اقض على الجهل والوهم ، وعلى العجز والضعف .. اللهم آمين .

كان هذا هو الدعاء الذي أشركت فيه جميع المسلمين ؛ لأن الابن الذي تمنيته من رب العزة ليس ابنا بالنسب ، لكني تمنيت وريثا لجميع المسلمين ، يرث عني عواطفي سواء ولد في الهند أو في أي بلد آخر ، سواء كان ينتمي إلى نسب السادة أو إلى أي قبيلة أخرى ، لا يهمني ذلك ، كل ما يهمني أنه يجب أن يكون مسلما ، بعدها سأدعو الله وألجأ إليه أن يرزق الأصدقاء الأولاد طبقا للأصول الدنيوية .

يا إلهى ! يا قدير ! يا قوى ! املأ الأحضان الخالية بالأولاد الصالحين الأطهار ،واقبل دعاء عبدك العاجز ! بحق هذا المكان ، وبحق زكريا وبحق جميع الأنبياء وبحق قدسية هذا المحراب لا تحرمنى من الاستجابة . . اللهم آمين .

قام عبد القادر نكينوى اليوم بإعداد الطعام بيديه فى سرعة مذهلة ، فتناولنا الطعام معا حتى شبعنا . وفى المساء ذهبت إلى الحرم مرة أخرى برفقة شيخ التكية ، فشاهدت جميع الأماكن بدقة ؛ فالشيخ متمكن تماما من المعلومات التاريخية لهذا المكان ، وكأنه ينافس بذلك خدام الحرم .

٧ يوليو ١٩١١ م

اليوم حدد لنا قاضى القدس - الذى يعتبر قاضى المديرية - موعدا للقائه ، التقينا به فى الساعة العاشرة ، يبلغ من العمر حوالى الستين ، وهو ذو علم وفضل ، وعلى معرفة كاملة بالشريعة . سألنى كثيرا عن علماء الهند ، وقد حاججته لفترة طويلة فى مسألة التصوير ، وهو فى هذه القضية يحمل الأفكار القديمة مثل أى عالم هندى . كما تناقشنا فى موضوع رؤية الهلال والإبلاغ عنها بالبرقية ، وهو يرى أن هيئة البرق إذا كانت فى أيد أمينة ، عندئذ يمكن الوثوق بها ، كما أن اختلاف المطالع من وجهة نظره لا يمنع من قبول الخبر .

وفى المحكمة التى يعمل فيها القاضى علقت فى الجوانب الأربعة لوحـات مكتوب عليـهـا آيات من الذكر الحكيم لـها تأثيـر على قلب القضاة الذين يفصلون بين الناس . وعلى سـبيل المثال وفى جانب من الجوانب مكتوب « فـاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » ، وفى جانب آخر مكتوب « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

والخلاصـة أن مثل هذه الآيات مكـتوب فى الجوانـب الأربعة . ويقوم القاضى اليوم بالإضافة إلى عـمله القضائى بعمل الحاكم ؛ لأن الحـاكم السـابق عُـزل ، ولم يتم تعـيين حـاكم جـديد حـتى الآن . والقاضى تركى لكنه يتكلم العربية والفارسية بطلاقة .

بعد أن اسـتأذنا من الـقاضى اتجهنـا إلى المسجـد لأداء الصلاة ، وشاهدت الناس يدخلون المسجد زرافات زرافات .

صلاة الجمعة فى المسجد الأقصى

وجدنا مكـانا بجوار المنبر ؛ لأننـا وصلنا إلى المسجد مـبكرين ، بعدها نظرت على البـعد فلم أجد هناك موضـعا لحبة سـمسم . قبل الصلاة ظل عدد من الـقراء يتلون القرآن الكريم ، وقد خـصصوا لهم مكانا ممتازا فى المسجد . وقبل الصلاة ارتفع صوت مقرئ القرآن الكريم من فـوق مـئذنة المسجـد العـالية ، كـما ارتـفع صـوته أيـضـا بمـدح رسـول الله ﷺ ، وتـردد صـداه على البـعد بطريقة تأثرت بهـا كثيرا .

وأرى أنها طريقة مؤثرة جدا أن يرتفع صوت المقرئ بكلام الله وذكر الرسول ، ويعلو صداه فوق جميع الكنائس المنتشرة فى جميع أنحاء القدس .

وفى وقت الخطبة وضعت على المنبر رايتان ، نسجت عليهما بحروف ذهبية كلمة الشهادة . وقد عقد الخطيب على رأسه عمامة شبيهة بالتاج ،وارتدى عباءة خضراء ، وصعد المنبر ببطء شديد ، ثم ألقى بالخطبة . كانت الخطبة كالمعتاد باللغة العربية ، ولما كانت اللغة العربية لغة الخطيب والمصلين معا ، لهذا كان الخطيب يلقى الخطبة بطريقة مؤثرة وبصوت مؤثر . وفى الخطبة أمر يستحق بالضرورة أن يقلده أهل الهند ، وعلى جميع المسلمين محبى الفقراء أن يفكروا فيه ويعملوا على نشره ، وهو أن الخطبة هنا من الضرورى أن يذكر فيها اسم حضرة الغوث الأعظم وحضرة السيد أحمد البدوى ، وعليه فيجب أن يذكر فى بلدنا اسم حضرة معين جشتى أجميرى .

بعد التسليم من الصلاة صاح المؤذن أن فلانا فى المكان الفلانى قد توفى ، ويجب أن تصلى عليه صلاة الغائب أى صلاة الجنازة . وبعد سماع هذا الخبر وقف الإمام حيث هو فى المحراب ، ونوى الصلاة ، فاقتدى به جميع المصلين . وهذا الأمر أيضا يستحق أن يروج فى الهند ؛ لأن دستور صلاة الجنازة منعدم تماما بيننا نحن أهل الهند .

بعد صلاة الجمعة شاهدت تلك الأماكن التى يعتقد النصارى أن اليهود عذبوا فيها السيد المسيح - عليه السلام - عذابا شديدا . وهى أماكن متعددة منها المكان الذى قبضوا فيه على السيد المسيح ، فهناك شيدوا مبنى ، وضعوا فيه صورا تجسد الواقعة ذاتها ، فجنود الروم يقفون وهم يقبضون على السيد المسيح . وفى نفس المكان يشاهد الصليب وقد وضع على كتفيه وهو يدفعونه ويسحبونه ، ثم تشاهد صورته وهم يسحبونه من قميصه بينما هو يسقط تحت وطأة الصليب الذى لا يمكن تحمل وزنه الثقيل . وفى مكان تحضر مريم - عليها السلام - بينما المسيح أمامها ، والسلاسل تلتف حول قدميه والصليب يثقل كاهله بشكل يبعث على الشفقة والبكاء ، بينما مريم تجد نفسها عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئا وهى ترى حالة ابنها تلك ، فيغطيها الألم والأسى . وعلى وجه المسيح تنساب قطرات الدم المتساقطة من رأسه ؛ لأن اليهود الظلمة ألبسوه تاجا من الإبر . والخلاصة أنه توجد عدة مبانٍ ، وضعت عليها أرقام تشير إلى المكان الأول للتعذيب ، ثم المكان الثانى وهكذا حتى يصل الأمر إلى مرحلة الصلب .

وقد حدث كشف جديد فى هذه الأيام ، أى أنهم اكتشفوا المكان الأصلى الذى حبس فيه السيد المسيح ، وقد ظهر هذا المكان فى جبل قريب من مقر إقامتنا أى التكية التى نقيم فيها . وكانت أعمال الحفر والتنقيب لا تزال جارية ، وقد حفروا داخل الجبل طرقا عجيبة وغريبة ، وبنوا عدة مبان ، إذا ما دخلت فيها واجهتك رائحة مثل رائحة

الحمام . وبعد أن عرجنا كثيرا هنا وهناك وصلنا إلى ذلك المكان الذى حبس فيه السيد المسيح . وفى الجبل صنعوا أريكة فى وسطها فتحتان ، يجلسون السجين على تلك الأريكة ، ويضعون قدميه في الفتحتين ، ثم يحكمون وضعهما فى حلقتى السلاسل ويقفلونها ، ولا تزال آثار الحلقات الحديدية موجودة تحت الفتحتين حتى اليوم . لقد تأثرت كثيرا بمشاهدة هذا المكان ؛ لأن هذا هو المكان الأثرى النصرانى الذى يوجد فى القدس بصورته الأصلية ، ويمكن القول - طبقا لعقيدة النصارى - أن السيد المسيح قد جاء إلى هذا الجبل .

والغار ضيق جدا ، يمكن أن يتسع بصعوبة بالغة لخمسة أو ستة أشخاص . وبعد أن نزلنا على السلم مسافة إحدى عشرة أو اثنتى عشرة درجة وصلنا إلى أسفل رأينا عملية تنظيف المكان تجرى على قدم وساق ، حيث كانوا يستخرجون من التراب عظام الموتى وجماجمهم . وقد شاهدنا المكان الذى حبس فيه السجناء ، فقد ماتوا بعد أن احتبست أنفاسهم .

فى مساء اليوم دعانا إبراهيم أفندى إلى بيته لتناول الطعام ، وقد تقرر مؤخرا أن يكون شيخا للحرم ، وهو رجل قنوع شاكر لربه ، يسعى لإصلاح أحوال خدام القدس ، وقد غادرنا بيته فى الساعة العاشرة ليلا .

٨ يوليو ١٩١١ م

كنا قد أعددنا العدة منذ الليل ، وفى الصباح وبعد أن انتهينا من قضاء حاجتنا وما إلى ذلك اتجهنا إلى مقام خليل الرحمن حيث دفن إبراهيم خليل الله ويعقوب ويوسف وإسحاق . ويبعد هذا المكان عن القدس مسافة اثنين وثلاثين ميلا ، وقد قطعتها العربة « الحنطور » في خمس ساعات . وتتسع العربة لأربعة مسافرين ، أما الأجرة فتزيد وتنقص ، وقد تصل - إذا ما زادت - إلى عشرين روبية ، بينما قد تنقص فتصل إلى عشرة أو إحدى عشرة روبية ، وقد دفعنا جنيها أى ١٥ روبية مع « البقشيش » ، وكان مرشدنا فى ذلك شيخ التكية الهندية عبد القادر . وكان يجر العربة ثلاثة خيول ، لهذا لم نتوقف فى الطريق إلا مرة واحدة ؛ فقد كانت الخيول قوية ، ومسافة الطريق ذهابا وإيابا ٦٤ ميلا ، وهو طريق جبلى تتخلله المرتفعات والمنخفضات التى لا حد لها ، وكان الأمر كله متروكا للخيل التى كانت على قدر كبير من شدة التحمل ، فأخذت تمضى بخفة على الطريق الصخرى .

وعند الظهر تقريبا وصلنا إلى قرية خليل الرحمن ، فتناولنا الطعام أولا ثم ذهبنا بعد ذلك للزيارة . وعند البوابة الأولى شاهدنا الحائط الذى بناه سليمان ، ويقال إن الجن هى التى بنته ، وهو حائط متين ، الحجر الواحد فيه يصل طوله إلى خمسة أو ستة أذرع ،

لا يعـرف كيف وبأى طريقة تم تثـبيتها مع بعضهـا ؛ فـهى حتى اليوم لا يبدو أنها مثبتة مع بعضها بل تبدو مثل الكتلة الوحدة .

ومزار إبراهيم - عـليه السلام - مـزار مرتفع جـدا ، وهو مزار فخـم ، يصل ارتفاعـه إلى ٣٠ ذراعا على وجـه التقـريب ، وطوله وعرضـه يقـرب من ذلك أيضـا ، وعلى المزار وضع غلاف مـزخرف بآيات القـرآن الكريم . ومـثلمـا هى العادة هـنا لا يمكن للزائرين أن يقتربوا من المزار ، بل يقرأون الفاتحة عند السـياج الفضى الذى يظل مقفلا ، قرأنا الفاتحة . وبالقرب من مقدمة مزار إبراهيم - عليه السلام - وفى مكان منفصل يوجـد مزار زوجه سـارة ، وفى الناحية الأخـرى توجد روضة يعقـوب وزوجه رفقه ، وبداخل المسجـد وبالقرب من المحراب مرقد إسحـاق وزوجه لائقـة . وتوجد هـنا نقوش كثيرة جدا ، لكنى لم أتمكـن من قراءتها ؛ لأنها مكتوبة بالخط التركى ، ونقوش السلطان محمد بن قلاوون كثـيرة ، ومكتوب عليها تاريخ سنة ٧٨٢ هجرية . ومن الأفضـل ألا نـذكـر حالة المجـاورين والخدام هنا ، فهم يقـهرون الزوار ، ورغم أن جميع الأمـاكن هنا لا تخلو من هذا السوء ، لكن هذا المكان هو الأسـوأ ، إننى أكتـب باطمئنان ، وأعـرض شكواى ، وأدعو الله .

للأسف كـان مكان يوسف عليه السـلام مقـفلا ، بينمـا المجاور للمزار ذهب يتنزه ، ولهذا اكتفـيت بالنظر من شباك الباب ، ومع هذا فقد استـمتعت كثيرا بما قـمت به من الوقوف على أطراف أصابعى ،

ومن محاولة النظر من الشباك الضيق ، وكأنني تأثرت بمعجزة يوسف ، التى قيدت اضطراب العشق بقيد العشق .

طلب إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام

يا جد الكل ! الأبيض والأسود ، النصرانى واليهودى والمسلم ! فداك أبى وأمى يا جد الجميع . إن الشمس والقمر والكواكب التى رأيتها فعرفت الله بفراسة النبوة - تفوق عليها شمس العلم وقمره ، حتى أنهما اليوم يلمعان ويشعان نورا . ومقلدو دينك الحنيف ضلوا الطريق بسبب عدم وجود الفراسة النبوية ، وظنوا أن هذه الكهرباء وهذا البخار وهذه القوى هى الرب . لقد رأيت الشمس تغرب والقمر يختفى ، فاستنتجت من ذلك أن الشىء الذى يزول أو يصغر ويختفى لا يمكن أن يكون هو الله ، لكن فى هذه الأيام رغم رؤية زوال هذه الشخصيات وزوال السلطة ، فلا يهتمون بإصلاح العقائد .

يا أبانا المبجل ! لا يمكن للأمور أن تمضى اليوم بغير التجلى النبوى ، فأخبر خالقنا العظيم أن يظهر لنا شعاعا من لمعات الرسالة المحمدية ، وأن يحفظ دينه الذى لم يتبق منه غير رسوم الختان وتقديم الأضاحى والقربان ، تلك الرسوم التى يعتبرونها الأسس الأولى من شعائر الإسلام ، أما بقية تعاليم الإسلام فقد أهملت ونسيت أو أنسيت . ومن المحزن والمؤسف أن الختم الإبراهيمى لا يزال

صحـيحا علـى مظروف الخطاب الإسلامى المسجل ، لـكن ما بداخل المظـروف من أوراق مالـيـة ثمينة سرقت بطريقـة لا شعـورية وبطريقة فنية . والأمر لا يتحقق لمجرد صراخ المرسل إليه ، فيجب على المرسل أيضا أن يقدم طلبا وشكوى إلى مكتب البريد الرئيسى ؛ حتى يكشف هذه السرقة ويعيد ما سرق من مظروف الرسالة المسجلة ، ولهذا فإننى قد طويت المسافات عبر البحار والصحراوات والوديان والمرتفعات حتى وصلت إليك .

بعدها - وكالعادة - دعوت أن يحقق الله مـا يصبو إليه الأحباب وأهل الحلقـة ، ثـم قـدمت إلى باب مـزار يوسف عـليـه السـلام ، ويصعب علىّ أن أتذكر أو أسطر بقلمى مـا طرأ على قلبى من مشاعر وأحـاسيس ، ومـا غـمرنى من عـواطف ، ومـا خرج من فـمى من كلمات ولهانة ، إلا أننى أسطر هنـا بعض الألفاظ التى لا تزال كامنة فى ذاكرتى :

« يوسف أيهـا الصـديق ! لماذا أغـلقت البـاب ؟ دعنى أشـاهد صورتك ، اطمـئن ! لن نقطع أيدينا بالسكين مـثل نساء مـصر ؛ إن الجـلوة الأحـمـدية عـودتنا على مـشـاهدة الجمـال . يا يوسف أيهـا الصـديق ! إننى أود التـحدث مـعك ؛ لأن القلب يريد أن يخـاطبك بجـرأة دونما خوف ، يريـد أن يخاطبك علـى سجـيتـه ، يخـاطبك بحـمـاس جنونى ،لكن هـيـبة النبـوة تمنعه من ذلك ، وأدب النبـوة يوقفه . . لا . . لا يا مركز طمأنينة العشاق ! إن الوجه الذى آتيك به

اليوم وجه آخـر ، والحديث الذى سأقوله لك حديث آخـر . . فأبعد عنى شرطة الضوابط الظاهرية .

أأنت يوسف ؟ يا من أخفت زليخا ، وأبكيت يعقوب ، أخبرنى هل أنت سلطـان المحـبة المصـرية ؟ على هذه الأرض توجـد مـلايين أقمار الحــب ظـهرت بعد أن تزينت بتجليـات صدق الحقيـقة ، لكن الجمـيع تراجع أمـام حسنك ، حين سمـعت ما سمـعت من أن فلانا مثل يوسف .

إن ذاتك هى نكتـة فى غاية الدقة لفلسـفة العـشق ، إن الإنسان الذى يمضى إلى جـانب أسرار القـدرة والفطرة يقـول إن جنس الرجل جدير بأن يكون محبـوبا بين الجنس البشرى . ومع المرأة فإن نوع الميل (الرغـبة) الذى يظهـر فى قلب الرجل قـاصـر على ضرورة حـدود التناسل ، وإلا فإن محبة المرأة لا علاقـة لها بهذه العاطفة الملكوتية بل والربانيـة التـى ترتـكز عـلى وجـود الرجل . إن الزمـان الذى كنت تعيش فيه كان عـهد العقلاء والفلاسفة ، أما الحـال اليوم فمختلف ؛ فالزمـان ليس زمان العقـلاء الذين يتصورون أن المرأة تسـتحق أن تنال درجة المحبوبيـة لمجرد أن عقلهم يفهم المحبة على أنهـا استكمال لحالة من الوله النفسى .

يا يوسف ! يا شافى عيون المشتاقين ! إن حال يوسف الهند لا يخفى عليك ، اسمـه كرشن ، وهو الذى أشـعل نيران العشق والمحـبة بين

روحى متهرا وكـوكل ، ذلك الفيلسوف الذى تضاءلت أمامـه فلاسفة أوربا جمـيعهـا . لقد جعل من ذاته أمـام الدنيا دليلا مـجسما قـدمه للعـالم على أن ذات الرجل هى مـخزن أسـرار العشق ، وهكذا فـإن الهند كلها طأطأت الرأس أمـام هذا الاعتقاد ، وإيران أيضـا تقر بهذا حتى اليوم .

إننى أخاطب ملك مصر ، النبى المقبول عند الله ، قطعة كبد من يعقوب الرسول المختـار ، أقول لك إنه ليس إساءة أدب ، إنما هو أمر جائز فى طلبات الشوق والغرام .

نعم ! نعم ! لقد كـانت لك ملكة عظيمة فى تفسـير الأحلام ، فـأخبـرنى مـا هو تفسـيـر حلم هذه الدنيـا ، حيـث أقلقت مناظرها ومشاهدها المتحركة مـضجعى ، وطيّرت النوم من عيونى ، قل لله أن يوسفى يلجأ إلىّ ، وإلا أفشيت سـر كثرة الأجناس فى سوق « الوحدة » ولا أسمح لأى زبون بالمجىء إلى هنا .

يا سيدى ! إننى أتوسل بمزارك المقدس وأتوسل بروحك المطهرة ، وأطلب شيئـا واحدا من رب العالمين ، وهو أن من هو باعـتبار الاسم واحدا ، يصبح أيضا من نصيبى باعتبار الصفات ، فنصير واحدا .

صلينا الظهر ثم تحـركنا ، فوصلنا إلى « بيت لحم » بعد السـاعة الخامـسة . وهو مـكان يـقـع على مسـافـة سـتة أمـيـال فى طـريق خليل الرحمن ، وهنا كـان مولد السيد المسيح علـيه السلام ، ويطلق

عليه « بيت لحم » ، وبيت لحم بلدة نصرانية كبيرة . حين وصلنا أمام كنيسة كبيرة ، استوقفنا جندى تركى وسألنى :

- أنت هندى ؟

فقلت له :

- نعم . . ماذا تقصد من هذا السؤال ؟

فقال :

- إننى أنتظرك منذ ثلاث ساعات ، وقد أمرنى رئيسى على رضا أفندى بالوقوف هنا ؛ حتى آخذك إليه حين تصل هنا .

فقال الشيخ عبد القادر المدراسى :

- الوقت ضيق ، وسوف نلتقى به بعد أن نتجول فى بيت لحم .

فأسرع الجندى إلى الطابق الثانى ليبلغ خبر وصولنا ، وعندئذ جاء ضابط آخر وبقى معنا . كانت بوابة « بيت لحم » من الخارج منخفضة كثيرا لدرجة أننا دخلنا منحنيين ، لا يستطيع أحد أن يعتقد بوجود هذا المبنى الفخم . حين دخلنا قامت فرقة كاملة من الجيش بتحيتنا ، ومضى الجنود معنا بأدب ونظام ، وتعجب قساوسة الكنيسة لدخولنا برفقة هذا الجيش الكبير ، وتجمعوا من جميع الجهات ، وأخذوا ينظرون إلينا .

وتبدو كنيسة بيت لحم من داخلها رائعة جدا وقديمة جدا ، وقد بناها قسطنطين ، سقفها عال للغاية ، وهو قائم على أعمدة حجرية ، على جدرانها زخارف ذهبية مطعمة بأحجار كريمة ، وقد سقط معظمها إن لم يكن جميعها ، ويلاحظ مما تبقى منها أن اللآلئ كانت مثبتة مع الذهب وسط هذه الزخارف .

وهناك ما يشبه المحراب المنحوت فى الصخر فى المكان الذى ولد فيه المسيح ، وقد غُطى بقماش منسوج بخيوط ذهبية ، وفى وسطه وضعت صورة مريم وهى تضم طفلها إلى حضنها . وبالقرب من هذا المكان توجد سلالم تنزل إلى المكان الذى بدأت فيه مريم وضع طفلها ، والذى ورد ذكره فى القرآن الكريم بالألفاظ التالية : « فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة »(٣٧) لكن لا يوجد أثر للنخلة الآن ، إلا أن هناك فتحة فى حجر من المرمر يدل على مكان وجود الشجرة .

وتوجد فى أماكن متجاورة كنائس متفرقة لأمم مختلفة وعقائد متفرقة ، من بينها كنيسة الروم التى تعد من أنفس الكنائس من ناحية الزخرفة والإبداع الفنى .

عرفت أن العداء بين الأمم النصرانية بسبب اختلاف المذاهب أشد من العداء الموجود عندنا بين السنة والشيعة ، فهنا خوف من انتشار أعمال القتل وسفك الدماء فى كل حين ، ولهذا قامت الحكومة

التركية بتعيين حراسة معقولة من الجيش على مدار الساعة . وقد قيل لنا إن الحكومة تضطر إلى تشديد الحراسة ليل نهار فى أيام الاحتفالات ، ومع هذا فلا يخلو عام من الأعوام من حدوث عراك ونزاع ، فإذا ما مر عام بسلام وخير ، أرسل الضابط التركى برقية تهنئة إلى إستنبول .

وكانت هناك ضرورة لإصلاح الكنيسة من الداخل ، فادعت كل جماعة أحقيتها فى القيام بعملية الإصلاح ، واشتد العراك بين الجماعات النصرانية حتى وصل الأمر إلى القتل وسفك الدماء ، مما دفع الحكومة إلى الاضطلاع بعملية الإصلاح التى تجرى حاليا .

إن الإنجليز يضحكون على جهلنا نحن الهنود ، فيقولون بأننا نتعارك دون سبب فى شهر المحرم وفى الأعياد ، مما يسبب الأذى للحكومة ، لكن حالة إخوانهم النصارى من الجهلة هنا فى بيت المقدس أسوأ كثيرا من حالة الهنود ، وعليهم أن يتوقفوا مستقبلا عن الضحك علينا .

عند عودتنا عرجنا على « على رضا أفندى » الذى استقبلنا باحترام شديد ، وعرفنا أنه كان قد سمع بالأمس من أحد الأشخاص أننى سأصل بيت لحم عصر اليوم ، ولهذا كان فى انتظارنا . وكان تجمع العسكر فى انتظارنا بأمر منه ، وهو أمر يعتبره الناس هنا كرما ما بعده كرم .

وعلى رضا أفندى فى الأربعين من عـمره ، وهو رجل على قدر كبير من المعـرفة . تحدثنا لفترة طويلة عن عقائد فـرقة أغاخان ، وهو يفكر كثيرا فى مسألة إقامة اتحاد إسلامى عالمى ، وقد بينت له أفكارى بحرية كاملة ؛ لأننى الآن أتكلم العربيـة بوضوح تام ، ولـم تعد لغتى فى القدس « مكسـرة » كما كـانت من قبل فى القـاهرة . وكان على رضا أفندى يقاطعنى أثناء الـكلام عامدا متعمـدا ، وكنت فى حيرة ، فلمـصلحة من يـا ترى يتجنب مـا أذكـره له من آراء ؟! وجمـيع من يرتدى الطربوش التـركى هنا من المسلمين . وقد رغب علـى رضا فى أن نجتمع ليلة بعد الغـد فى مقر جمعية الاتحـاد والترقى ؛ حتى يلتقى بى جمع الأعـضاء . وفى أثناء المغادرة رافـقنا إلى السلم الخارجى ثم همس فى أذنـى قائـلا إن الحاضـرين كانوا جميعا من النصارى ما عدا ثلاثة أو أربعة ، ولهذا فقد كـان يحاول أن يحول الحديث عن الأمور الدينية والقومية إلى موضوع آخر ، وسوف أتحدث معك بالتفصيل بعد الغد إن شاء الله .

وصلنا القدس عند المغرب ، وكنت فى غاية من التعب لا ينقذنى منه غيـر الله ، صليت وتناولت الطعـام ، وبدأت الاستعـداد للنوم . وبينما أنا كذلـك إذا بالشيخ إبراهيم عبد القادر أفنـدى يأتى ويخبرنى بأن بعض الناس من دهلى يقيمـون فى الفندق ، وسوف يغادرونه فى الصبـاح ، ويريدون مقابلتك فـهيا نذهب إليـهم . لم تكن لدى همة لتحريك قدمى بسبب التعب الشديد ، لكن اسم دهلى جعلنى أتشجع

وأذهب للقائهم . كان من بين جماعة حاجى على جان شخص يدعى محمد شفيع ، يقيم فى مكة ، وكـان عائدا من إستنبول ، متجها إلى المدينة المنورة . أهدانـى محـمـد شـفـيع قطعـتين من التنبـول[٣٨] ، فتناولتهمـا وشعرت بالسرور والنشوة ، فقـد كنت نسيت طعم التنبول مدة شهر ونصف .

لم أنم جيدا فى الليل، وبقيت أتقلب فى الفراش. أما عبد القادر نكينوى المسكين فقد ابتلى بالحمى بعد عودتنا ، ولازم الفراش .

زيارة لبعض مدارس القدس - ٩ يوليو ١٩١١ م

كان التعب يفت فى جـسمى ، لقد أفسد علىّ سـفر الأمس عدة أيام وجعلـها دون فائدة ، وعـبد القـادر الآن مريض . دعانـا الشيخ إبراهيم حسـن أفـندى شيخ الحـرم إلى الحرم فى الظهر ، ورغم أننى لا أملك القـدرة على الحـركـة إلا أننـى ذهبت رغـمـا عنى . وحين وصلت وجدت المسكين من فرط حـبه لنا قد أعد « كاميـرا » لالتقاط الصـور ، وكان يريد أن يلتـقط لى صورة فى داخل الحـرم ، وهكذا التقط لى عدة صور ، منها صورة وأنـا أقف بجوار قبة الرسول حيث كان معراج نبينا ﷺ ، وصورة عند قبة الصخرة ، وصورة وأنا أقف عند محـراب سيدنا عـمر الفاروق رضى الله عنه ، وصـورة عند منبر المسجد الأقصى ، وباختصار ونتـيجة كرم الشيخ إبراهيم حسن أفندى تم تصويرى فى جـميع أنحاء الحرم . لقد ربـطتنى بهذا المسافر مـحبة

خالصة خالية من كل غرض ، وظل يصر يوميا على أن أذهب لأقيم فى بيته ؛ فهو رجل على خلق ، يكرم الضيف ، ويرحب بالمسافر .

عند عودتى وجدت أن البريد قد وصل من الهند ، فقرأته وتناولت الطعام ونمت ، وظل حالى مضطربا طوال اليوم .

١٠ يوليو ١٩١١ م

ذهبنا صباح اليوم لمشاهدة مكتبة الخالدية ، قام بمصاحبتنا فى داخل المكتبة مديرها موسى شفيق الخالدى ، يوجد فيها أربعة آلاف كتاب من النوادر ، وهى تعج بالمخطوطات . وهؤلاء الناس ينتمون إلى نسل خالد بن الوليد سيف الله ، وملامح وجه موسى شفيق أفندى تبين عن عظمة وجلال ، عمره حوالى ستين عاما ، ومع هذا فهيئته كهيئة الأسد ، وجهه أحمر ، عيناه تشعان بالحماس . وقد التقيت فى المكتبة بمولانا خليل جواد الخالدى قاضى قضاة ديار بكر ، لم أر حتى الآن من بين فضلاء العرب مثيلا له فى الكياسة والفطانة ، وهو عالم جليل بعلوم الدين والدنيا ، ويصل علمه إلى معرفته أيضا بعقيدة الهندوس وعقيدة طائفة أغاخان ، وهو يعرف جيدا أحوال الهند ، تحدثنا معا مدة ساعة ، انتهت بتقديم معلومات كثيرة مفيدة .

وقد قدم موسى شفيق أفندى بعض الكتب القديمة هدية لحلقتنا فى دهلى . بعد عودتى انشغلت بالكتابة والقراءة ، فى المساء ذهبت فى معية الشيخ إبراهيم عبد القادر لحضور جلسة جمعية الاتحاد والترقى ، وهى الجمعية المعروفة التى أطاحت بعرش السلطان عبد الحميد . واليوم كانت الجمعية تعقد جلسة غير عادية ؛ فقد وصلت من إستنبول إلى القدس جماعة مكونة من ثلاثمائة رجل، بهدف البحث فى أمر المصالحة بين الأتراك والعرب ، وقد عقدت هذه الجلسة للبحث فى مقترحات تهدف إلى البحث فى كيفية استقبال هذه الجماعة . وقد أرسل لى أعضاء الجمعية دعوة خاصة ، وحين ذهبت هناك استقبلت استقبالا حافلا يعبر عن حسن خلق الأتراك والعرب .

حضر الجلسة جميع الأعضاء من اليهود والأتراك(٣٩) ، لكن أحدا من العرب لم يحضر الجلسة ؛ لأن العرب كانوا غاضبين من الأتراك ، ولم يكونوا على استعداد للقاء هذه الجماعة التى قدمت لتصلح بين الطرفين . وقد تولى رئاسة الجلسة ضابط شاب ألقى خطابا باللغة التركية فى غاية القوة والفصاحة ، وبدا كأن مدنيا إنجليزيا يتكلم . وعلق على خطاب الصدارة أحد النصارى الأرمن بمنتهى الشجاعة والجرأة ، فرد عليه ردا مناسبا سكرتير الجلسة جلال بيه ، واقتنع الأرمنى بكلامه مبتسما . بعدها ألقى بعض الأعضاء كلمات مختصرة ، بأسلوب طيب وجذاب ، لكن للأسف لم يصلوا إلى قرار بسبب غياب الأعضاء العرب ، وأعلن عن انعقاد جلسة أخرى يوم الخميس .

واليوم انتشر بين جميع العـرب اعتقاد بأن البرلمان التركى يريد أن يخـضع العـرب ، ويريد أن يزيد من سـيطرة الأتراك ، ولهـذا فـهم ثائرون ضد الأتراك .

رجعت بعد الساعة العاشرة ، فنمت نوما عميقا .

١١ يوليو ١٩١١ م

أشعر بالضعف والخمول منذ الصـباح ، يغالبنى النعاس أحيانا ، لم أنهض من الفراش حتى الساعة الحـادية عشرة . ذهبت فى الساعة الثانية عشرة لمشاهدة مدرسـة روضة المعارف بالقرب من التكية ، وقد أسسها الشيخ محمد الصالح أفندى على مستوى محلى ، ويدرس فيها اليـوم ثلاثمـائة وعشـرون صـبـيا ، وهى تعلـم علوم الدين والعلوم المعاصرة الضرورية . والشيخ المذكور على كـفاءة عالية ، كنت أعتقد أننى لن أجد بين علماء الدين فى القدس من هم على شاكلتى ، لكن هذا الرجل كان استثناء ، وهو شبيه بمنشى رام زعيم دراويش الآرية ، لكن ذلك أسـود وهذا أبيـض . وعلى كل حـال يدرس فى المدرسـة صـبيـان صغـار ، تم توزيعـهم على أربع مراحـل . ومنهج التربيـة والتـعليـم من بنـات أفكاره ، وهى أفكار مـؤثرة بدرجـة أصـابتنى بالحيرة . وقد تنقلت من فصل إلى فصل ، وسألت الأولاد عن قضايا الدين ، فكانوا يردون ويجيبون بسرعة وشجاعة ، وصحة الإجابة بلا شك شـاهد على اجـتهـاد الطلاب وقـوة ذاكرتهم ، لكـن طريقتـهم

العسكرية الشجاعة فى مثل هذا السن الصغير أمر يدعو للحيرة ، ثم إن الأمر لا يقتصر على صبى أو اثنين بل هم جميعا يتصفون بهذه الصفة .

أجلسنا الشيخ فى مكان خاص ، وشاهدنا طريقة تعليم هؤلاء الصبية .

دخلنا فى البداية إلى أحد الصفوف ، فأنشد التلاميذ قصيدة فى المدح النبوى ، وبعدها أنشدوا شعرا فى مدح السلطان محمد رشاد ، أعقبوه بنشيد عسكرى (وطنى) حماسى .

أيها القارىء الكريم ! لا يمكن أن أخبركم ، كما لا يمكنكم أن تقدروا أثر هذه الألفاظ التى تركها هذا النشيد علينا ، فالحماس تملكنى رغما عنى ،وجعل بدنى يقشعر ويهتز ؛ فقد كان هذا أول يوم فى حياتى أستمع فيه إلى أطفال مسلمين ينشدون بحرية نشيدا وطنيا حماسيا ، ظلت نغماته تتردد فى أعماق روحى كل يوم ، وسوف يظل يتردد معبرا عن الحماس الوطنى حتى يوم القيامة .

بعد هذا النشيد تقدم طفل يبلغ من العمر خمس سنوات ، فخرج من الصف ، وقرأ « رجزا » يعود إلى عهد الصحابة :

« سأشرب الدماء ، أنا أسد .

سأمضى أسابق الشعاع ، أنا شجاع .

الحرب هى حضن أمى ، أجد فيه أمنى[٤٠] .

ثم دخل الطفل وخرج طفل آخــر أكبر منه سنا ، فشــرح معانى الألفاظ وهو يتحرك مثل ممثل مدرب على مسرح ، فأظهر هذا الصبى صغير السن براعة تمثيلية تحير العقول . . بعد ذلك تقدمت ناحية طفل صغـير يرتدى « بدلة » تناسب تماما جـسده الصغيـر ، وبدت ملامح الذكاء على وجهه ، فسألته :

- شو اسمك ؟

فقال :

- على شوكت .

فسألته :

- من يحكم العالم ؟

فأجاب :

- الترك العثمانيون . .

فاستدرك الأستاذ الأمر وقال له :

- ألم تدرس الجغرافيا ؟! إن البلد الفلانى يحكمه فلان .

فبدأ التلميذ يرد بثقة رغم أن وجهه احمر .

- نعم يا سيدى أعرف أن الأمم الأخرى تحكمها ملوكها ،لكن الحكم فى كل مكان فى يد الأتراك ؛ لأن هلالنا يرسل نوره إلى الجميع ، وهو باق فى السماء على الدوام ، ونحن لم نر الصليب يظهر أبدا على صفحة السماء .

فأضحك هذا الرد الجسور الجميع .

بعد ذلك خرج طفلان حبشيان بشرتهما سمراء ، فدار بينهما حوار ، سأل أحدهما زميله عن اسمه ودينه ، واستمر الحوار عن بعض الجزئيات والكليات المتعلقة بالمسائل الدينية ، وعن الأديان والعقائد وعن الصوم والصلاة والحج وما إلى ذلك . وفى النهاية جرى بحث مسألة الخلافة ، فقام الطفلان - وكانا من العرب - بإثبات الخلافة التركية بالأدلة الواضحة السهلة ، وفى النهاية هتفا معا للسلطان رشاد وللحكومة الدستورية ، ثم دخلا إلى الفصل .

وخلاصة القول هنا أننى أعجز عن وصف ما رأيت هنا من أمور ، فكل شىء يمضى بدقة وبطريقة صحيحة . وقد غبطت محمد الصالح ، وتساءلت بينى وبين نفسى ماذا لو كان ولد فى الهند ، لكنا التقينا معا ، ولأمكننا أن نعمل سويا شيئا لرفعة أمتنا المسلمة .

فى المساء بعد المغرب دعانى الشيخ مرة أخرى ، فشاهدت المسرحية الحربية ريتشارد الإنجليزى والسلطان صلاح الدين ، التى قام

بتمثيلها تلاميذ المدرسة مع المدرسين . ورغم أن ما شاهدته كان « البروفة » الأولى للتمثيلية إلا أننا يجب أن نتمعن فى الهدف الأصلى منها ، ونفكر فى مغزاها العميق . ومما يذكر هنا أنه بسبب « هذه البدع الجديدة » للشيخ فإن أصحاب الأفكار القديمة ينفرون منه ولا يميلون إليه !

وقد سمعت أنهم لا يمكنهم تطبيق منهج تعليمى شجاع فى المدارس الحكومية العثمانية خشية سوء ظن أهل أوربا . وعلى كل حال سوف نزور هذه المدارس ، وسوف نقرر ونشير إلى الفرق بين تلك المدارس وهذه المدرسة .

١٢ يوليو ١٩١١ م

فى صباح اليوم قام تلاميذ الصف الأول جميعهم بزيارة مزار حضرة السلطان حسن بن حضرة السلطان أدهم البلخى - رحمة الله عليه - الذى يقع على هضبة مرتفعة جدا ، وهو مظلل بسقف عال ، وفوق المزار - وعلى خلاف العادة - وضعت مسبحة لها حبات كبيرة ، وهذه الهضبة العالية منتزه طبيعي ، يبدو للناظرين كأنه منتزه معلق . .

بعد الانتهاء من هذه الزيارة تحركنا لزيارة مزار حضرة النبى داؤود عليه السلام ، ورغم أننى لم أحصل على رواية صحيحة بشأن هذا المزار إلا أن شهرته كمزار جعلتنا نأتى لزيارته . وخادم المزار

لص أو قاطع طريق محترف ، أراد إمـام الدين - بناء على إيماءة منى - أن يمنحه شيئا من المال ، ولم يكد يترك يده حتى قفز عليه شخص آخر قفزة جعلتنا نخشى على يد المسكين أن تكون قد كسرت . . ثم ماذا جرى ؟ تحمس عبد القادر نكينوى واتجه إلى الخادم ، حتى يريه قدره تماما ، ثم أمسك برقبته ، فأغلق الخادم عيون الجبن ، ووقف صامتا ساكتا لا يتحرك !

ذهبنا بعد ذلك إلى دير الأرمن ، حيث مات أحد تلامذة المسيح عليه السلام ، فبنيت كنيسة لتخليد ذكراه . وفى ناحية الطريق وعلى واجهة الكنيسة شاهدت نقشا يدل على تسامح المسلمين ، كتبه السلطان ملك الظاهر أبو محمد سعيد تشق مق سنة ٨٥٤ هجرية ، جاء فيه مايلى :

« لقد جرى تحرير هذه الكنيسة ، وإذا استولى عليها أحد من بعدى فهو ملعون » .

اليوم دخل الحاكم الجديد للقدس المدينة فى احتفال كبير ، وكان جميع القساوسة النصارى الكبار قد ذهبوا لاستقباله ، يتقدمهم نقيبهم متقلدا سيفه . وكنا قد أجبرنا على الانتظار فى أحد الأماكن بسبب قدوم الحاكم ، مما أثر على صحتى ، فلم تتحسن حتى المساء .

رغم أن جو القدس طيب ، إلا أننى بقيت معظم الأوقات طريح الفراش نظرا لكثرة التجوال والانشغال طوال الوقت بالكتابة . وعلى كل حال فالشكر لله الذى أعاننى - بعد كل هذا - على أن أتحرك عدة ساعات .

الجمعية الأمريكية النصرانية - ١٣ يوليو ١٩١١ م

حضر من بغداد مساء اليوم عبد الكريم حاجى سليمان مع زوجه وأولاده ، وهو أحد تجار بمباى ،وهو رجل عاقل حسن العقيدة ، وكريم جدا . ذهبنا اليوم إلى مزار سيدنا حضرة موسى ، والطريق إليه جبلى وعر ، وعند المزار بنى مسجد وعدد من المبانى . ويذكرون أن الناس يتجمعون هنا فى يوم معين ، وإلا فلا أحد يذهب إلى هذا المكان المقفر المخيف ، وإذا جاء إلى هنا زوار من بلدان أجنبية جاءوا بصحبة الجنود .

استأجرنا عربتى « حنطور » بمبلغ ٣٠ روبية للذهاب والإياب .

أخذنا جولة اليوم عند « الجمعية الأمريكية النصرانية - Freeman » ، وصلنا إليها فى وقت كانوا يؤدون فيه صلواتهم ، فتمتعنا أيضا بمشاهدة هذا الأمر . ويمكن اعتبار هذه الجمعية مثل جمعية « الأخوة الإنسانية الحرة » ؛ فالنساء والرجال والأطفال والعجائز يتجمعون فى مكان واحد ، وما يكسبونه ينفقونه أيضا فى مكان

واحد . ومن ناحية العقيدة فهؤلاء الناس « موحدون » يؤمنون بأن المسيح رسول الله ، وبينهم إخلاص لا يمكن أن نجده حتى بين الأخوة والأشقاء ، يحترفون التجارة ، فى فصل الصيف يعملون برسم اللوحات ، ويقومون بتجفيف الزهور والورود وتثبيتها على ورق ، كما يصنعون المخللات والمربى ، ويحفظون الفاكهة الطازجة فى محاليل خاصة ، فإذا ما بدأ موسم قدوم السياح الأوربيين باعوهم هذه الأشياء ، وكسبوا من ذلك مئات الآلاف من الروبيات .

إن نصارى ويهود هذه البلاد يتصفون أيضا بالصفات الأخلاقية العربية ، نفس طريقة الاحترام وأسلوب التبجيل ، ونفس كثرة عبارات الترحيب . ويلاحظ أن الأوربيين الذين قدموا من أوربا واستقروا هنا يتكلمون اللغة العربية بوضوح ، ويلتزمون بالأخلاق العربية . حين ذهبت إلى هذه الجمعية الأمريكية نهض جميع الرجال والنساء واقفين احتراما وتعظيما ، وقدم إلى كل شخص فسألنى عن حالى ، سواء كان سكرتيرا أو رئيسا ؛ فالجميع يميلون إلى المساواة ، رغم أن بعضهم يعتنق أفكارا سامية بينما البعض يعتنق أفكارا متدنية . كان من بينهم شخص يجيد التحدث بالأردية ، أقام فى الهند ، قام بتعريفى بعضو فى الجمعية من ذوى الرأى ، فسألنى عدة أسئلة عن السياسة الهندية ، وفى النهاية سألته كيف يمكن - من وجهة نظره - لآسيا أن تساوى أوربا شريطة أن يظل بداخلها الشعور الدينى والحياة الروحانية .

فأجاب قائلا :

انظروا جيدا وتمعنوا فى حياة أوربا ، فإن وجدتم هناك عيبا فاتركوه ، ثم خذوا ما شئتم بعد ذلك ، وسوف تتفوقون على أوربا ، على أن تنظروا وتتمعنوا فى حياة أوربا بعيون آسيوية .

بعد أن انتهى اللقاء مع هذا الشخص ذهبت لمشاهدة هيكل جمعية Freeman ، وهو جبل مرتفع جدا فى داخله مبنى ، كان المبنى واسعا جدا لكنه مظلم لدرجة أنه يصعب على الإنسان أن يدخله دون الاستعانة بالمصابيح الكهربائية . وهم يقولون إن هذا هو المكان الذى وضع فيه سليمان أساس الجمعية (Freeman) ، وقد حملوا من هذا الجبل حجارة تكفى لبناء مدينتين خارج بيت المقدس . وهناك خاصية عجيبة فى الغار ، إذا ما قطعت الحجر بسكين انقطع بسهولة كبيرة ، كأنه ليس قطعة من حجر ، ولكن حين نخرج من الغار ، ويتعرض الحجر للهواء ، يصبح صلبا ، وبالقرب منه توجد قبور ملوك اليهود . وهناك غار فى هذا الجبل نحت بطريقة فنية عجيبة ، وقد وضع بداخله تابوت ، ولكن الآن لا يوجد هنا شيء سوى المبانى الفارغة .

ولما كانت أيام الحج قريبة ، لذا يأتى المسافرون الهنود يوميا بكثرة ، رغم أن الحكام الإنجليز حاولوا كثيرا الإمساك بزمامهم وتنظيم أمر قدومهم ، لكنهم لم يتراجعوا عن القدوم إلى هذا المكان . فهم يتعللون فى البداية برغبتهم فى زيارة بغداد الشريفة ، فإذا ما وصلوا

إليها سافروا مشيا على الأقدام إلى ديار بكر ومنها إلى حلب ، وبعد أن يزوروا دمشق يأتون إلى بيت المقدس ، ومن هنا يذهبون إلى المدينة المنورة .والكرم العربى معروف ، لذا لا يعانون فى سبيل الحصول على الطعام والشراب أثناء سفرهم . ومع هذا فإن الغربة والحاجة التى يعانى منها هؤلاء تؤثر على عزة أهل الهند ومكانتهم فى نظر العرب ، يجب علينا أن نفكر فى ترتيب أمور أمثال هؤلاء المسافرين ، فالخوف يساورنى والغضب يتملكنى وأنا أشاهد أشكالهم القذرة وأحوالهم المتدنية ، وما وقعوا فيه من مصائب ، وأتساءل لماذا خرج هؤلاء دون أن يحملوا معهم نفقات معيشتهم ، فعانوا الأمرين فى سفرهم هذا ؟!

واستفسرت من أحد الدراويش الذى يتسم بالذكاء - وكان قد قدم من بغداد مشيا على الأقدام - إذا ما كان الفقراء والدراويش فى ذلكم البلد لهم مكانة ، فقال : لا مكانة ولا قدر لهم على الإطلاق ، فهؤلاء الناس ليسوا مثل أهل الهند ، فقد كان الناس يطلبون منى التعاويذ حتى مدينة البصرة ، وبعدها لم يكلمنى أحد على الإطلاق !

فى الحرم المقدسى - ١٤ يوليو ١٩١١ م

منذ الصباح الباكر كان الناس غارقين فى التفكير فى شئونهم الخاصة ، وأنا أيضا توجهت إلى الحرم القدسى ، ووصلت مباشرة عند قبة الصخرة ، صخرة طويلة عريضة ؛ شاهدت قبة رائعة فخمة

يقال لها « عرش رب العالمين » ؛ فهنا كان مهبط الوحى والتجليات . ويعتبر هذا المكان منذ عهد سليمان حتى اليوم أعظم علامة لبيت المقدس ، هنا كانت الضحايا التى نزلت عليها نيران الغيب من السماء فأحرقتها ، ثم قدمت شهادة القبول .

أيها العرش المجازى لرب العالمين ! يقال إن من يمسك بك يعطى ما يتمنى ، وينال ما يرجو . إن ما أتمناه وأرجوه لم يتمنه إنسان من قبلى ، إننى أتمنى حماسا غيبيا (مجهولا) لم يعط لإنسان من قبل ، إن ما أقوله يليق بالمقام ؛ لأن شأنى الآن عال .

اسمعنى ! إذا كنت قادرا على أن تسمع ، وإلا فإنى سوف أناجى من لا يحتاج إلى وساطتك ، وهو السميع البصير العالم الناظر .

يا من يمتلك قوة العطاء ! انظر إلى همتى وجرأتى ، إن الفقاعات فى البحر تريد أن تتزايد ، والذرة تخسف الشمس ، بينما الدخان يفكر فى السيطرة على النار ، بالشجاعة التى وهبتها ، وبالقوة التى منحتها ، وبالحقيقة اللدنية التى لا يعرف سرها الآن غيرك وغيرى .

مكتوب فى الكتاب « إن الله على كل شىء قدير » ، فهب لى اليوم برهان قدرتك ؛ لأرى كم هى قدرتك ؛ ولأعرف فى أى شىء تتمثل قدرتك ، إننى أخرج قدمى من رداء العبودية لأدخل فى حجرة أسرار الوحدة .

إننى آمر بأن تنخلع الأعمدة التى تحمل الأسلاك ، وأن تنقطع الأسلاك ، وأن تتوقف أيضا الإشارات الكهربائية اللاسلكية . وبعد أن مثلت أمامك أود أن أتحدث معك مستعينا بذلك الفن الذى اكتسبته اليوم ، الفن الذى لا يعرفه أحد غيرى .

لقد تجليت لموسى عند شجرة فى جبل الطور وناديته ، سأناجيك بعد أن ترينى تجلياتك عند أعمدة هذه الصخرة . .

تعال ! اخلع نعليك ، تأدب على هذه الأرض المقدسة ، إننى لم أرسلك إلى فرعون ؛ فقد انتهى أمره ، إننى أجعلك أنت نفسك كيانك رسول الساحل المفقود ، فاذهب وبلغه رسالتى .

أيها الوجود الذى لا يفهم ! إلى متى يظل حجاب الصبر قائما لا يتمزق ؟ انهض ! تعال ! وانظر جميع مظاهر العبودية ، راقب جميع مشاهدات الربوبية . لقد رأت العين ما للكبرياء والجبروت من عظمة وشأن ، والآن لنتفرج ونمضى فى دروب العبودية ، ولترفع اليد مدة أربعين يوما عن عرش الربوبية ، واجلس لحظة فى صف العباد ، فما أثر هذا على عظمتك ؟ وما الحرقة التى تظهر ؟ وما المتعة التى تنتج من جراء ذلك ؟ إن قلبك من النوع الذى يعشق التفرج ، إنك ستتمتع كثيرا بتأثير الألوهية فى أحوال العبودية لدى عبيدك .

لا تترك العرش خاليا . . إننى أستطيع أن أتحمل هذا العبء ، نعم إن لدى همة لتحمل هذا العبء ، وسوف ترى كيف ستكون أيام

ألوهيتى الأربعين . فبعد أن أرتدى تاج الألوهية ستكون أول أعمالى أن أجرح قلبك بحرقة المحبة ، وأغطى الجرح بملح التصور ، سوف أخيفك ، ولن أكشف عن صورتى ، وسوف أماطل ؛ حتى يزيد اضطرابك عن الحد . . فتهطل الدموع ، ويحترق الكبد ، وينبرى الوجه ، وأنت تعلم أن العبد الذى لا حيلة له كيف يتأذّى من جراء المحبة التى نالها من الله القادر المطلق ، وكيف يكون ظلم الفراق له ، وكيف تتحول أفكار العبد القابع فى ستارة المعبود إلى أوهام .[٤١]

إن زمان ربوبيتى هو زمان المساواة ، سأجعل الجميع ينطقون بلغة واحدة ، وأصبغ الجميع بلون واحد ، ولن أبقى على مراحل العمر . وفى زمان ألوهيتى سيظل المرض والموت فى ستارة الفناء ، وسوف أمحو الغم والحزن والقلق والغضب بطاقتى الإلهية ، ولن أنتظر تنفيذ النصح والإرشاد .

وسوف يتلاشى القلق من أجل الحصول على الطعام والشراب وسبل العيش ، وعندى سيتلاشى الفرق بين الليل والنهار ، وتفاوت البرد والحر ، والفرق بين المرونة والصلابة . أما النوم فسوف أجعل عبادى فى يقظة دائمة ، إن غفلة النوم وعدم الحيلة والسكون هى - من وجهة نظرى - أمور تتعلق بالحكم الاستبدادى ، ولا مكان لها فى عهدى الذى يتميز بالحرية .

فهل تعتبر أن هذه الثورة ثورة مؤلمة ؟ لا . . لا . . فأنا رب أى عمل ، إذن فكيف ينتج الألم من أفعالى ؟! سوف أمحو كل ألم أو عناء بيد قدرتى .

وحين تنتهى الأربعين يوما الخاصة بربوبيتى وفى اليوم الأربعين بالضبط سأنزل فى بيت إنسان عربى هو محمد بن عبد الله ، وأسلمك عرش الألوهية ، وأخبر- على الفور - هذا العبد الطيب المقبول عند الله شفيع الأمة الرسول الكريم أن يشفع لى فى حضرتك جراء ما اقترفت من ذنوب ، وأن يعتذر عن سوء أدبى ، وأن يقول أيها الرب عالم الحقائق ! لا تغضب من كلام هذا العبد المجذوب الذى جاوز الحد ؛ فأنت الله وهو عبدك ، وهو صغير وأنت كبير ، والصغير يرتكب الخطأ والكبير يهب العفو .

كان لى نصيب اليوم أيضا فى أن أصلى الجمعة فى المسجد الأقصى ، وقد صلى حاكم القدس أيضا فى المسجد الأقصى ، وقد أعدوا مكانا مرتفعا خصيصا للحاكم والقاضى والمفتى . ويبدو أن هذا التقليد ليس بطيب ، فيجب أن يكون الفقير والغنى فى بيت الله سواسية ، كما أن التمييز بين الأمراء أثناء الصلاة مهما كانت صوره أمر غير مرغوب فيه .

بعد الصلاة ذهب التاجر عبد الكريم حاجى سليمان ساكن بمباى مع أسرته لزيارة قبة الصخرة . ولأن العناد اشتد هذه الأيام بين خدام

الحرم ، فقد وصل العداء بينهم إلى حد بالغ ، وهكذا أخذوا يتقاتلون فيما بينهم من أجل استقطاب صدقات الزائرين ، وقد زاد العراك والخناق بصفة خاصة داخل القبة ، حتى تظن أن القيامة قد قامت . ويطلق هؤلاء الناس على أهل الهند اسم « هنود » ، وهكذا كانوا يصرخون : هنود ! هنود ! ولأن الصياح كان مرتفعا والضجيج كان عاليا ، فقد ظن الناس فى النواحى القريبة أن كلمة هنود هنود تعنى يهود يهود ، وربما ظنوا أن اليهود قد تسللوا إلى الحرم يريدون أن يسرقوا آثار الأنبياء التى يتبرك بها الزائرون . . ثم ماذا حدث ؟

انتشر الخبر انتشار النار فى الهشيم ، حتى وصل إلى المدينة ، فقدم المسلمون وهم يحملون السيوف والبنادق والمسدسات ، وجاءوا للتضحية بأنفسهم فى سبيل الدين . وحين رأت الشرطة ومعها الجيش هذه الفوضى تعم بين الناس ، تقلدوا أسلحتهم وأسرعوا إلى المكان ، فقبضوا على الخدام المفسدين المثيرين للشغب واقتادوهم بعيدا عن الحرم . ورغم تأسفى على ما آل إليه حال خدام الحرم ، إلا أن هناك ما يدعو للسرور ، وهو أن الحمية الإسلامية لا تزال كامنة فى قلوب المسلمين ، وأنهم مستعدون للتضحية بأرواحهم فى سبيل الدين .

فى العصر ذهبت للقاء المفتى ، وهو نجل سيد طاهر أفندى المفتى السابق ، الذى ذكره مولانا شبلى النعمانى[٤٢] ، وكتب إن تأثير المفتى هنا ليس للحاكم منه نصيب ، ويجب أن نفهم أن وضع المفتى الحالى المتميز هو نفسه كوضع سابقه . والمفتى رجل موزون

للغاية ،نيـر الفكر ، يمتاز بالثـبات على الحق ، ويمكن أن نقـدر مدى حسن أخلاقـه وكرمه فيـما فعله حين سمع خـبر مقدمى ، فـقد قدم بنفسـه للقائى ، وظل يتحدث مـعى ساعة ونصف الساعـة عن علماء الهند ومشايخها وبخاصة عن حلقة نظام المشايخ .

الشكر لله فقد تحسنت حالة عبد القادر نكينوى منذ أن قدم التاجر عبد الكريم حاجى سليمان . كـانت غرفتى فى التكية تموج بالحركة ، فكنا نتـحدث عن العلمـاء والشيـوخ حتى السـاعة الثـانية عـشرة فى منتصف الليل .

حفل تنصيب حاكم القدس الجديد - ١٥ يوليو ١٩١١ م

قام التاجر حاجى عبد الكريم سليمان[٤٣] اليوم بتقديم الطعام ترحما على روح حضرة بابا شكر كنج ، وهكذا طُبخ الطعام وأُعدت الحلوى ، وانشغل بإعداد هذه الأمور كل من إمام الدين البنجابى وعبد القادر نكينوى . وقد رغب حاجى عبد الكريم سليمان أن يكون لأشراف القدس وأكابرها - بالإضافة إلى دراويش التكية والمستحقين فيها - نصيب من هذه الدعوة ؛ حتى ينال الجميع من فيض خيرات بابا شكر كنج ، وهكذا قمت بدعوة بعض السادة المحترمين ، والتقى الجميع فى مكان واحد ، وتناولوا الطعام معا فى متعة وسعادة .

أعلن اليوم عن تعيين الحاكم الجديد رسميا ، ودعيت إلى حفل التعيين ، تجمع فى مقر الحكومة جميع أشراف المدينة وأمرائها وقادتها الدينيين . وتم ترتيب المدعوين ، ففى صف جلس الحاكم وبجواره قائد الجيش ، فالقاضى والمفتى والخطيب والعلماء والمشايخ ، وفى الصف الأيمن جلس القادة الدينيون للنصارى واليهود ، وفى الصف الأمامى جلس العسكر ، وفى الصف الأيسر جلس أمراء المدينة .

كان زى الحاكم وقائد الجيش يلمع ويبرق ، أخرج الحاكم الفرمان من الحقيبة الحريرية وقبله ، وسلمه إلى رئيس الديوان ، الذى فض الفرمان ثم قبله بأدب ، ثم قرأه على الحاضرين ، وقد جاء فيه ذكر تعيين الحاكم الجديد ، والتأكيد على ضرورة إطاعة الناس لأوامره .

وبعد الانتهاء من قراءة الفرمان عزف الجيش النشيد الوطنى ، مع الصياح ثلاث مرات « عاش سلطاننا » . بعدها تقدم أحد النصارى ليلقى قصيدة ، إلا أن أحد الشيوخ المسلمين دفعه ووقف أمامه ، وقد تأثر القلب بحركة الشيخ تلك ، بينما أصيب النصرانى بالحزن الشديد وعاد إلى مكانه ، وهذا التكبر عمل فطرى للحكومة. ونحن فى بلدنا نعتبر استخفاف الإنجليز وسلوك العساكر الإنجليز السيئ ظلمًا خاصًا من جانبهم ، لكن فى البلاد الإسلامية نرى المسلم فى كل مكان يعتبر نفسه ملكا ، ويتجنب تماما اليهود والنصارى .

وقف حضرة الشيخ أمام الحاكم بعد أن دفع النصرانى المسكين ، لم يساور الشك أحدا فى أن هذا الشخص يمكن أن يقول شيئا بعد رؤية ملابسه المهلهلة وحالته المضطربة ، لكن يا له من رجل ! انطلق لسانه ، وتلاطمت أمواج بحر القلزم . وقد تنبه الحاكم لهذه الجرأة والجسارة التى ظهرت فى اللغة العربية ، وسأل عنه ، وساد الصمت ، وامتقعت الوجوه ، وغلب الظن بأن الحاكم سيصدر أمره بالقبض عليه . لكن الحاكم استمع إلى خطاب الشيخ حتى نهايته باهتمام شديد .

قال الشيخ : أيها المتصرف (الحاكم) إنك تقف هنا بعد أن ارتديت هذه الملابس اللامعة البراقة ، إن قلوبنا لا تتأثر بمثل هذه المظاهر ، فأرنا بريق العدل ولمعانه . قبل تعيينك قام الكثير من الظلمة بخنقنا ، وكانوا قد جاءوا أيضا مرتدين ملابس لامعة براقة ، فى

مواكب عظيـمة ، والآن أخبرنا : هل سـيكتب على بابك كلمة « دار الظلم » أو « دار الـعـدالة » ؟ كنا نتـــعـارك ونتنازع فـى أيام الحكم الاستبدادى الفردى ، والآن ونحن نعـيش عهد الحرية والمساواة ، نريد حكما شـبيها بما كـان فى أيام الخلفاء الراشدين ، ولهـذا أقول لك : اعرف واجبك واعدل ، وإلا قضى الناس على قوتك كلها .

وبعدها لفت الشيخ نظر الحاكم إلى ضـرورة الاهتمام بمستلزمات المدينة وما تحـتاجه مـثل نشر علوم الدين ، وتعمـير المسجـد الأقصى وترميمه وغير ذلك .

كـان خطـاب الشـيخ فى غـاية الحمـاس ، وقد أثر كـثيـرا على الحاكم ، ومضـى يهز أكمامه ويرفع أطـراف عباءته وهو يتجـه ناحية الحـاكم ، حتى وصـل إليه فى النهـاية ، ثم أمسـك يده يسلم عليـه ويهزها بشــدة . ورغم أن هذه الحركـات بدت حركات فظـة ، لكنها تتسم بالإخلاص ، وكان وضوح الخطاب وسهـولته على مستوى عال لدرجة أننى لم أستمع أبدا فى حياتى إلى مثل هذه المحاضرة السلسلة .

وفى النهاية شكر الحـاكم الشيخ وطمأنه قـائلا إنه سيحـاول مثله مثل بقية المسلمين أن يعمل طبقا لهذه النصيحة .

وقد تأثر كثيرا سفراء الدول وجميع الأساقفة والمطارنة والقساوسة من هذا المشهـد ، وبعدها خرج النصـرانى المسكين الذى كان يريد أن يلقى بقصيدته من الصف ، وقرأ قـصيدة فى مدح الحاكم والحكومة ،

تمنى فيها أن يحقق الله أهداف الرقى المرتبط بالدين الإسلامى . لم أدر ما الأثر الذى تركته هذه القصيدة على قلب الحاكم ، وقد وضح من مطالعة وجوه السامعين أنهم يعتبرون القصيدة نوعا من التملق ، مثلما تعتبر قصائدنا فى الهند تملقا للإنجليز .

حفل فى مدرسة حكومية - ١٦ يوليو ١٩١١ م

وصلتنى ليلة أمس دعوة لحضور حفلة فى مدرسة حكومية ، فى الصباح انتهيت من قضاء حوائجى ، و ذهبت لحضور الحفلة . يتعلم فى هذه المدرسة ما يقرب من ١٥٠ طالبا ، ويمكن اعتبارها مدرسة عالية ، تقام حفلة كل سنة لتوزيع الجوائز ، يشترك فيها جميع أعيان القدس وأكابرها . وقد اعتاد هؤلاء الناس على أنه إذا حضر شخص إلى الحفل وقفوا تعظيما له ، فإذا ما جلسوا قام بالسلام عليهم فردا فردا ، وطريقة سلامهم أن يضعوا اليد على الشفاه ، وبعدها على الجبهة . ومع أن طريقة السلام هذه تتناسب مع الذوق الآسيوى ، إلا أن الوقوف لفترة طويلة والرد على ألف سلام يجعل الإنسان يضطرب ويقلق .

وقد بدأ الحفل بقدوم الحاكم ، وقد خصصوا مكانا فى الصدارة للقاضى والمفتى وقائد الجيش والمشايخ ، وقد خصص لى مكان بجوار قائد الجيش والمفتى .

ولا تبدأ الاحتفالات هنا مثل الهند بالقرآن الكريم ، ففى البداية عزف السلام الوطنى ، وبعدها بدأ برنامج الحفل . وكان بين فقرات الحفل فترات توقف عزفت فيها فرقة الجيش بعض المقطوعات الموسيقية ، بينما الحاضرون يستمعون إليها فى صمت . ويبدو الأمر مفرحا ، لكنه بالنسبة لمن لديه عمل ، وبالنسبة لمن يقدرون الوقت ليس سوى مضيعة للوقت ما بعدها مضيعة . قرأ بعض التلاميذ مقالات باللغة العربية واللغة التركية واللغة الفرنسية ، وهذه اللغات جميعها تدرس ضمن المنهج التعليمى . قام صبى يبلغ من العمر عشر سنوات يحمل علم البحرية فى يده وأنشد نشيدا حربيا ممتعا ، وقد نمت حركاته عن حماسه الشديد لدرجة أن الحاضرين هللوا له وصفقوا له بطريقة عفوية . وقد قام أحد الحاضرين فأعطى الطفل جنيها (أشرفيا) فقام الطفل فوراً بتسليمه للحاكم طالبا منه أن يعطيه للترسانة البحرية السلطانية ، بعد قليل قاد جماعة الطلاب ، وأدخلهم بنظام إلى مواقع الحفل بطريقة جميلة . . سبحان الله ، وبدا أن الحاكم كان يريد أن يعطيه شيئا لكنه فكر وكتب أمرا على ورقة يقضى بأن تقدم له بعض الملابس وبعض الكتب وغير ذلك من دكان بعينه .

وكانت طريقة توزيع الجوائز عبارة عن وضع بعض الكتب المختارة على طاولة ، وقد كتب عليها رقم واسم ، بينما وقف السكرتير ينادى موضحا أن الطالب الفلانى قد تفوق فى المادة الفلانية ومنح الكتاب الفلانى جائزة لتفوقه ، فيتقدم الطالب ويأخذ الكتاب ، ويتجه إلى

المنصة فيسلم على الحاكم ، ويدور حول الطاولة إلى الخارج، ومن ثم يأتى ينادى على الطالب التالى ويذكر المادة التى تفـوق فيها ، وبعدها نودى على الطالب الأول ، وأشير إلى مادة أخرى تفوق فيها ، وهكذا نودى عليه مرتين . ويذكر أن بعض الطلاب نوديت أسماؤهـم عشرين مرة ، ونـالوا جائزة عن كل مـرة ، وداروا حول الطاولة فى كل مـرة ينادون فـيها ، وسلمـوا بالضرورة علـى الحاكم فى كل مـرة أيضا . وكانت كل دورة حول الطاولة تمثل أمرا صعـبا بالنسبة للحاكم ، الذى أصابه الـتعب والإرهاق من رد الســلام ؛ فقد تم توزيع الجـوائز على مائة وخمسين طالبا ثم إن بعض الطلاب نال أكثر من جائزة ، فقدموا للسلام علـيه أكـثر من مرة ، وقد رد الحاكم الســلام حوالى ألف مرة فى المتـوسط . وكان أكـثر الطلاب نيـلا للجـوائز هو الطالب اليتـيم يوسف رجائى ، بعد أن تسلم جائزته للمـرة الثامنة عشرة ، ثم نودى اسمـه ليتسلم الجائزة للمـرة التاسعـة عشرة خرجت منى هذه العـبارة رغما عنى : والله رجائى أقوى . فضحك الحاضرون ، وقال المفتى : إن الرجاء فى كلامك أكـثر لطفا . وفى النهاية قام الشيخ عـبد القادر الذى تكلم أمـام الحاكم بالأمس بإلقاء خطبـة ، وعارض مـا يقوم به سكرتير المدرسة من إرسال أولاده إلى المدرسة الأمريكية وعدم إدخالهم هذه المدرسة ، وكأن التعليم فيها ليس جيدا .

وأراد السكرتير أن يرد على اعـتراض الشيخ لكن الحـاكم منعه ؛ لأنه خشى أن يعكر ذلك صفو الحفل ، ثم بدأ الجميع فى الانصراف .

مزار السيدة مريم - ١٧ يوليو ١٩١١ م

في الصباح المبكر ذهب الجميع في معية شيخ التكية إلى مزار السيدة مريم ، وهو يقع في حضن الجبل بالقرب من الحرم . يمكن القول إن البناء قديم ومتهالك تماما ، وكأنه يرجع إلى زمان السيدة مريم . ولا عجب أن يكون هذا صحيحا ؛ فأثر الزمان يبدو واضحا على الأبواب ، حين دخلنا من هذه الأبواب ظننت أننا داخلون إلى أطلال خربة . ورغم أن هذا المكان أكثر الأماكن احتراما لدى أوربا كلها ولدى العالم الإسلامي والنصراني ،لكن القساوسة تعمدوا أن يبقوه خربا ، وإلا فيمكنهم أن يبنوا هذا المبنى بالأحجار الكريمة والذهب . وأورشليم أي بيت المقدس هي نموذج مجسم لجهل النصارى وما يتصفون به من وهم وشيطنة . حين نرى الإنجليز في بلدنا وحين نرى النصارى المهذبين في البلدان الأخرى ، فإننا نقول بأن هؤلاء الناس كانوا في الأزمنة السابقة مثلنا بدائيين جاهلين وغير متحضرين ،لكن بعد أن جئت إلى أورشليم ، رأيت أنه في زمن التنوير هذا يوجد أيضا الكثير من النصارى الذين لا يزالون يعيشون على الأوهام القديمة ، وحالتهم متدنية عن حالتنا ألف مرة ؛ فالكنائس التي زرتها في أورشليم باستثناء واحدة أو اثنتين يوجد فيها خرافات تزيد على ما نجده في معابد الهندوس الوثنيين ، فهناك مئات النساء والرجال يسجدون أمام صور المسيح ومريم ، ويشعلون الشموع أمام هذه الأصناف في جميع أوقات الليل والنهار تماما مثل معابد

الهندوس ، كما أن أشكال الرهبان شبيهة بأشكال سدنة المعابد الهندوسية ، يطلقون شعورهم الطويلة ، ويعقدون أحذيتهم على أماكن جلوسهم . وفى النهار تكون جميع هذه الكنائس معتمة لدرجة أن الطريق لا يُرى رغم أضواء المصابيح والشموع ، فيتعثر الناس ويسقطون على الأرض ، ويستخدم الزيتون عموما للإضاءة ، ووميض ضوئه مثل عدمه . اسألوا : إن أوربا تسفك الدماء متذرعة بنشر نور الكهرباء والتمدن فى كل مكان ، وهى تحتل البلاد ، فلماذا لا تعالج ظلمة قبلتها ، القدس ؟! وسيأتى الجواب : لا تتكلموا ! هذه مسألة دينية .

والخلاصة أننا بعد أن دخلنا الغار وجدناهم يؤدون واجبات العبادة ، بينما الأجراس تدق . وكان القسيس يقرأ آيات الكتاب المقدس ، بينما الرجال والنساء يسجدون فى خشوع للأصنام . وقد اضطررنا للانتظار حتى انتهاء شعائر هذه الصلاة . وبعد الانتهاء قام خدام مريم بحمل الشموع وتمرير اليد على أشعتها ثم على وجوه حامليها ، ثم تقدم هؤلاء الناس إلى أكبر القساوسة ، وقبلوا يديه ، فقام القسيس بإطعامهم الحلوى تبركا ، فقام هؤلاء الحمقى بوضعها فورا فى أفواههم وبلعوها .

يقع المزار فى غار ضيق يمكن لثلاثة أشخاص فقط أن يتحركوا بداخله فى وقت واحد . دققنا النظر فوجدنا القساوسة فى غاية العجب ، فأخذنا ننظر إليهم فى حيرة ودهشة . قرأت الفاتحة ودعوت بهذا الدعاء :

« الشكر لك يا إلهى أن أوصلتنا إلى تربة مـريم الطاهرة ، لكن يا إلهى الطاهر المطهـر ! إن الجسـد المنور الذى نزلت فيـه روحك هو اليوم فـى يد أناس قلوبهم مظلمة . لقـد دخلت روحك المبـاركة فى جسـد مريم من أجـل تخليص الدنيا من الكفـر والشرك ، فلمـاذا لم تحفظ هذا الكـيان الطـاهر وتخلصه من قبضة جهالة هؤلاء الكفار ؟ إن لنا حـقا فى هذا المقام ، فأعطنا هذا الحق أو سبب لنا الأسباب لنناله ، اللهم آمين .

ذهبنا إلى طريق مـرتفع بالـقرب من المزار ؛ حـيث سـمـعنا أن سلمان الفارسى وبعض الصحابة المعروفين قد دفنوا هناك .

وفى طريق العودة مررنا بالكنيسة الفرنسية ، وكانت هذه الكنيسة من قبل مدرسـة السلطان صلاح الدين ، ولوحتهـا لا تزال حتى اليوم مثبتة على البوابة الرئيسية ، وبعد ذلك أصابها الخراب .

وظل النصارى لهـا بالمرصاد فـذهبوا إلى إستنبـول وقدمـوا طلبا ذكروا فـيه أنهم يريدون هذا المكان الخرب منحـةً لاستخـدامه فى بناء مستشفى ، فجاء أمر من إسـتنبول إلى حاكم القدس بالتحقق والإفادة عما إذا كان هذا المكـان قريبا من الحرم ، وعما إذا كان بيعه لا يترتب عليه أى ضرر ، ووضع الحـاكم فى البداية العملات الذهبية فـى جيبه ثم بـدأ التـحـقيـق . وجـاء فى التقريـر أن هذا المكان بعيـد جدا عن الحرم ، ولا حـرج فى إعطائه لفرنسـا . وهكذا استولى الـكفار على

المدرسة الصلاحية [٤٤] وحولوها إلى كنيسة . ومبنى المدرسة باق كما هو دون أى تغيير لدرجة أن اللوحة المكتوب عليها اسم المدرسة لا تزال كما هى ؛ حتى يراها المسلمون فيصابون بالحسرة ، فقد استولى النصارى على ذكرى قائدهم الفاتح العظيم ، ومحوا هذه الذكرى بمكرهم وخداعهم . وهذا ما جاء فى اللوحة المثبتة على بوابة المدرسة الرئيسية :

« هذه المدرسة المباركة وقف الملك الناصر صلاح الدين والدنيا سلطان الإسلام والمسلمين أبو المظفر يوسف بن أيوب محى دولة أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وجمع له من خير الدنيا والآخرة على الفقهاء من أصحاب الإمام عبد الله بن محمد إدريس الشافعى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة » .

أى أن هذه المدرسة وقف من جانب صلاح الدين على فقهاء المذهب الشافعى .

وحتى تأخذ الأمور منحى سياسيا قالوا بأن مولد مريم - عليها السلام - كان فى ركن من أركان هذه المدرسة ، أى أن مريم ولدت فى ذلك المكان . وهكذا أخذنا القسيس إلى داخل الغار ، فشاهدنا فى فتحة من الجبل حضرة مريم فى صورة طفل راقدة فى مهد ذهبى .

بعد الظهر ذهبنا للقاء الحاكم ، فاستقبلنا بترحاب وكرم . يدعى جودت بيه ، نحيف جدا ، دار الحديث لفترة طويلة عن مسلمى الهند

ومشايخها . وقد وعد - بناء على رغبتى - أن آخذه بنفسى بعد غد إلى ذلك المكان ،حيث يوجد نقب (سرداب) الحرم الذى أثار ضجة ؛ حتى نطلع على أصل الحقيقة . بعد لقاء الحاكم التقينا بفيض الله أفندى رئيس البلدية ، وهو رجل حصيف ذو علم .

دعانى مشايخ الحرم الليلة للحكم فى نزاع داخلى بينهم ، ورغم رفضى واعتذارى ، لكنهم لم يقبلوا اعتذارى. والحكاية فى أصلها كتلك التى تحدث فى الهند بين خدام المزارات والأضرحة ، أى نذور الزوار !

وكان من حسن حظى أن يقصر مشايخ الحرم القدسى رغبتهم فى الحكم بينهم على العبد الفقير . وقد استمر الاجتماع حتى الساعة الثانية عشرة فى منتصف الليل ، ولكننا لم نخرج بنتيجة مقنعة ، ولهذا أجلنا اتخاذ القرار إلى وقت لاحق . لقد كانت شكاوى الفريقين من الكثرة لدرجة أن الوصول إلى نتيجة يستغرق وقتا طويلا .

منذ الصباح كانت نتف السحاب تمضى على صفحة السماء ، بينما اشتد هبوب الريح ، وكان الخروج بغير بطانية أمرا صعبا ، واشتد البرد فى الليل . كان هذا هو فصل الفاكهة ، بدأ العنب يملأ السوق ، الرطل بست بيسات .

اليوم قدمت قافلة مكونة من عشرين هنديا ،وهؤلاء المساكين اضطروا إلى البقاء فى بيروت فى الحجر الصحى (القرنطينة) فعانوا كثيرا ، وسوف نبقى وهؤلاء فى القدس حتى رجب .

حفل الجمعية الأمريكية - ١٨ يوليو ١٩١١ م

لم أذهب إلى أى مكان بسبب البرد . وفى العصر زارنى شقيقا المفتى ، وهما فخر الدين أفندى وأمين أفندى ، وكانا برفقة الشيخ محمد الصالح ، فأخذونى معهم عند المفتى الذى كان بيته يبعد قليلا عن التكية ، ونظرا لموقعه الطيب على قمة الجبل فقد كان فسيحا واسعا جيد التهوية . والمفتى من أنجال سيد طاهر ، وقد درس على يد والده ،فنال من صفاته الطيبة الكثير . وأمين أفندى الأخ الأصغر للمفتى يتوق كثيرا لمشاهدة الهند ، وهو مسافر إلى مصر فى الأيام القريبة المقبلة للحصول على شهادة تؤهله لمنصب الإفتاء .

كان بين القافلة الهندية الجديدة أحد الشيوخ من إمارة « مانكرول » ، وقد ظننت أنه يعرف العربية ؛ فحين سمع التلاميذ فى مدرسة الشيخ محمد صالح ينشدون الأشعار الحماسية فرح كثيرا ،وقد أخذناه ليستمع إلى القصائد والرجز ، فتأثر كثيرا وقال : هل ينشد هؤلاء قصيدة نهج البردة ؟! ولم أتمالك نفسى من الضحك على سذاجة الشيخ ، فمن الصعب على أمثاله من أصحاب الفكر القديم أن يتذوقوا هذا الحماس الجديد ، فالمسكين يحسب كل نار نار جبل الطور .

وكان ضمن هذه القافلة شيخ آخر يدعى منشى(٤٥) محمد عبد اللطيف خان ، وهو من سكان إمارة « رتلام » ،وهو يعمل

منذ عشر سنوات « مدرسا أول » فى مدرسة التاجر عبد الكريم جمال من رنكون ، وهى فى « جام نكر » . وقد سررت كثيرا لما يتمتع به من فكر نير ؛ فهو يقدر الأمور ويفصح عن رأيه فى حينه .

فى المساء دعيت إلى حفل عشاء أقامته الجمعية الأمريكية فى ناديها ، وتمتعت بصحبة طيبة مدة أربع ساعات ، شارك فى تناول العشاء مابين ٢٥ و ٣٠ امرأة ورجلا . وطبقا للقاعدة الأوربية قام رئيس الجمعية فى النهاية ، فألقى خطبة تحدث فيها إلى الحاضرين عن العبد الفقير وقال :

« . . . لقد اجتمعنا اليوم معا أمام هذا الجبل المقدس ، الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، وبيننا الآن هندى مسلم متسامح نير الفكر ، استمعنا جميعا بشوق كبير إلى كلامه الممتع ؛ فالجماعة التى ترى الأمور بتسامح ، ولا تتعصب لمذهب أو قوم أو لون وتبحث عن الحق والصدق للجميع - تعيش دائما فى راحة وهناء . ونحن نشكر الله أنه حفظكم وصانكم عن شرب الخمر وغيره من الموبقات ، ولهذا فنحن لا يمكن أن نرفع الكؤوس فى صحة ضيفنا ، تلك الكؤوس التى تضر بصحتنا ، ولكننا نريد أن ندير كؤوس المحبة الأزلية التى تبعد عن أهل الدنيا كل ما يعكر صفوهم . . (تصفيق) .

لو قلّبنا صفحات التاريخ عدة قرون إلى الوراء ، فإن صورة هذا الضيف صورة مهيبة جدا ، تلك الصورة التى تجذبنا الآن إليه . .

(ضحك) . أشكر الله مرة أخرى الذى وفقنا بهذه الصحبة الطيبة ، ووفقنا إلى لقاء مسلم هندى . . (تصفيق) .

كان هذا الخطاب باللغة العربية ، وردا عليه قمت بإلقاء كلمة بلغة عربية ركيكة ، جاء فيها :

« هذا السكين الذى قطعت به لحم المحبة وتناولته ، ونحن نجلس مجتمعين معا فى هذا الجو العليل ، إن صفحات التاريخ تذكر أن هناك زمانًا كان هذا السكين يقطع فيه اللحم بعداوة وبكراهية . . (ضحك) . لقد غيرنا جميعا من ظروفنا وأحوالنا ، ومع هذا فالسكين لم يغير حده القاطع ، فلا يزال يمضى على اللحم . . (تصفيق وضحكات عالية) ،لقد سفك دماء عظمائنا وعظمائكم على هذه الجبال المقدسة من أجل دخول الجنة ، وإنى على يقين من أنهم ذهبوا إلى الجنة ، لكن الله وفقنا اليوم فالتقينا معا هنا وكأننا فى الجنة . . (تصفيق) ، يقول الشاعر بالفارسية ما معناه بالعربية :

الجنة هى حيث لا يوجد أذى حيث لا يتعارك شخص مع الآخر

وهذا هو حالكم أيها الناس ، ولهذا فأنا أعتبر هذه الليلة ليلة فى الجنة ، مع أن هنا الكثير من الشيوخ والعجائز ،وطبقا للفكر الإسلامى فأهل الجنة جميعهم من الشباب . . (ضحك) ،ورغم هذا وإذا ما نظرنا إلى الحاضرين باعتبار السيرة فلن نرى بينهم عجوزا ، وهكذا فتشبيه الليلة بليلة الجنة تشبيه موزون .

إننى أعرف أن جمعيتكم تجد نفسها مضطرة لمواجهة الكثير من مخالفات النصارى المتعصبين ، وذلك بسبب أسلوب عملكم الحالى وعقائدكم القائمة على التوحيد ، ولكن الطريق الواضح الطاهر الذى خطوتم فيه ، والشخصية النقية التى اتخذتموها لأنفسكم - ستمكنكم من الانتصار فى النهاية على جميع مكايد الأعداء .. (تصفيق) ، اللهم آمين .

وفى الختام أشكر لكم كرمكم وحسن ضيافتكم ، لقد تركتم الشراب المحرم المضر بالصحة ، ولهذا لا يمكنكم أن تحتسوا كؤوس الخمر ، فإذا كان الأمر كذلك ، فلتشربوا من فضلكم فنجان الشاى المنقوش هذا ، وهو المقابل التركى[٤٦] لكأس الشراب ؛ حتى يكتمل مشهد هذه الليلة التى نعيشها فى الجنة .. (تصفيق) .

لقاء حاكم القدس - ١٩ يوليو ١٩١١ م

التقيت اليوم ثانية بالحاكم ، وأطلعته على المتاعب التى عانى منها الزائرون الهنود فى الحجر الصحى (القرنطينة) ببيروت ، ووددت لو وجدوا حلا مناسبا لهذا الموضوع . فقام الحاكم على الفور بتدوين هذه الشكوى فى مذكرته ، ووعدنى بأنه سيحاول بالضرورة إيجاد حل لإزالة أسباب هذه الشكوى .

حضر للقائى اليوم عدد من شرفاء بيت المقدس وأعيانه ، وفى الليل دعانى الشيخ محمد الصالح مدير مدرسة روضة المعارف ،

وتناول الجميع الطعام فى مكان واحد ، وجعلتنا متعة الحديث نتسامر حتى الساعة الحادية عشرة ليلا .

٢٠ يوليو ١٩١١ م

استمر منشى عبد اللطيف جام نكرى يتغنى بقصائد المديح النبوية لوقت متأخر من الليل ، ولهذا نمت متأخرا ، وفى الصباح شعرت بتوعك . مساء اليوم دعاني الحاكم لرؤية نقب (سرداب) الحرم ، وعند العصر ذهبت الجماعة كلها إلى الحرم ، وبقيت أتحدث مع شيخ بخارى أثناء انتظارنا وصول الحاكم . وهذا الشيخ البخارى يقيم منذ فترة طويلة فى مكة المكرمة ،وهو عجوز هرم ، كان يتحدث بحماس شديد ، فجرت الدموع فى العين أكثر من مرة ، وذكر أخبارا مشجعة فيما يتعلق بالسنوات المقبلة .

بعد العصر شرف الحاكم مع جميع هيئته الإدارية الحرم ، كان مشايخ الحرم وأعيان المدينة موجودين من قبل ، فُتح باب الصخرة الشريفة المقفل ، وصعد جميع الناس فوق الصخرة . وهنا فى الناحية الشمالية يوجد نقب ، وعلى فتحة النقب (السرداب) وضعت بعض الأحجار التى ثبتت بالطين المخلوط بالتبن ، وأزيلت هذه الأحجار ، وسمح الحاكم لى بالدخول ، ووقف الحاكم نفسه ومعه جميع المشايخ والأكابر عند فتحة النقب . أمسكت بشمعة ودخلت ، كان المكان من الضيق بحيث يضطر الإنسان إلى الدخول

فى وضع الجلوس . وفى وسط السرداب كانت هناك دعامة حجرية ، مما جعل الدخول عن طريقها أمرا صعبا ، ومع هذا حشرت نفسى وتقدمت للأمام . فى الجانب الأيمن شاهدت نقبا آخر يبلغ طوله فى عرضه ذراعا مربعا ، بينما كان طول السرداب الأول ٢٢ قدما و ٦ بوصات وعرضه ذراعا واحدا . فى ذلك الوقت طرأت على قلبى حالة عجيبة ؛ فهذا هو المكان الذى لم يدخله حتى الآن أى مسلم ، كُتب لى أن يُنعم الله علىّ بهذه النعمة . ومن السرداب الداخلى أخذت فى منديل قليلا من التراب والحصى .

يتضح من المنظر أن النقب (السرداب) غير مكتمل ، ربما هرب حافرو النقب (السرداب) قبل أن يستكملوا الحفر ، ولم يستطيعوا سرقة شىء ما ، الحمد لله ! فقد حفظ الله تعالى آثار وبركات أنبيائه ، وحرم اللصوص من نيلها .

وقد قام بمساعدتى فى قياس النقب الخياط إمام الدين الإمرتسرى رفيق سفرى ،الذى كان يجلس على فتحة النقب ممسكا بيده المقياس الخاص به .

وحين خرجت أريت الحاكم التراب الذى حملته من الداخل ، وطلبت منه أن يسمح لى بأن أحتفظ به ، ففتح المنديل وعرضه على جميع الحضور ، وسمح لى بالاحتفاظ به .

أظلمت الدنيا ، ولهـذا ذهب الحاكم إلى مقر إقامـته ، وتأجلت مشاهدة النقب (السـرداب) الموجود فى مسجد حضـرة سليمان إلى وقت آخر . وكنت قد شكرت الحاكم حين خـرجنا ، فرد على بخطبة مطولة أوضح فـيـها أن الحكومـة ليـست بغافلـة عن هذه الواقعـة ، والتحقيقات تجرى ، وعبر عن أمله فى أن تؤدى تحقيقاته فى الأمر إلى نتائج تطمئن مسلمى العالم وبـالأخص مسلمى الهند . كما أكد على أن إشاعـة خبر سرقـة آثار الأنبياء إنما كـان من فعل الأعداء ، فخـبر معـاينة النقب شـاع فى المدينة كلها ،ولهـذا يأتى إلى هنا الكثـير من الناس يتـساءلون عن حقـيقـة الأمر ،وهناك من بينهم مـن لا يصدق ويقول بأن السرقة حدثت .

فى الليل ذهبت مرة أخرى إلى الجمعيـة الأمريكية بصحبة منشى عبدالطيف وبقية الأحباب ، ورجعنا بعـد ساعة ، فعقد مجلس إنشاد المدائح النبوية لفترة ، وبعدها غرقت فى نوم عميق .

٢١ يوليو ١٩١١ م

كتبت اليـوم عن كيفيـة معاينة النقب ، وأرسلت ما كـتبت إلى الهـند . هـــذه هى الجمـــعـة الثـالثـة التـى أصليـهـا فى المســجـد الأقصـى ، وبعد صلاة الجمعـة ذهبت لحضور الجلسة السنوية لمدرسة روضـة المعارف للشـيخ مـحمـد صالح أفـندى ، وكان هناك الحـاكم والقاضى والمفـتى وجمـيع الأعيان والعلماء والمشايخ ، وتمتعـت كثيرا

بسماع خطب التلاميذ وأشعارهم . وقف الطفل أحمد صائم الذى يبلغ من العمر خمس سنوات على المنصة ، وألقى بحماس شديد خطبة حماسية ، فألهب حماس الحاضرين . أما أنا فقد وضعت على رأس هذا الطفل الصغير الذى يرتدى الطربوش التركى « عمامة عسكرية » ، فمضى أحمد صائم يتبختر وهو يلبس العمامة ، واتجه ليسلم على الحاكم ، بينما انفعل الحاضرون وهم يصفقون له فى ثورة عارمة لمدة خمس دقائق ، توقف خلالها كل شيء . وحين جاء الطفل نفسه لتسلم جائزة أخرى علق العمامة فى رقبته كأنها قلادة ، فحياه الحاضرون بالتصفيق والهتاف . وقد تسلم حوالى خمس جوائز ، وفى كل مرة كان الحاضرون يرحبون به ويزيدون من تشجيعهم له ، بينما كان الطفل يبتسم رافعا يديه تحية للحضور ، ثم يغادر وهو يهز ذراعيه مثل المصارعين . كان الحاكم قد أخبر بأنه سيأتى للقائى فى التكية بعد انتهاء الحفل ، إلا أن الحفل على عكس ما كنا نأمل امتد لوقت متأخر ، ولهذا اعتذر لى أثناء الحفل نفسه ؛ فقد كان عليه أن يذهب لحضور حفل لمدرسة أخرى ، فقد كانت المدارس كلها تعقد امتحاناتها وتقيم احتفالاتها نظرا لاقتراب شهر رمضان ، وسوف يعقب هذا بدء الإجازة . أشعر اليوم بتعب بسيط ؛ فقد عانيت كثيرا فى الليل ، ولم أستغرق فى النوم بطريقة جيدة .

٢٢ يوليو ١٩١١ م

كان هناك عضو فى الجمعية الأمريكية يدعى مستر مائيرس ، من مواليد بمباى ، يتحدث اللغة الأردية بطلاقة ، فذهبت بصحبته للقاء القنصل العام الإنجليزى الذى سألنى منذ متى جئت هنا ؟ فأخبرته أننى هنا منذ اثنين وعشرين يوما ، لكنى كنت فى مصاف أعدائك لمدة عشرين يوما ، ولهذا لم أحضر للقائك . ومنذ يومين بدأت الصداقة ، لهذا جئت اليوم إليك ، فضحك القنصل وسألنى :

- لماذا العداء ؟

قلت :

- بسبب واقعة نقب الحرم ؛ لأن هذا النقب (السرداب) كان من فعل جماعة من الإنجليز ، مما جعلنى أشعر بالأسف الشديد . ولكن بعد تحقيق استمر عشرين يوما اكتشفوا أن الإنجليز ليس لهم ذنب فى هذا الأمر ؛ فقد ارتكبت الحكومة التركية نفسها الفعل . وبعدها حين دخلت النقب (السرداب) اطمأن قلبى تماما ؛ لأن شيئا ما لم يسرق من الداخل .

أراد القنصل أن يسرد على أسماعى الأحداث بالتفصيل ، وقال إن الخطأ كله يقع على عاتق الحكومة التركية ، فقلت له :

- اسمع يا سيد ! لا تقل شيئا عن الأتراك ، فما حدث انتهى ، نحن مسلمى الهند نحب الحكومة الإنجليزية من قلوبنا ، ولكننا مع هذا نشعر تجاه الحكومة التركية بالمحبة ، وهى محبة دينية ، ولهذا فلا نريد أن نسمع ما يسيىء إلى كلا الطرفين ، ففى هذه الفترة الحرجة التى اعتبرنا فيها صداقة الإنجليز ضرورة لبقائنا على قيد الحياة . إن حادثة نقب (سرداب) الحرم المقدس حادثة فى منتهى الخطورة ، جرحت قلوب المسلمين . لكن التحقيق أثبت أن الإنجليز - أصدقاء المسلمين - ليسوا بمذنبين ، والحكومة التركية - كدولة - لا ذنب لها فى الموضوع ، والاتهام موجه إلى الموظفين المرتشين ، وهذا أيضا أمر يمكن تجاوزه ؛ لأن الحكومة تعد الآن العدة لمعاقبة هؤلاء المرتشين .

يبدو القنصل الإنجليزى الشاب فى غاية الذكاء ، ظل يتحدث معى لفترة طويلة بأدب جم . وبعد أن غادرت المكان التقيت بالدكتور « أبو شديد اليهودى » ، وهو من بين جماعة اليهود أصحاب الفكر النيّر ، وهو يحاول أن يحث اليهود على الاتحاد مع الحكومة التركية بنفس الطريقة التى يحاول فيها البعض أن يحث المسلمين على الاتحاد مع الإنجليز فى الهند .

حكى لى الكثير من الحكايات عن يقظة اليهود وتطورهم ، وعبر عن أمله فى أن يتحد المسلمون واليهود ليصبحوا أمة واحدة . عند العصر ذهبت إلى مكتب شركة « كوك » باحثا عن مندوب وكالة

رويتر ، وكنت عادة أذهب إلى مكتب الشركة من حين لآخر لاستلام البريد . ومندوب وكالة رويتر إنجليزى ، حين سألنى عن واقعة النقب ، ذكرت له كل شيء بالتفصيل ، فقال إننا الآن سنرسل تلغرافيا خبر التحقيقات التى ذكرتها إلى جميع صحف العالم عن طريق وكالة رويتر للأنباء . وقد واجهتنى صعوبة كبيرة فى إفهامه وتفهيمه ؛ فهو لم يألف اللغة العربية بعد ، أما أنا فلا نصيب لى من اللغة الإنجليزية . وفى النهاية قام موظف شركة « كوك » بالترجمة ، وأفهمه كلامى باللغة الإنجليزية ، ماذا أقول عن مندوب رويتر ؟! إنك تحسبه محاميا فى دار القضاء ، كان يدقق ويحقق فى كل عبارة ويناقش مفهوم كل كلمة .

أثناء غيابى عن التكية ذهب قاضى المدينة للقائى ، وانتظرنى هناك مدة ساعة ، هؤلاء الناس يكرمون الضيف ويقدرونه . التقيت به فى الطريق ، فقال لدى عمل رسمى الآن ، كان واجبى أن أذهب للقائك فى مقر إقامتك ، وقد أديت هذا الواجب !

فى الليل شاهدت مسرحية السلطان صلاح الدين والحروب الصليبية فى مدرسة روضة المعارف ، وقد جاء الكثير من النصارى لمشاهدة المسرحية . قام بتمثيل دور كل من ريتشارد وصلاح الدين أخوان شقيقان ، وقد أدى كل منهما دوره أداء طيبا . كانت المسرحية باللغة العربية الفصحى ؛ ولهذا فهمنا جيدا ، لقد أمتعتنا كثيرا تلك المسرحية التى صورت أمامنا الحروب الصليبية بلحمها وشحمها .

سجين أفغاني بالقدس ٢٢ يوليو ١٩١١ م

كان صباح اليوم صباحا متعبا بسبب سهرى طوال الليل ، كان جسمي مثقلاً بالتعب ، بينما شواكيش الصداع تدق رأسى . دعانى الحاكم لحضور الاحتفال بعيد الدستور فى مقر الحكم ، وذلك فى تمام الساعة التاسعة، ولنر هل أستطيع الذهاب ؟!

جاء الشيخ إبراهيم أفندى ، فذهبت معه فى البداية لزيارة تكية حضرة بايزيد البسطامى المجاورة للتكية التى أقيم فيها . فى هذه التكية يوجد مزار لأحد شيوخ الأسرة ، ويقال إن لهذه التكية وقفا معقولا ، ينفقه من يتولى أمرها على نفسه ، ولا ينفق منه شيئا على التكية .

فى الساعة التاسعة ذهبت إلى مقر الحاكم ، تحتفل البلاد هذه الأيام بمناسبتين فى وقت واحد ، هما الاحتفال بليلة المعراج والاحتفال بيوم البرلمان ؛ وهكذا ازدانت الأسواق بالأعلام المرسوم عليها الهلال . أما بيت الحاكم فقد كان يموج بالحركة ، وتجمع الناس فى القاعة الفسيحة ، وبدأ الخطيب يدعو بينما الجموع تردد وراءه آمين ! بعدها ألقى الحاكم خطابًا ، وانتهى الاحتفال بعزف النشيد القومى . ومن هنا ذهب الجميع إلى معسكر الجيش ، حيث شربوا العصائر والقهوة ، وتأخر الحاكم هنا قليلا ، ولهذا ذهبنا لمشاهدة جمعية الاتحاد والترقى ، وهناك أيضا أقيمت الأفراح .

عند العصر ذهبنا إلى السجن لمشاهدة السجين الأفغانى الذى أطلق نيران مسدسه على بعض الأمريكيين ، فبينما كان هذا الرجل يصلى تحت قبة الصخرة ، دخل بعض الأمريكيين من الرجال والنساء ، فسلم ومنعهم من المرور قائلا بأنهم لا يجب أن يمروا أمام المصلى ، فلم يستجب هؤلاء الناس لقوله ، بل قام المترجم النصرانى بتهديد الأفغانى ، مما أثار غضبه فأخرج مسدسه وأطلق نيرانه ، فجرح امرأتين ، بينما أصيب الآخرون بالذعر وفروا هاربين ، وقبض على الأفغانى . وقد قال السفير الأمريكى إن الأفغانى غير مذنب ، وإن الذنب ذنب الأمريكيين الذين ساروا أمامه وهو يصلى . وقد حكمت الحكومة التركية على هذا المسلم بالسجن تسع سنوات مع مراعاة مشاعر المحبة الإسلامية !! ومن الغريب أن هذا المسكين يحصل فى السجن على ثلاثة أرغفة جافة فقط ، ولا يعطى ملابس أو أى شىء آخر .

ورغم أن كل ما لدى الحكومة التركية سئ ، إلا أن حالة السجن أسوأ ما لديها ؛ فالسجناء لا يعملون شيئا ، فهم يجلسون طوال اليوم واضعين يدا على يد . ويسمح للسجناء بالتحدث مع أقاربهم ، ومقابلتهم داخل السجن ، ويمكن لأقاربهم أن يقدموا لهم جميع أنواع الطعام والملبس ، وهم بالفعل يقدمون لهم هذه الأشياء ، والمسكين الذى لا أقارب له يكون السجن بالنسبة له مثل جهنم ، وإلا فهو قطعة من الجنة . التقينا بذلك الأفغانى ، وهو فى الأربعين من عمره ، وهو من أهالى « تشارده » القريبة من كابول .

كان المسكين يبكى لأنهم حكموا عليه بالسجن تسع سنوات قائلا :

– عندى ثلاثة أطفال صغار مع أمهم العجوز ، من ذا الذى يستطيع أن يخبر زوجتى المسكينة التى تأمل فى عودتى بعد أداء مناسك الحج ؟ أحصل على ثلاثة أرغفة فقط ،لا يوجد لدى ما أفترشه أو ألتحفه أو حتى ما ألبسه . وبينما يأتى أقارب المسجونين فيقدمون لهم الطعام والشراب ، لا يأتينى أحد ؛ فأنا غريب فى هذه البلاد . ومدير السجن مسلم ، لكن الجميع هنا يفتقدون مشاعر الرحمة ، لا يتعاطف معى أحد على الإطلاق ، كان معى خمس جنيهات (أشرفى) فسلبونى إياها أيضا .

فقلت له :

– لا تقلق يا أخى ، مسلمو الهند هم أقاربك ، لا داعى للشكوى من ظلم الأتراك ، واعتمد على الله . إن ما فعلته إنما كان بسبب محبتك لدينك وحماسك له ، هذه معاناة أيام ، بعدها ستجد الراحة الدائمة . إذا أعطيناك شيئا فهل يبقى لديك أو إنهم سيسلبونك إياه ؟

فقال :

– لا . . لن يأخذ أحد منى شيئا ، إن أردتم مساعدتى فلا ترددوا .

بعد أن سمعت كلامه رجعت إلى التكية ، وذكرت الأمر لجماعة الهنود ، يا للسعادة ! قام كل أخ هندى بإعطائى ما تجود به

نفسه على قدر استطاعته . وكان من بين ما قدموه لى ملابس ونقود ، وقد قام حافظ عبد القادر نكينوى بإعطائى « تلفيحته » الثمينة ، بينما قدم الشيخ لى بعض الملابس وبعض النقود أيضا، وقدم التاجر حاجى عبد الكريم سليمان مبلغا معقولا من المال ، وكذلك فعل إمام الدين الخياط البنجابى . وقدم أحد الفقراء المسلمين بعض الملابس ، وقدم كاتب السطور بالإضافة إلى مبلغ من المال بطانية كان قد أعطانى إياها هدية وقت سفرى صديقى العزيز حبيب الله خان الجالندهرى ، وكان اسم هذا السجين الأفغانى أيضا حبيب الله ، وكأن حبيب الله الجالندهرى أرسل عن طريقى هذه الهدية إلى حبيب الله الأفغانى !!

ذهبت لتسليم جميع هذه الأشياء إلى الأفغانى حين كان معى عضوان من الجمعية الأمريكية ، فقام هذان النصرانيان الطيبان بإعطاء الأفغانى ما جادت به نفساهما ، فعبرا عن خشيتهما لله ، وتفوقا بذلك على الأتراك المسلمين .

وقد وعد هذان الأمريكيان بأن يكتبوا للحكومة التركية عن طريق السفير الأمريكى ؛ حتى يعطفوا على هذا المسكين ؛ لأن الجماعة التى أخطأت كانت من الأمريكيين ، كما أن هذه الجماعة لم ترفع من قبل دعوى ضد الأفغانى ، كما أنها لا تقيم دعوى ضده الآن ، بل طلبت العفو عنه وتبرئة ساحته .

ذهبت إلى المسجد الأقصى بعد المغرب ، فى الطريق شاهدت الأنوار تتلألأ هنا وهناك ، بينما كانت الموسيقى تعزف عند المبانى

الحكومية . وفى بعض الأمـاكن كـنت أشاهد الألعاب النارية ، لكنى لا أرى الليلة ذلك الفرح العام الـذى يشاهد عادة فى الهند . لا أدرى لماذا لاتتـأثر قلوب هؤلاء الناس بهذا الفـرح والسرور الذى توفـر لهم بشكل طبيعى ، أقصد بوجود الأرض المقدسة لمعراج رسول الله ﷺ .

كان خطيب المسجـد الأقصى يشرح واقعة المعراج ، كـما تحدث المفتى عن قبة الصخرة حيث عرج رسول الله ﷺ إلى السماء ، وقد استمعنا إلى الحديث عن قبة الصخرة . كان المفتى يعتلى المنبر ، بينما كان المنشدون على درجـات السلم السفلية ، كان المفتى يتـحدث قليلا ثم يسكت ، فيقوم هؤلاء المنشدون بإنشـاد قصائد المدح النبوى . كان المشـهد فى غـاية التأثيـر ، لكن جلوس المفتى فـوق المنبـر ، ووقوف المنشدين يـنشدون وهم فى درجة أدنى منه يتـنافى مع أصول الأدب . وقد وضع أمـام المنبر عرش شـرفه بالجلوس الحاكم والقـاضى ، وقد أصـر الحاكم على أن يجلسنى بـجواره على هذا العـرش ، لكن هذا التـميز لم يـعجبنـى . وقبل النهـاية طلبت من الحاكم أن يسـمح لنا بالتحدث علـى هذا المنبر الخاص عن المعراج ؛ حتى يفـخر أهل الهند أن ذكر رسول الله قد ورد هنا تحت قبة الصخر بلغتهم ، فوافق الحاكم على ذلك بسرور . فطلبت من منشى عبد اللطيف « الرتلامى » الذى ورد ذكره من قـبل - وكنت قد ادخرته مـن قبل لهذه المناسـبة - أن يصعد إلى المنبر ، فـقام منشى عبد اللطيف - الذى سألقبه فـيما بعد بلقب « ميان صاحب » - بإنشاد قصيدة فى مدح الرسول ﷺ باللغة الأردية . وإنشاده فى الأصـل مـؤثر للـغايـة ، وها هو قـد وجد فرصـته

بهذه المناسبة الخاصة ، فصدح بصوت جميل فى جميع الجوانب . وتمتع الحاضرون العرب كثيرا رغم عدم معرفتهم باللغة ، وفى النهاية امتدح الحاكم اللغة وطريقة الإنشاد ، وقال :

- إن اللغة الأردية تشبه كثيرا اللغة التركية .

مهما تدلل محبو اللغة الأردية على هذه الواقعة فدلالهم قليل ، ولهم أن يقدروا إلى أى درجة وصل معراج لغتهم الأردية المحبوبة فى ليلة المعراج . الحمد لله انتهى الحفل فى الساعة العاشرة ، وأغلقت أبواب الحرم . ورجعنا هذه الليلة ونحن نفكر لدرجة أننا ظللنا الليل بطوله فى يقظة لا ننام ، لكن مشايخ الحرم غطوا فى نوم عميق ،فقد أغلقوا عيونهم بعد أن أغلقوا أبواب الحرم بسرعة ، ولا أدرى كم من الأمانى تتلاشى بهذا النوم المبكر ، وكم من الحظوظ تتبخر . لم تكن الأنوار كثيرة ، كان ضوء المصابيح التى تعمل بزيت الزيتون خافتا ، أو كان هناك عدد قليل من الشموع المضاءة داخل فوانيس . بالأمس كنت قد سألت أحد خدام الحرم عن عدم تنظيف هذه الفوانيس وتركها هكذا ، فقال : لقد قدمنا طلبًا للحكومة بوجوب تنظيف الفوانيس وقبة الصخرة بمناسبة قرب الاحتفال بليلة المعراج ، فإذا ما صدرت الموافقة قمنا بتنظيفها . سبحان الله !! حكم الحاكم على المحكوم !! حفظنا الله من طاعة أمثال هؤلاء !!

رجعت إلى التكية ، وهناك صدحت أصوات المنشدين فى مدح رسول الله ﷺ ، وذلك فضل الله تعالى .

الرحيل من القدس - ٢٣ يوليو ١٩١١ م

اليوم يوم الرحيل ، قدم الناس منذ الصباح للقائنا ، وكان من بينهم شخص جاء لأول مرة يدعى عبد السلام أفندى ، رجل عجوز مصاب بالجذام ، يتقلد منصبا حكوميا فى مصلحة ما ، وهو نفسه عبد السلام أفندى الذى امتدحه كثيرا مولانا شبلى فى « رحلته » ، والذى كتب ابن عمه شاكر أفندى حكاية تقطع القلوب . وقد قمت بترجمة ما كتبه مولانا شبلى بالأردية إلى اللغة العربية ، ففرح عبد السلام أفندى كثيرا بسماع ما كتبه مولانا شبلى عنه ، وظل يمتدح مولانا شبلى كثيرا .

فى الساعة التاسعة دعانى الحاكم ؛ حتى نرى نقب (سرداب) مسجد سليمان عليه السلام ، وحتى تؤخذ لى صورة عند فتحة النقب (السرداب) . وقد حضر اليوم جميع مشايخ القدس وأعيانها ، والمسجد مغلق منذ حادث النقب . وهو المكان الذى يطلق عليه العالم النصرانى اسم هيكل سليمان ، ويقول المسلمون إن الجن هم الذين شيدوه ، وهو موجود الآن فى المنطقة المطمورة من الناحية الشرقية لمبنى المسجد الأقصى الحالى ، أى أن المسجد الأقصى يقع فوقه ، والذهاب إليه يستلزم النزول فوق سلم طويل . وسطح المسجد تابوتى الشكل ، وهو على قدر من الارتفاع يثير حيرة الجيل القادم من الصناع ، والأحجار الضخمة موضوعة بشكل يجعل

الإنســان يفكر رغــما عنه فى أنــه إن لم يكن قد بنــاه الجن فإن أناســا يتمتــعون بقوة خــارقة وبراعة فى فـــن المعمار قد قامــوا فعلا ببنائه . وقـد ثبتـت حلــقات فى أماكن مخــتلفة فى الجدران ، يقــال إنها من فعل الجن .

هناك علامات على النقب (السرداب) فى أماكن متعددة ، لكن فتحة السرداب واحدة فقط .

حين تفحصنا فتحة السرداب وجدنا أنه عميق جدا من الداخل ، كما أن عنق السرداب صغيــر جدا بشكل يجعل الدخول إلى السرداب أمــرا صعــبا ، كــما أنه يثــير الخــوف فى النفوس ؛ لأن الغــار مظلم وموحش . ورغم هذا سميت الله وخلعت العمامة ، ورقدت ودخلت من فتــحة السرداب زاحــفا على بطنى ، بينما كــان الناس فى الخارج يمسكون بــيــدى ، وأنا أحــاول أن أتحــســس الأرض بقـــدمى داخل الســرداب دون جــدوى ، مما يدل على عــمق السرداب . وبصــعــوبة شديدة جدا تمكنت من تثبيت قــدمى ، وأخذت شمعة وتقدمت داخل السرداب ، ثم دخل الشــيخ محمــود أفندى خادم الحرم بعدى حــاملا شمعة أيضا .

والغار من الداخل واسع جدا ، يبلغ طوله خمــسة أقدام تقريبا ، بينما يخــتلف عرضه فــأحيانا يضــيق وأحيانا يتــسع . ونظرا للرطوبة والبرودة فقد بدأ الألم يصيب يدى وقدمى .

بدأت أتفحص الغار من أوله إلى آخـره بهدوء وطمأنينة . وحالة هذا الغار خـربة ،وهو شيء لا يصدق وجوده داخل جبل ، كـما أن الأحجار المبعثرة من فوق ومن تحت لا يمكن أن تجعلنا نعتقد بأن أمتعة أو أشياء معينة قد وضـعت هنا ، فهذا المكان ليس من فعل أحد ، بل هو غار تكون بطريقـة طبيعـية . قد يكون - والله أعلم - وضع فـيه بعض الصفـائح على أيام سليمان عليـه السلام ، ولهذا يعتـقد أنه لم يسرق أى شيء من هنا أيضا .

وإذا كان الأوائل قد وضعـوا هنا فى مثل هذه الحفرة - عن طيب خاطر - بعض الآثار القيمة فيمكن أن تكون قـصة السرقة صحيحة ؛ لأننى تفـحصت بـاطمئنان شـديد هذا النقب (السـرداب) . وهكذا وجدت هنا غطاء بعض زجـاجات الخمـر ، وقد وضعـتها فى جـيبى وحملتـهـا معى ، وربما أخـذ السارقـون يشربون الخمر بـسـبب شدة البرد وهم يـبحثـون عن المال . وبالقرب من مـدخل السرداب كـتبت بعض الأسماء باستخـدام الدخان المنبعث من الشمع ، كان هناك اسم فرنسى أو اسم مـكتوب بحروف شـبيهـة بحروف اللغـة الفرنسـية لم أستطع قــراءتهـا ، وهذا الاسم مـكتـوب فى زاويـة عنـد مـدخل السرداب . وهناك اسم آخر بعده بقليل ، أول حروفه هو حرف C ، وبعده اسم مكتـوب بحـروف عربية (كامل حـسين ١٣٢٩ هجرية) ولا أدرى مـن هو كـامل حسين هذا ، وهل هذا اسـمه الأصلى أم إن شخصا ما كتب اسما مستعارا .

كانت هناك صعوبة شديدة أيضا عند الخروج من السرداب ، وقد سحبنى الناس إلى الخارج بصعوبة ما بعدها صعوبة . كان المصور الأمريكى مستعدا لالتقاط الصورة ، فأوقفونى عند ناحية من فتحة السرداب ، بينما وقف الحاكم فى ناحية أخرى ، وجاء جميع مشايخ الحرم ووقفوا أيضا ، بينما أوقفت الشيخ عبد القادر شيخ التكية الهندية بجوارى ، ووقف بقية الإخوة الهنود مثل التاجر حاجى عبد الكريم سليمان (بمباى) وإمام الدين الإمرتسرى وعبد القادر نكينوى ضمن جماعة الحاكم . وتم التقاط الصورة عن طريق « الفلاش » ، ثم التقطت لنا صورة أخرى عند المكان الذى تربى فيه المسيح عليه السلام ، ويوجد داخل هذا المسجد ، ووقفت بجوار الحاكم .

وعند الوداع تبادلت البطاقات مع الحاكم ، وشكرته بألفاظ بسيطة .

قبل العودة إلى التكية وقفت وسط حرم القدس وتوجهت بالدعاء إلى الله .

« الوداع أيتها الأرض الطاهرة المباركة ! من جاء سوف يذهب ، وأنت أيضا جئت من عدم ومآلك الذهاب ، والقادمون مكتوب عليهم الذهاب ، إلى متى ستظلين أيتها الأرض قابعة فى أحضان الجبال ؟ »

« يا إلهى يا قدير ! يا إلـهى يا صاحب الفضل والكرم ! عبدك العاجز يودع القدس ، ربما لن ترى عيونى هذا المنظر المفرح الذى يسر

القلب ، أدعوك يا إلهى الخير لبيتك ولبيتى ولعبيدك ولجميع أحبائى وأصدقائى وشيوخى ، ولمن تحب وترضى ولمن أدعو لهم بالخير منك يا إلهى ، آمين » .

رجعت إلى التكية ، فمنحت الشيخ عبد القادر شيخ التكية « إجازة الطريقة الجشتية » بناء على رغبته .

هنا فى القدس لا يوجد شيخ جشتى واحد ، وخاصة أنه من الضرورى أن يوجد شيخ جشتى على الأقل فى تكية الجشتيين ، ولهذا أجزت للشيخ عبد القادر أن يأخذ البيعة من الناس للدخول فى الطريقة الجشتية .

وصلنا إلى محطة القطار ، ورغم أننى منعت جميع الأحباب من المجىء إلى المحطة ؛ لأنى لا أميل بطبعى هذه الأيام إلى أن أُستقبل أو أُودع ،لكن كيف لأهل القدس أن يوافقونى على هذا ؟ لقد تجمع المسلمون والنصارى جميعا ، فعبروا عن كرمهم وحفاوتهم بالضيف واهتمامهم الشديد بالزائر والمسافر . كنت أنوى النزول فى « الرملة » إلا أننى لم أتمكن من ذلك نظرا لضيق الوقت ، لكن منشى عبد اللطيف وعرف ميان كانا قد ذهبا إلى الرملة بالقطار الصباحى . وعند العصر مر قطارنا بالرملة ، فوجدناهما على المحطة ، وقد سجلا مذكرات زيارتهما للرملة ، وسوف أدرجها فى أماكن الزيارة الخاصة بالرحلة .

في يافا كان الحاج درويش موجودا على المحطة ، فذهبنا معه إلى « لوكاندة » . والحجاج في معظمهم لا يفضلون الإقامة في « اللوكاندات » ، والدلالون من أمثال الحاج درويش عندهم الكثير من البيوت التى لا يوجد فيها نظافة ولا أسرة ،ومع هذا يقيم الحجاج فيها . وقد دهش هؤلاء الدلالون بعد أن حسبونى حاجا ، وقد داروا بى وسط حوارى عفنة ، يعرضون علىّ بعض البيوت ، وفى النهاية حين عنفتهم بشدة قائلا إننى لا أريد أن أقيم فى مثل هذه البيوت القذرة ، أخذونى إلى فندق نظيف .

أخذونى بصعوبة إلى لوكاندة أحد النصارى ، وهى لوكاندة نظيفة مرتبة ، والأجرة فيها عشر آنات يوميا ، وهى قريبة من المسجد الجامع . وقد قضيت الليل متعبا بسبب الإرهاق .

فى يافا مرة أخرى - ٢٤ يوليو ١٩١١ م

استيقظت فى الصباح الباكر ، فكان أول ما فعلت هو الذهاب إلى القنصل الإنجليزى ؛ لأننى سمعت خبرا فى الليل يفيد بأن المسافرين القادمين من دمشق وبيروت ،ويريدون الذهاب إلى بور سعيد - تنزلهم الحكومة التركية جبرا فى يافا ، ولا تسمح لهم بالذهاب إلى بور سعيد ، فأقلقنى هذا الخبر السيئ طوال الليل . يا إلهى إن أهل وطنى صاروا أذلة ضعفاء ، فكل رجل أبيض يريد أن يركلهم هنا وهناك ، فالأتراك تعلموا من قبل أسلوب الحكم ، ثم بدأوا بعد ذلك فى إيذائنا .

لم يحضر القنصل الإنجليزى إلى مكتبه بسبب المرض ، فطمأننى نائبه وقال بأنهم أرسلوا برقيات إلى إستنبول وغيرها يشجبون فيه هذا الإجراء الظالم ، وقال بأنه يأمل فى أن يصله قرار مناسب عن هذا الأمر .

ذهبت من القنصلية لزيارة ضريح حضرة على بن حليم رضى الله عنه ، ومزاره يبعد عن يافا مسافة ثلاث ساعات بالعربات التى تجرها الخيول ، لكن الطريق من السوء لدرجة أننى أحسب المشى أفضل ألف مرة من الركوب . وهناك طريق آخر وهو طريق بحرى يستخدمون فيه المراكب ، لكنه أيضا محفوف بالمخاطر ، فبحر يافا تتلاطم أمواجه كل حين !

ولما كان مزار حضرة على بن حليم قد نال شهرة كبيرة فى هذه المنطقة ، فهم يقولون بأن الدعاء عند المزار يجد القبول من عند الله ، ويظل الدعاء مستجابا جيلا بعد جيل لسبعة أجيال ؛ فقد كان لهذا أثره فى جذب جماعتنا ، فأعلنت الجماعة عن استعدادها للذهاب . بعدحساب أجرة السفر أخذنا مركبا ، وكنا عشرة ، وفى النهاية حدث ما كنا نخشاه ، فقد كان موج البحر هائجا بشكل لا يمكن تصوره . . الأمان يا إلهى ! وباستثناء العبد الفقير وميان وأحمد ساكن بمباى بدأ الجميع يعانون من القىء والاضطراب . والشكر لله فبدلا من أن أعانى من الدوران والتعب تمتعت كثيرا بالاهتزاز والتأرجح فوق سطح الماء ، وزاد الأمر عجبا أن بدأ ميان فى إنشاد قصائد المديح النبوى .وقد

وصلنا إلى المزار خلال نصف ساعة ، يوجد سوق صغير على الشاطئ ، وهو مورد للبطيخ ، فقد جمعوا فيه مئات الآلاف من البطيخ من جميع الأنحاء ، وسوف يصدرونه بالسفن إلى يافا ومصر (القاهرة) والإسكندرية ، وهذه تجارة طيبة . حين وصل مركبنا إلى الشاطئ طالعنا منظرًا فى منتهى قلة الحياء ، عشرات من الأولاد الشباب يستحمون عرايا تماما ، وحين نزلنا على الشاطئ خرج هؤلاء من الماء كالوحوش وتجمعوا حولنا . كان هجومهم يبعث على الخجل ؛ فقد كان معنا نساء . وفى النهاية تفضل أحد العرب العقلاء بإبعاد هؤلاء « الحيوانات » عن طريقنا .

لا تزال صحراء العرب حتى اليوم فى بلاء تعيش ظلام أيام الجاهلية . ومزار حضرة على بن حليم يقع على قمة جبل عال ، لهذا صعدنا إليه ، صلينا الظهر ، وجلسنا لفترة طويلة بجوار المزار ، وهذا المزار لا توجد له قبة ، وهو مزار مفتوح غير مسقوف . وحضرة على بن حليم من نسل عمر الفاروق ، ربما الجيل الرابع أو الخامس ، والمزار فى الواقع مؤثر ، اطمأن القلب كثيرا وسعد بوجودى عند المزار .

وعند العودة تعرض الجميع ثانية للدوار باستثناء العبد الفقير وميان ، وظل هؤلاء يعانون طول الليل من جراء ما أصابهم من تعب الدوار .

السفينة النمساوية انكرا - ٢٥ يوليو ١٩١١ م

قضيت طول الوقت فى الفندق ، وعند الظهر ركبت السفينة المتجهة إلى بيروت ، وهنا فارقت حافظ عبد القادر نكينوى ، فقد كان عائدا إلى عدن .

ركبت السفينة النمساوية « الكرا » ، وكانت أجرة الدرجة الثالثة حتى بيروت جنيها أشرفيا وربع الجنيه ، أقلعت السفينة عند المغرب ، بعد المغرب نهضت لقضاء حاجتى فلم أجد حذائى ، فبحثت حولى فلم أجده ، وبحث الزملاء فى أمتعتهم . كان كل شيء على ما يرام ، لكن البيض الذى اشتراه التاجر حاجى عبد الكريم سليمان لينفعنا فى الطريق سُرق . تشاورنا فى الأمر وعرفنا أن ما حدث كان بفعل خدم السفينة ، فوجب علينا أن نظل منتبهين طوال الليل ، واتفقنا على أن يظل واحد منا مستيقظا ، كل فى دوره . وفى آخر الليل عاد اللص ثانية ، وقطع جيوب العديد من المسافرين ، وسرق كثيرا من الأمتعة . وبينما كان يمزق جوال بطيخ استيقظ ميان وظل يصيح ويصرخ بصوت عال وهو يجرى خلف اللص يحاول القبض عليه ، ونظرنا فإذا به أحد الحراس الأوربيين . استيقظ جميع المسافرين ، بينما فر هذا الحارس الأوربى ، فى ذلك الوقت وضع إمام الدين الإمرتسرى يده فى جيبه ، ثم قال : لقد سرقت النقود من جيبى . وعلى سطح السفينة كان هناك مسافر عربى يبكى ؛ فقد قطع اللص جيبه وسرق ستة جنيهات (أشرفى) ، وأرانا جيبه المقطوع .

حيفا - ٢٦ يوليو ١٩١١ م

بعد هذا الهياج حملنا جميع الشكاوى ، وذهبنا إلى القبطان فى الصباح ، وقصصنا عليه كل ما حدث ، لكنه ظل يتملص ويتهرب قائلا : لسنا بمسئولين عن الدرجة الثالثة. وحاولت بشتى الطرق إفهامه ، لكن النمساوى المغرور رفض رفضا قاطعا إجراء التحقيقات المطلوبة . أريد أن أعرض الأمر على القنصل الإنجليزى حين أصل إلى بيروت ؛ فالإنجليز يحمون رعاياهم جيدا فى تلك البلاد ، لدرجة أنهم يدفعون لمن ليس معه نفقات السفر أجرة السفر والنفقات وغير ذلك .

توقفت السفينة صباح اليوم فى حيفا ، فنزلنا لمشاهدة المدينة ، وهى مدينة متواضعة المبانى ، شيدت فيها مكاتب سكة حديد الحجاز ، فذهبنا لمشاهدة هذه المكاتب واشترينا الطعام ورجعنا إلى السفينة . يوجد هنا أيضا مسجد جامع ، قام بإصلاحه وترميمه السلطان عبد الحميد خان ، وقد أزيل اسم السلطان المذكور من اللوحة المثبتة على المسجد . كانت هذه أول فرصة بالنسبة لى أن ألتقى بعربى هو فى الغالب من شرفاء حيفا الممتازين ، وحين سألته عن هذا الموضوع قال بلهجة غاضبة : هذا من عمل برلماننا الحر ، الذى لا يريد أن يكتب اسم السطان عبد الحميد فى أى مكان ، فقلت : هل يعجبكم عبد الحميد خان ؟ فقال : يعجبنا ! نحن نذرف الدموع من أجله ، لو

سُمح لنا أن نبكى فلن تتوقف دموعنا عن البكاء ، إن قلوبنا تحب هذا الرجل الطيب من الأعماق .

حيفا قريبة من عكا حيث يعتقل عبد البهاء أفندى زعيم الفرقة البابية ، وتصل إليها العربة « الحنطور » فى ساعتين ، والطريق غير معبد .

دخلنا بيروت فى المساء وبالتحديد بعد المغرب ، ولم أكد أنزل من السفنية حتى شاهدت مستر أنوار الحق واقفًا فى استقبالى ، وهو نجل خان بهادر مولوى عبد الحامد فى بلدية دهلى . وقد قام أخواه الأكبر منه عبد الستار وعبد الجبار بتأسيس مدرسة « دار العلوم » فى بيروت ، تدرس فيها العلوم بالعربية والإنجليزية .

حين وصلنا إلى الشاطئ بدأت الشرطة تضايقنا وتأمرنا بضرورة الذهاب إلى القرنطينة . لقد أقمنا فى القدس أكثر من عشرين يوما ، ولا يجب أن نخضع للحجر الصحى طبقا للقانون ، لكن الشرطة تسلك سلوكا لا رحمة فيه . وقد ضايقونا مضايقة شديدة مدة ساعتين ، احفظنا يا إلهى من شرهم ؛ فالليل مظلم ، ومعنا أطفال ونساء . بينما الشرطة تسوقنا إلى بيت الطبيب المجهول ، لم يكن يسمح لأحد منا بالركوب فى العربة ، وصلنا إلى الطبيب الفرنسى فى الساعة الحادية عشرة ليلا ، فأفرج عنا هذا الرجل الطيب . وكان هذا العمل الشرير الذى قامت به الشرطة يهدف إلى

الحصول على الرشوة . وفى الساعة الثانية عشرة وصلنا إلى الفندق ، بطوننا خاوية ، وحلوقنا جافة .

٢٧ يوليو ١٩١١ م

ذهبنا فى الصباح المبكر إلى القنصل الإنجليزى ، فحكينا له حكاية السرقة التى تعرض لها إمام الدين ، فأظهر تعاطفه معنا ، ووعد بأن يتكفل بنفقات سفر إمام الدين إلى مصر ، بعدها ظل يسألنا عن أحوال مسلمى الهند .

رجعنا من القنصلية ، ثم ذهبنا لأداء صلاة الجمعة . وفى المسجد الجامع يوجد مزار دفنت فيه « يد يحيى عليه السلام » بالإضافة إلى « شعرة مباركة لرسول الله ﷺ » .

بعد صلاة الجمعة دعانا عبد الستار الخيرى الدهلوى إلى مدرسته « دار العلوم » ، كما دعا أيضا التاجر عبد الكريم مع زوجته . وزوجة عبد الستار جاءت من دهلى ، ولم تر امرأة هندية منذ فترة طويلة ، لهذا كانت فى غاية السرور حين التقت بزوجة التاجر عبد الكريم ، وهى تتجول هنا فى الأسواق لتشترى لوازمها ، وهى تضع البرقع على طريقة المرأة العربية هنا .

أخذنا عبد الستار للتجول فى الكلية السورية ، لكن الكلية فى عطلة هذه الأيام ، وهى جامعة بيروت الأمريكية الشهيرة . وما كتبه

مولانا شبلى عن أحوال هذه الجامعة غير صحيح ؛ فقد رأى كلية أخرى واعتقد أنها الكلية السورية ؛ لأن الوصف الذى ذكره للكلية السورية لا ينطبق على ما شاهدته هنا . فالكلية السورية تقع فى مكان واسع وفسيح ، ومبانيها مقامة على هضبة خضراء ، من تحتها البحر بأمواجه المضطربة ، وسوف أثبت وصف هذه الجامعة بالتفصيل فى الجزء الثانى من الرحلة[٤٧] .

تمتع الجميع كثيرا بالجلوس معها وتناول الطعام فى مبنى دار العلوم ، بعدها رجعنا إلى الفندق .

من بيروت إلى دمشق - ٢٨ يوليو ١٩١١ م

غادرنا بيروت فى الساعة السابعة والنصف صباحا ، ووصلنا عصرا إلى دمشق ، الطرق كلها طرق جبلية ، وهى مخضوضرة كأنها قطعة من الجنة . وتسمى هذه الجبال « لبنان » ، يسكن هنا النصارى بكثرة ، حيث يلاحظ تزايد النفوذ الفرنسى .

ماذا أقول عن سحر الجبال الممتدة من بيروت حتى دمشق ؟ وخاصة حين يمضى القطار صاعدا على التلال العالية فتبدو لنا خضرة الوديان والأخاديد وأوراق أشجار العنب بسيقانها المتداخلة كأنها بساط أخضر يتموج ، بينما قطع السحاب تحيط بنا من مسافة قريبة ، حتى يخيل للناظر أنها تلامس رؤوسنا ، بينما سطح البحر يمتد أمامنا

لأميال في منظر لا يشبع منه القلب أبدا . وها هي جبال الشام التي ورد ذكرها في التوراة والإنجيل والقرآن ، لقد شاهدت جبال « هرياله » في الهند ، وهي من العظمة بحيث يسبح الإنسان حين يراها بقدرة الخالق جل شأنه ، لكن الله تعالى قد أودع حسنه الخفي في جبال الشام ، فحتى ألوان الأشواك الجبلية وأشكالها تتراءى للعيون بشكل بديع ، وتدغدغ أحاسيس الناظر إليها ، ناهيك عن الأشجار والأوراق الخضراء !

أما روعة الجو واعتدال المناخ فحدث ولا حرج ، فحين دخل القطار هذه المنطقة تداخلت في العقل شتى العواطف والمشاعر . توقف القطار في مكان ، فقدم عشرات النسوة والأطفال مهرولين حاملين خبزا كبير الحجم مع الجبن والبيض المسلوق ، بينما حمل البعض في يده الجوز الأخضر المتشابك مثل العقد ، وحمل البعض سلالا امتلأت بالتفاح والمشمش والبرقوق والتين ، وفي دقائق معدودة كانت السلة تفرغ مما فيها من فاكهة ،يا إلهي ! هل نحن على الأرض أم في الجنة ؟! فالتفاح عندنا نشتريه ببيستين أو أربع بيسات ، لكن يمكننا هنا بهذه البيسات - أي ببيستين - أن نشترى ملء سلة من التفاح يزن ملؤها رطلا أو رطلين. أما عن الطعم فلا تسأل ! يميل لون التين إلى الخضرة ، وحجمه يصل إلى حجم التفاح ، وهو من الحلاوة بحيث لا يستطيع الإنسان أن يأكل أكثر من واحدة ، وقس على هذا جميع أنواع الفاكهة .ليت الأتراك يقومون بتنمية تجارة هذه الفاكهة ،

ويصدرونهـا بعد حـفظها بطريقة جـيدة إلى البلدان الأخـرى ؛ حتى يملأوا خزانة الدولة بملايين الروبيات من ناحيـة ، ويحققوا بذلك رخاء أهل البلاد ، ويبقى خير البلد لأهله من ناحية أخرى .

فوق هذه الجبال تنتشر القرى التى يسكنها النصارى عموما ، كما يسكن بعض المسلمين أيضا . يأتى إلى هذه المنطقة أثرياء الناس لقضاء فصل الصـيـف ، وقد بنـيت الفنادق الفخـمة بالقرب مـن محطات السكة الحديد .

توقف القطـار عند إحـدى المحطات ، فـقـدم بـعض الأطفـال والأولاد والبنات يطلبون بعض النقود ، قالت إحدى البنات :

- أعطنى شيئا صدقة وحياة النبى محمد . .

كم كانت حلاوة ذكر اسم المصطفى فـوق هذه الجبال الخضراء ، فتساءلت :

- أى قربان يمكن أن أقدمه من أجل اسم المصطفى ﷺ ؟!

كان صدى هذا التـساؤل يتردد أيضا فوق قمم الجبـال ، فحملت كل مـا فى جيـبى ووضعـته أمام الفـتاة . . انهـمرت دمـوع العين ، وانحـبس الصوت ، وكـان القلب يدق يهـتز داخل الصـدر . . رأت الفتاة هذا المشـهد فأخذت تدعو لى ، ثم أنشـدت بعض أشعار المديح النبوى ، وكأنها بذلك نثرت الملح على الجراح . فى ذلك الوقت قدم

أحـد الأولاد فطلب حسنة ، وكـان قد سـمع من الأطفال الآخـرين بالواقعـة ، فرجـانى هذا الظالم بحيـاة المصطفى ، ياله من ظلم وقع على كاهل هذا المسـافر ! كم آذتنى هذه الفتنة ! فـطلبت بعض النقود من التاجر حاجى عبد الكريم ، وسلمتها لهذا الولد ؛ لأن جيب العبد الفقير صار خاليا من النقود ، فقالت الفتاة وهى تشاهد ما حدث :

- يا حاج ! والله هذا نصرانى ، لماذا أعطيته ؟

فقلت :

- نصرانى جاهل اتركـيه . . ألم تسمعـيه يذكر اسم من ؟! اسم المصطفى ، ففى حضرة هذا الاسم يتساوى النصرانى واليهودى والمسلم ، فالقـربان من أجل هذا الاسم الذى يثلج الصدور ، والصـدقة من أجل هذا الاسم البـتّار ، والفـداء من أجل هذا الاسم الذى يسبب الجراح اللامرئية .

وصلنا إلى محطة دمشق عند العصر ، كان الحاج عبد الله الهندى الذى يعمل فى خـدمة وإرشاد المسافـرين الهنود فى استقـبالنا ، وهو يتخذ من ذلك حرفة له . يوجـد هنا أيضا تنافس - غير شديد - بين أصحاب الفنادق ، لكننا نزلنا فى لوكاندة « القدس الشريـف » لصاحبها سيـد درويش . وهو شاب حسن الخلق يقـابل الناس بصدر رحب ، يمتلك والده أحد الفنادق القديمة يـسمى « فندق المدينة المنورة » ، وقد قام هو بافتتاح هذا الفندق ، وسماه « فندق القدس الشريـف » .

فكرت فى أمر البريد بعد أن وصلت إلى دمشق ، فقال الحاج عبد الله الهندى : وصلت خطابات كثيرة باسم « حسن نظامى » ، فقام رجال البريد بإعطاء هذه الخطابات إلى أحد الإيرانيين يدعى أيضا « حسن نظامى » ، وظل التاجر الإيرانى يقول :

- هذه الخطابات لأحد الهنود ، ليست خطاباتى ، سوف أحتفظ بها على سبيل الأمانة ، فأخبرنى إذا وصل هنا شخص بهذا الاسم .

أصابنى هذا الأمر بالاضطراب ؛ فقد كنت فى شوق لمعرفة أحوال بلادى بعد انتظار طال لعدة أسابيع ، لكنى صدمت وحزنت ! ومع هذا فوجود سمى لى فى هذه المدينة بدّل غمى وحزنى ! فلم أفكر أبدا فى أن لى سميا يحمل نفس اسمى حتى فى الهند . وكنت قد قرأت فى طفولتى فى كتاب تاريخ فرشته عن مؤرخ اسمه حسن نظامى ، ولهذا اخترت هذا اللقب ، وغيرت اسمى من على حسن إلى حسن نظامى ، لكن ظهر لى سمىٌّ فى دمشق ، يحمل نفس اسمى !

قضيت تلك الليلة فى صمت ، وطلبت الطعام من أحد المطاعم خارج الفندق ، فأكلت ونمت .

فى دمشق - ٢٩ يوليو ١٩١١ م

استيقظت فى الصباح فكان أول ما فعلته هو الذهاب للحصول على الخطابات ، فمضيت مع الحاج عبد الله وسط حوارى دمشق . كانت الحوارى قذرة ، إلا أن بعضها ذكرنى بدهلى ! فنحن عادة نطالع نفس المنظر فى كل مكان من المدن القديمة . حين وصلنا إلى بيت التاجر الإيرانى وجدنا بابه كالحًا وكئيبًا ، فاعتقدت أن البيت من الداخل بيت صغير من النوع البسيط العادى ، لكن لم نكد ندخل من الباب حتى وجدنا قطعة من الجنة ، ورود وشجيرات ، ونافورة ينطلق منها الماء ، بينما أقدامنا تطأ أحجار المرمر ، وأعيننا مشدوهة بقنوات مرمرية تنساب فيها المياه . كان التاجر قد استقبلنا على الباب ، وقادنا إلى غرفة بداخل البيت ، حيث أجلسنا ورحب بنا ، كانت الغرفة تلمع بما فيها من زخارف « الموزايكو » على شكل التفاح . فى دمشق تنتشر زخارف « الموازيكو » على شكل التفاح ، والتحف بجميع أنواعها تصنع منذ قرون على شكل التفاح ، وذلك بقصد التجارة ، وهى تباع فى الأسواق .

قدم لنا التاجر الإيرانى الشاى الساخن الحلو ، وأنعم على بالخطابات المليحة ، كنت أنتظر سماع كلمات مضيفنا وأنا أتطلع بشوق إلى الخطابات أقلبها يمينا وشمالا . الوقار يقتضى أن أثبت أمام

الآخــرين خــاصــة من هم ليــسوا مــن وطنى ، إذن يجب أن أتصف بالوقار وأطالع هذه الخطابات فى الفندق . لكن الشــوق كان يقول إن الصــبــر محــال ، انظر ، اقــرأ مــا فى الخطابات ، لقــد وصلت هذه الخطابات من الهند بعد أن عبرت بحارا وجبالا . .

وفى النهــايــة مــضى الوقت بشكل أو بآخـــر ، وطأطأ الإيرانى المهذب رأســه ، ووضع يده على صدره ، وارتســمت الابتســامة على وجهه . أما الهندى فقد تشنجت رقــبته ، وتمتم بكلمات ، وارتسمت على شفتــيه ابتسامــة شكر وعرفان بالجمــيل ، وكان الوداع من خلال هذه المشاعر الودية .

جلست فى ركن من أركان الفندق بجوار نافذة مفتوحة ، أشاهد منها جــدولا جمــيلا وسط الشارع ، تنســاب فيه المــياه ، وهنا بدأت أستمع إلى كلام أهل الهند من خلال سطور الخطابات .

انـظروا ! ها هــو صــديـقى واحــدى يدعونى لــلعــودة ، يمنعــنى مــن إطالة الســفر ، ويــعبر بأسلــوب جــميل عن حــالته الــتى خلفــها هذا الانتظار .

طويت الخطابات ، وبدأت فى وضع برنامج التجول فى دمشق ، وكان مستشارى فى هذا الأمر الحاج عبد الله .

مرقد بلال رضي الله عنه

قررنا الذهاب أولا إلى مزارات الصحابة وآل البيت رضوان الله عليهم أجمعين ، فطلبنا عربتين ، ركبت فى واحدة منهما مع الحاج عبد الكريم سليمان وأهل أسرته ، ووصلنا إلى المقابر . فى بلدنا نشاهد مقابر الشيوخ البسطاء أفخم وأعظم من مقابر الملوك ، لكن الأمر هنا يختلف تماما ، فلا تسأل عن حال مزارات آل البيت والصحابة الكرام . ومع أن هناك بعض القباب على بعض المزارات ،لكن وضعها لا يتناسب مع المرقد ، كما أن المنظر المحيط بالمزارات وحالة روضة المزار من الداخل تثير فى القلب الألم والحزن . إن الهنود الذين شاهدوا طوال حياتهم مجالس الكر والفر فى أيام المحرم ، وأنفقوا الأموال عند أضرحة الأئمة باسم آل البيت وتصدقوا ، وأساءوا من ناحية أخرى إلى عظمة آل البيت ، هؤلاء لو جاءوا هنا لأصيبوا بصدمة شديدة ؛ فالمسلمون فى الشام سلكوا سلوكا مشينا جدا ومعيبًا مع هذه المزارات ، ولكنى أظن أن قلوبهم خلت من مشاعر تعظيم آل البيت ، تلك المشاعر التى تسود عندنا فى الهند .

إذا ما نظرنا إلى بيوت أهل الشام حسبناها قصورا من قصور الجنة ، لكن الشيوخ لا نصيب لهم من هذه البيوت الفخمة ؛ فقد جعل أهل الشام الأنانيون مزارات هؤلاء العظماء خرابات ، فمستواها لا يصل حتى إلى مستوى قبور المعدمين .

ليتنى أستطيع أن أحمل مزار حضرة بلال أو مزار أحد من آل البيت ، وأمضى به سرًا لأقيم له في الهند روضة من الذهب والفضة ، أرصعها بالجواهر والأحجار الكريمة ! !

توجد قبة صغيرة عند مزار حضرة بلال ، وعلى المزار غلاف نسجت فيه حروف آيات من الذكر الحكيم ، وعلى يمين المزار يوجد مزار سيدنا عبد الله بن جعفر الطيار ، وكأن المزارين يشهدان على المساواة الإسلامية بعد الموت أيضا ؛ فحضرة بلال يرقد بجانب أمير ذلك البيت الذى طالما أشار إلى أنه غلام من غلمانه .

بالإضافة إلى هذا المزار توجد عدة قبور منها قبر محمد لطيف والى الشام المتوفى سنة ١٣٠٧ هجرية ، وقبر السيدة سارة بنت حاجى شندين أغا المتوفاة سنة ١٣٠٣ هجرية ، وقبر حنفه بنت حسن الجزائرى المتوفاة ١٣١١ هجرية .

قال القلب بأن هذا مكان ذو مقام عال ، لماذا وجد أهل الدنيا هنا مكانا لهم ؟ لكن أحدا لم يرد على سؤالى ، إذا لم يبحث المذنبون عن ظل يستظلون به هنا فإلى أين يذهبون ؟!

انهمرت الدموع غزيرة حين وقع نظرى على مرقد بلال ،وبدأت رموش العين ترتعش ، بينما كانت سحابات الماء المالح تهتز أمام العين ثم تسقط . وتحركت اليد لتلمس قبر بلال محبوب أبيه ، فارتعدت

من جـراء ما أصـابها من مس كـهربائـى ، وارتجفت ، بينمـا تلجلج اللسـان ، وبدلا من قراءة الفاتحة قـرأت والضحى ، وتحيرت ! لماذا يا إلهى ؟! قرأت عدة أحزاب ثم بدأت فى الدعاء .

الدعاء عند مزار حضرة بلال

« انهض يا بـلال ! انهـض يا بلال ! خذنى إلى أبيك ! استيقظ يا بلال ! استـيقظ فقـد حان وقت الأذان ، سـوف أسحب غطاءك ، سوف أدغدغ قدميك ، سيصعب عليك أن تنام الآن ، افتح عينيك ، هنـاك واحـد من أحـفـادك يـناديك ، خـذ بيـده وأوصـله إلـى البـيت الذى انبعث منه نور الفجر ، فـأخذت ترفع صوتك : الصلاة الصـلاة يا رسـول الله . لقـد شـاهدت تلك الشـفـاه التى أمـرت بـلال بالأذان ، التى أمـرتك بجـمع الناس للـصلاة ، لقـد رأيـت تلك العـيـون التى كانت تتـطلع إلى وجهك بحب ، لقـد رأيـت ظهـر من كـان يقف أمامـك يـؤم المصـلين ، لقـد سـمـعت ذلك الصـوت الـذى اعـتـبرته أعلـى مـن أى صـوت أنت يا بـلال ! يا بلال ! يا بلال!

لقد قلت فى وجوده وحضوره « أشهد أن محمداً رسول الله » ، لقد تلذذت بهذه الشهادة ، فقـد كان معك ، والآن تختفى فى صمت وترقد هنا ، لا ، لا ، انهض وامسك بيدى !

يا سيـدى يا بلال ! يا مـولاى يا بلال ! أقبل الـقدم وأحمل تراب الحـذاء وأضـعه عـلى الرأس ، أضـعه فى عـينى ، أسمـعنى الأذان مـرة واحدة فـقط ، ارفع صوتك بالتـكبيـر ثم قل ما تشـاء ، وأسمعه أذنى ! »

جددت روضـة حضرة بلال سنة ٦٤٥ هجـرية ، وقد أثبت هذا التاريخ على بوابتها .

بالقرب من هذا المكان يوجد مزار الأمير معاوية المعروف ، وعليه قبـة صغيرة قـام بترميـمها الحاج مـحمد باشـا سنة ١١٩٥ هجرية . ووسـط هذه المقـابر يوجـد أيضا مـزار الصحـابى جليل القدرحـضرة كعب . يشاهد فى هذه القبة سقم عـجيب وصمت مشوب باليأس ؛ فهنـا مـزار حضـرة مـعـاوية الذى سحب سـيفـه فى واقعـة صفين ، ووقف فى مواجهة سيدنا حضـرة على ، حضرة معاوية الذى دبر أمر البيعة ليزيد .

على كل حال يجب التأدب مع جمـيع المسلمين السنة ؛ فهو فى النهاية من صـحابة رسول الله ﷺ ، وعلى كل حـال فهذه الجـبانة جبانة عظيمة ، ومن رأى جـبانة « قدم شريف » فى دهلى لا يصعب عليه تخيلها أمامه هنا ؛ لأنها هى بعينها ما أراه أمامى .

كان لى نصيب فى زيارة مزارات بعض آل البيت ،فزرت مزارات حضرة زينب وحضرة فاطمة الصغيرة وغيرهما ، ولكن هناك اختلاف

فى نسبة هذه المزارات إلى أصحابها ، فالبعض يقول بأن مزارات آل البيت فى المدينة المنورة . وعلى كل حال فالمظهر الخارجى لهذه المزارات غير طيب ؛ إذ إن عمارتها خربة .

قبر يزيد

بالقرب من هذه المقبرة يوجد مسجد حضرة أبى عبيدة بن الجراح القديم ، الذى بناه تخليدا لذكرى فتح دمشق ، وبالقرب منه وعلى ناصية الطريق شاهدت كومة من الحجارة . وحين وصلت إلى المكان وجدت عربيا يقف هناك ، يلقى بالحجارة وعلى وجهه علامات الغضب والكراهية ، وحين استفسرت عن الأمر عرفت أن هذا قبر يزيد ، لم يبق له أثر ؛ فالناس يلقون بالحجارة فى كل وقت .

بعض العبارات هنا أيضا

لقد رأيت ما قدره الرب ، ووجدت ما يُخشى لكنك لم تخشَ . . أنت عبرة للظلم البشرى ، أنت نصيحة للطامعين فى متاع الدنيا ، اللعنة على عملك ، لكن عزة نسبك وعزة قبيلتك فى قلوبنا كامنة ، فليغفر لك الله ، وليرحمك الله ؛ فقد نلت فى الدنيا من الناس جزاء ما فعلت .

عدت من هذا المكان إلى الفندق مباشرة ، وهناك وجدت تاجر أقمشة يجلس يعرض بعض الأقمشة الشامية . . شاب . . لص ،

سألته عن اسمه فقال : رزق الله ، فقلت له : هل أنت مسلم ؟ فقال : الحمد لله ، فتحدثنا فترة طويلة عن البرلمان التركى . كان هذا أول مسلم عربى يثنى على البرلمان التركى بشكل خلط فيه ما بين السماء والأرض !

جاء بأقمشة جيدة ، أعجب صديقنا التاجر بطاق من القماش لكنه أجل الشراء حتى نذهب إلى محل الملابس .

وحين ذهب الشاب قال صاحب الفندق إنه نصرانى مرتد ، دينه وإيمانه القرش فقط ، فتعجب صديقنا التاجر كثيرا ، ولم يرغب فى أن يشترى منه القماش ، واشترى من محل أحد التجار المسلمين . ومع أن المسلمين هنا أيضا يضطرون إلى رفع أسعارهم قليلا بسبب عمولة الدلالين إلا أننا كنا فى غاية السرور ؛ لأن أموالنا ذهبت إلى المسلمين ،وقد اشتريت أنا أيضا عدة عباءات .

لم أتمتع بالنوم الليلة أيضا ؛ فالبرد هنا شديد ، واضطررت إلى أن ألتف باللحاف ، يجب الاحتياط لأن البرد يشتد أكثر فى نهاية يوليو ، هذا شأن الله .

٣٠ يوليو ١٩١١ م

فى الصباح ذهبت إلى الحمام بصحبة الحاج عبد الله الهندى ، وهو حمام الحاج عبد الغنى كُبب فى سوق الخياطين . كان الحمام

نظيفا رائعا ، فيه جميع اللوازم التى كانت على أعلى مستوى . والعاملون فيه جميعهم بلا استثناء مهذبون ومجتهدون ، من يزور الشام لابد أن يأتى ليستحم فى هذا الحمام ؛ فهو مكان طيب .

مزار حضرة ابن عربى

بعد الانتهاء من الحمام وتناول الطعام فى الفندق ، تحركت القافلة كلها لزيارة مزار حضرة محى الدين ابن عربى .

وهذا المزار يقع فى ركن بأطراف المدينة، وهو منخفض عن مستوى العمران ، لهذا بدأنا ننزل على السلالم . وعلى الجدار شاهدت بيتا من الشعر محفوراً على الحجارة ، يقولون إن فيه سراً من الأسرار ! ينظر الناس إليه بإمعان ، يقفون أمامه ويفكرون فى معناه . وبيت الشعر هو :

فلكل واحد يسمو به وأنا لباقى العصر ذاك الواحد

وقد قمت أنا أيضا بفهم معناه طبقا لما ورد فى ذهنى ، وفى نفس اليوم كتبت لصديقى واحدى ، ولأن ذلك ليس من قبيل الفائدة العامة لهذا فمن العبث أن أكتب هنا ما حدث .

حول المزار سياج من النحاس الأصفر ، أمر بإقامته مصطفى باشا سنة ١٢٤٠ هجرية ، وبجانب المزار يوجد مزار ابنه سعيد الدين وابنه

الثانى عماد الدين . وفى الناحية الشمالية توجد أربعة قبور ، منها ثلاثة قبور لأمراء غير معروفين ، أما الرابع فهو قبر الأمير الشجاع عبد القادر الجزائرى الذى طبقت شهرته الآفاق ، والذى حارب فرنسا فى تونس والجزائر ، فأضاء الدنيا بنور الشجاعة الإسلامية .

كان مزار حضرة محى الدين فى البداية غير معروف ، وقد تنبأ هو بذلك فقال : « إذا دخل السين فى الشين ظهر قبر محى الدين » . ولم يكن الناس يفهمون معنى هذه العبارة حتى اختفت روضته مع مرور الأيام . لكن حين فتح السلطان سليم التركى بلاد الشام ، يعنى سين (سليم) دخل فى (شين) الشام ، وأراد أن يحفر أساس مبنى عند مكان مقبرته ، عندئذ خرجت لوحة المزار ، وكان مكتوبًا عليها ما يلى :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بالمهتدين ». هذا القبر للعبد الفقر إلى الله محمد بن على بن محمد بن أحمد ابن العربى الطائى الحاتمى - توفى سحر ليلة الجمعة ، ثانى وعشرين ربيع الآخر سنة ٦٣٨ هجريًا ».

وحين رأى السلطان هذا اللوح وما كتب عليه شيد ضريحا ، وأخرج القبر من بين الطين والتراب ، ولا تزال اللوحة موجودة حتى الآن .

والشخص الذى أخبرنى بالقصة قال إن مع تلك النبوءة نبوءة أخرى ، وهى :

« إذا جرت سكة الحديد ، ظهر دين جديد » .

الدعاء عند مزار حضرة ابن العربى

برزخ الأسرار اللاهوتية ! ومرآة الجمال الملكوتى ! ومظهر الكمال الجبروتى ! عين الهاهوت فى جسد الناهوت .

ذلك الذى كانت ذاته قبل الكل ، ذلك الذى كشف القناع عن الرموز المخفية ، ثم ظل فى بطن الخفاء ، الوجود الأول للمتصوفة الذى أشهر أسرار الفؤاد على سطور الأوراق ، وكتب الفتوحات المكية وفصوص الحكم وغيرها من الكتب التى لا نظير لها .

لقد جئت أمامك ، لكنى لم أستطع أن آتى ! إننى أُمسك بسياج روضتك ، لكن سياج روضتك لم يستقر فى يدى ! إننى أُشاهد مزارك ، لكنه الآن غائب عن الأنظار !

أيها الشيخ الأكبر ! يا أغصان الحقائق الروحانية ! يا من غطتك الورود وملأتك الأزهار ! هناك أشياء تحول بين طريقى وطريقك ، تقول : انظر إلىّ ، وأنا أقول : إننى أتطلع إلى شىء آخر ، أريد للشيخ الذى يحمل فلسفة التصوف ممسكا بيده عصا موسى أن يأخذنا إلى وجهة أخرى ، أريد أن يساعدنى سباح بحر الإلهيات على السباحة فى اتجاه آخر ، أريد أن أكون واحدا ، لقد كنت واحدا ، وسأصير واحدا ، زد من منبع الفيض ، واحمل المصائب البشرية عن كاهل البشر .

أقدام شيخ كردى خارج القبر

بعد الانتهاء من زيارة مزار حضرة ابن العربى ، ذهبت لزيارة مزار شيخ كردى مشهور ، أقدامه تظهر خارجة من القبر !

كنت قد سمعت حكاية هذا القبر وأنا فى دهلى ، لكنى لم أكن أصدق ، فكيف يمكن لرجل مات منذ ستمائة سنة أن تخرج أقدامه من القبر ، وبحالتها كما كانت ! ولهذا وصلت إلى هذا المزار بعد أن شدنى شوق عارم لزيارته . نظرت فإذا أمامى قبة صغيرة عادية ، مع مكان مرتفع قليلا ، لكن الناس هنا كثر . أخذنا الخادم إلى داخل الروضة ، حيث كانت الظلمة حالكة ، فأضاء شمعة ، وأرانا المزار (القبر) ،حيث كان هناك جُحر فى الجانب الخلفى . وعلى فتحة هذا الجحر ظهرت أصابع قدم جافة بينما لفت الساق بالقطن ، بل كانت الأصابع أيضا مختفية داخل القطن ، فنزع الخادم القطن لنرى القدم . اعتقدت فى البداية أن هذه قدم اصطناعية ، صنعت من الخشب أو الصلصال ، وأنها وسيلة لابتزاز الجهلة من خلق الله ، لكن حين نظرت فى ضوء الشمعة ، وأمعنت النظر ودققت لمدة طويلة وجدت أن هذه القدم قدم أصلية بالفعل ، وهى تبدو تماما مثل الموميات المصرية ، يبدو منها الجلد والعظام وحتى الأظافر !

حين تيقـــنت تماما أن هـذه قـدم حقـيقـية ، سرت فى جـسدى رعشـة ، وبدأت أرتعد من الخوف الإلهى ، هـناك قصص وحكايات مشهورة عن كرامات هذا الشيخ الكردى تتعلق بخروج قدميه من القبر .

الربـــــوة

بعد الانتهـاء من زياراة المزارات رجعت إلى الفندق ، وفى المساء ذهبنا للفســحة والنزهة فى « الربوة » . والربوة منتزه جـميل يقع على بعد عدة أميال من المدينة ، ومن هذا المكان تنساب قنوات الماء المتجهة إلى دمشق ، ويقال إن يزيد بن معاوية قد شق هذه القنوات . والمكان مفروش بالخضرة ، وهو ممتع جدا ، يأتى إليه أهل الشام الذين يحبون الترويح عن أنفسهم . قـال الحاج عبد الله إن هذا هو المكان الذى ورد ذكره فى القرآن ، وهنا حجر عليه نـقوش بالحروف الرومانية القديمة ، يأتى لمشاهدته السياح الأوربيون .

قـضـيت الليل فى راحـة تـامـة وسـعـادة غـامرة ، كـان بعض الحجـاج المصريين يقيمـون فى نفس الفندق ، فتـحدثت معهم لفـترة متأخرة من الليل .

٣١ يوليو ١٩١١ م

قضـيت نهـار اليوم بطوله فى التـجول فى الأسـواق والانشغـال بالشراء ، ورأيت أيضا الجامع الأموى الشـهير ، وتيسر لى زيارة مزار

حضرة يحيى عليه السلام الموجود بداخل المسجد . وفى جزء من هذا المسجد يوجد أيضا ذلك المقام الذى دفن فيه رأس سيدنا حضرة الإمام الحسين ، بل يوجد أيضا مدفن الرأس . وهناك اختلاف شديد فيما يتعلق بمدفن هذه الرأس ؛ فالبعض يقول إن الخلفاء الفاطميين أخذوها إلى مصر ، حيث دفنوها هناك ، بينما يعتقد البعض أن يزيد أمر بدفنها تحت الجامع الأموى فى دمشق .

وفى هذا المكان توجد الحجرة التى سجن فيها سيدنا حضرة الإمام زين العابدين وآل البيت ، والناس يأتون لمشاهدة هذه الأماكن ، فيتأثرون كثيرا . والحقيقة أن هذه الأماكن تستحق أن تسكب عندها الدموع وتنبعث الأنات ؛ فزمام القلب يفلت من الإنسان حين يتصور أحداث التاريخ القديمة ، ويرى بعينيه أماكن وقوعها .

الجامع الأموى

الجامع الأموى من أشهر مساجد العالم الإسلامى ، والحقيقة أنه من حيث طوله وعرضه رائع ، لا يبدو فى عين من رأى المسجد الجامع فى دهلى ذا شأن . فلا توجد كراسى ، كما أن البناء فى مكان منخفض جدا ، وقد بنى الناس بيوتهم حول جوانبه الأربعة ، ولهذا فقد الجامع جماله وحسنه تماما ، بل يجب القول بأن الإنسان الأجنبى حين يصل إلى باب المسجد لا يمكنه الاعتقاد بأنه أمام مسجد كبير ضخم .

فى أيام مضت اندلعت النيران فى هذا المسجد ، لهذا يقومون الآن بترميمه عن طريق جمع التبرعات من الناس . ويلاحظ وجود آثار اللون القديم ، والزخرفة التشكيلية المكونة من صور البيوت والحدائق على محرابه الخارجي الأوسط ، ويبدو أن أرضية هذه الزخارف كانت ذهبية اللون .

فى وقت الأذان ترفع راية هلالية على مئذنة الجامع الأموى ، فإذا ما شوهدت هذه الراية انطلق الأذان فى وقت واحد من جميع مساجد المدينة ، كما يرفع الأذان فى الجامع الأموى أيضا إذا ما ارتفعت الراية .

وتقام صلاة الجمعة فى هذا المسجد الذى يكتظ بالمصلين ، إلا أن الصلوات العادية لا تشهد للأسف قدوم كثير من المصلين . ويبدو أن الناس لا يلتزمون بأداء الصلاة فى أوقاتها ؛ لأن الصلاة تؤدى بعد وقتها فى جماعات متعددة ، فإذا ما تجمع بعض الناس أقاموا الصلاة فى جماعة ، فإذا جاء آخرون صلوا هم أيضا فى جماعة . وهذه طريقة سيئة للغاية ، وتتعارض مع أصول الفقه .

بينما كنت ذاهبا الليلة إلى الجامع الأموى ، رأيت حلقة فى مكان ، حيث وقف شيخ شاب يرتدى قميصا طويلا ، بينما جلس حوله خلق كثير . كان يعظ الناس ، ويقرأ القرآن الكريم بصوت جميل ، ويبكى وينتحب .

جلست فى ركن ، كان مجلسا رائعا يهز المشاعر من الداخل ، أشار الشيخ ناحيتى ، وطلب أن أقترب منه وقال :

- هل زرت مزار سيدنا بلال ؟

فأجبته :

- نعم . .

فقال :

- اقرأ والضحى . .

وبعدها بدأ هو نفسه يقرأ « والضحى » بصوت جميل . وتعجبت كثيرا ؛ لأن « والضحى » خرجت منى عند مزار حضرة بلال رغما عنى ، وهذا الشيخ كان يقرأ أيضا « والضحى » . وقام بوعظ مختصر ثم حمل حذاءه فى يده ومضى مسرعا ، بينما كان الناس يهرولون من خلفه . حين ذهبت عند البوابة عانقنى الشيخ ، ثم مضى إلى حال سبيله .

وهو نجل أمير مصرى ، يعرف الإنجليزية والفرنسية ، ترك الثراء والعز وارتدى قميصا طويلا ، فى الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمره ، عيونه ندية بالدموع فى كل وقت ، جاء من مصر حالا ، يريد الذهاب إلى المدينة المنورة مشيا على الأقدام . وقد

وصل أخوه أيضا - وهو ثرى جدا - فى ركابه ، وهو حزين جدا لحالة الفقر التى وصل إليها أخوه . ربما كنا قد ركبنا معا القطار ؛ لأن إخوته كانوا قد أقنعوه بالذهاب بالقطار .

السفر إلى المدينة المنورة - أول أغسطس ١٩١١ م

اليوم نتحرك إلى المدينة المنورة ، لا يتسع المجال لتفصيل الكلام عن كل ما شاهدناه فى دمشق ، التقيت أيضا بعدد من المشايخ ، وسوف نتحدث بالتفصيل عند العودة ، ونكتفى الآن بما كتبناه . منذ الليل وزوجة التاجر الحاج عبد الكريم سليمان مشغولة بالإعداد للسفر ، وهى تجلس تغزل خيوط القطن . الطريق إلى المدينة يستغرق ثلاثة أيام ، لكنها أعدت للسفر متاع ستة أيام ، لا شك أن الاحتياط واجب ؛ لأن معنا بعض الأطفال . لم أحمل معى شيئا من الطعام ؛ لأننى ضيف الحاج عبد الكريم سليمان ، وقد أصرت زوجته إصراراً شديدا على أن أظل أتناول الطعام معهم .

وصلنا محطة السكة الحديد عند العصر ، كانت المحطة بعيدة عن المدينة قليلا ، وهى محطة صغيرة ؛ فالأمر لا يزال فى بدايته ، وسوف تتحسن الأمور وتتطور تدريجيا . اشتريت التذكرة إلى المدينة المنورة ، ودفعنا للشخص الواحد ثلاثة جنيهات إنجليزية وثلاثة جنيهات مجيدية تركية . وقد اشترى الناس فرشا يفترشونها داخل القطار ؛ لأن السفر سيكون ليل نهار .

سكة حديد الحجاز

قطارات سكة حديد الحجاز أصغر من قطارات الهند الكبيرة ، وأكبر من قطارات الخطوط الصغيرة ، تفتقر إلى النظافة والإضاءة الجيدة ، وفيها درجتان فقط الأولى والثالثة ، الدرجة الثانية والمتوسطة غير موجودة فى هذه القطارات . ويستخدم زيت الزيتون فى الإضاءة التى تستمر فى الليل حتى الساعة الثانية عشرة ، ثم يعم الظلام ، يقول الموظف : الآن يجب أن تناموا ، لا داعى للنور ، صحيح هذا كلام الحكومة التى تسعى للاكتفاء الذاتى . فى الدرجة الأولى توجد وسائد من القطيفة ، ولا يوجد فرق كبير بينها وبين الدرجة الثالثة ، ولهذا يختار الناس السفر بالدرجة الثالثة . ولا توجد فى القطار عربة مخصصة للصلاة كما هو الحال فى الهند ، كما أن القطار لا يتوقف فى أوقات الصلاة فى أماكن بعينها .

تحرك القطار بعد العصر ، عندئذ حرك الشوق إلى المدينة قلوب الناس وأثار مشاعرهم .

فى البداية كان الطريق مخضوضرا ، وبعدها بدأت الجبال القاحلة تطالعنا . كانت محطات الطريق بحالة جيدة عموما ، لكن عدد المسافرين أى الذين يركبون أو ينزلون كان قليلا ، وربما لم يركب أحد أو ينزل فى بعض المحطات . لا يوجد طعام فى أى مكان ، فى

المحطات الكبيرة فقط كان يمكن أن نجد الخبز والجبن ، ولهذا يحمل المسافرون طعامهم معهم من دمشق .

تأجيل كتابة اليوميات

قررت تأجيل كتابة اليوميات بسبب قلق الطريق ، ثم الانشغال ببعض الأمور الخاصة فى المدينة المنورة ، ولهذا سأكتفى بتسجيل مذكرات مختصرة ، أفصل الحديث على أساسها بعد وصولى إلى الهند .

عند محطة مدائن صالح رأيت موظفا عربيا من السودان ، بشرته بيضاء ! جاء هنا بعد اندلاع معارك « المهدى »، يبدو رجلا ذكيا جدا . يدعى الحاج حسن إبراهيم ، يتكلم الإنجليزية ، ومشاعره الإسلامية تجعله يبكى ويُبكى من معه !

حكى لنا قصة أمير سلطان عالى دينار الذين يسكن فى «دارفور »، وهو مستقل بحكومته ، ويدفع للإنجليز بعض الأموال سنويا . يبلغ عدد جيشه حوالى ستين أو سبعين ألف جندى ، وإذا لبس أحد المسلمين فى مقاطعته طاقية تركية أو إنجليزية حكم عليه بالقتل ، وبالمثل إذا لبس أحد النصارى زيا إسلاميا حكم عليه بالقتل .

ومدائن صالح منطقة أثرية قديمة ،ولا تزال آثار قوم صالح الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم باقية فى الجبال حتى اليوم ؛ إذ تبدو من

القطار أبواب البيوت داخل الجبال . والحجارة هنا عموما لونها أحمر ، ولهذا يبدو المحراب الذى يصنع منها جميلا . ومن المعروف أن مئات البيوت الجميلة كانت مشيدة هنا ، وهى الآن مجرد منطقة خربة . أردت الذهاب إلى هناك ؛ لأن القطار سوف يتوقف هنا عدة ساعات ، لكن موظفى المحطة منعونى حتى لا يقتلنى البدو ! إذ يجب أن يذهب الناس بصحبة العسكر .

لا تبذل الحكومة أى جهد يذكر فى سبيل الحفاظ على هذه الآثار ، بل وصلت الغفلة إلى درجة أن موظفى السكة الحديد يقومون بتكسير بعض المبانى واستخدام أحجارها لتثبيت طريق السكة الحديد !

وما يشاهد من بعيد من نقوش وكتابات على الأبواب يدل على وجود أشياء ثمينة تجدر مشاهدتها .

بعدها بقليل وبجوار إصطبل المحطة توجد آثار قصر عنتر ، وقد كانت هذه قلعة شداد ، وهى اليوم منطقة خربة .

منذ خروجنا من دمشق وحتى وصولنا إلى المدينة المنورة لم نشاهد فى الطريق غير الجبال ، ولا شىء غير الجبال ، لم نر مكانا يخلو من جبل ، كما لم نر أثرا لمكان آهل بالسكان . وفى بعض الأماكن شاهدنا جبلا عجيبا ، بدا كأنه مارد أو عفريت خرج من قمقمه ، أى إن هذه الجبال ليست سلسلة جبلية ، بل هى - بشكل طبيعى - تبدو كأن إنسانا قام بنحتها فى شكل تماثيل .

ومن المعروف أن النبى ﷺ كان قد سار على هذا الطريق فى سفره إلى الشام ، وكان قد رأى هذه الجبال العجيبة والآثار القديمة . ومن الواضح أن مشاهدة مثل هذه الجبال عجيبة الأشكال قد تركت أثرا خاصا على قلب أكمل إنسان ، ونحن الذين نفتقد الكمال لا يمكن أن نبقى دون تأثّر .

حادثــة

توقف القطار فى منتصف الطريق ليوم كامل ، وظل واقفا فى الصحراء الجرداء يوما وليلة ،وعرفنا أن حادثة وقعت فى الطريق أمامنا ، فقد انكسرت القضبان ،مما أدى إلى سقوط القطار ، وسوف يتحرك القطار حين يتم إصلاح القضبان . فى تلك الليلة ساد القلق جميع ركاب قطارنا ؛ لأننا كنا نخاف طوال الوقت من اللصوص وقطاع الطريق ، لكن الشكر لله ؛ فقد مضت الأمور بخير . لكن بعض الناس الذين حملوا معهم طعام ثلاثة أيام تعرضوا للجوع الشديد ؛ فقد وصلنا إلى المدينة المنورة فى ستة أيام .

كان فى قطارنا بعض الحجاج من ماليبار ، كان أطفالهم يبكون من الجوع ، لله فى خلقه حكم ، فهؤلاء الناس هم أكثر ركاب القطار ثراء ، ومع هذا كانوا أكثر ركابه جوعا . وقد قام صديقنا الحاج عبد الكريم بمساعدتهم بكسرات من الخبز ، وقد استفدنا كثيرا من احتياط زوجته و تدبيرها للأمور ، وتحسبها لما قد يحدث ، فقد أعدت من قبل مؤونة ستة أيام .

تبـوك

مـررنا فى الطريق بتبـوك ، وهو مكان مـشهـور ؛ فعنده قـاتل الصحـابة الكفار قتالا شـديدا . ولا يوجد هنا سوى مسـجد السلطان عبد الحميد ، وقلعة قديمة يوجد بها عدد قليل من الناس ، وهناك أمل أن تزدهر بسبب خط السكة الحديد(٤٨) .

المدينة المنورة

فى اليـوم السادس - بعـد صلاة الفـجر - عم السـرور جمـيع المسـافرين ؛ فـقد اقـتربوا مـن الهدف الذين جـاءوا من أجله . ومع انبلاج النـهار بدت لنا من بعيد - من بين الجبال السوداء - قبة خضراء تبرق ، كأنهـا تستدعى البرق من بـعيد عند حافة السـماء وسط ظلام الليل . إن النواح الذى أثاره هذا البريق الأخضر فى القطار يستحق أن يسمـعه الآخرون ، فـقد انفجـرت الأكباد ، بينمـا كانت الأيدى فى الأكمـام ، ربما لتمـسك بزمام القـلب ، أو لتشـد القميـص تمزقه ، واشـرأبت الأعناق خارج شـبـابيك القطار ،بينمـا العـيون تحـملق ، والقطار يجـرى يقطع الطـريق . . ها هو الهـدف أمامـنا صار أكـثـر وضـوحـا للناظرين . . ها هى القـبـة الخـضـراء ، وهـا هى المـآذن العالية . . وصلنا المدينة المنورة . . وصـلنا المدينة المنورة ، فقمت أنا أيضـا أنظر . . أين ؟ ماذا ؟ لماذا ؟ مـاذا يقول ؟ أسـمع شيـئا . . إن الملائكة تنشد نغمات علوية . .

أشرف المخلوقات ، أمة أشرف الأنبيـاء تمتلك البصيرة والبصر ، انظر لقد توقف ، اسمحوا لى بالنظر . قدم لاستقبالنا أصحاب الطلعة البهيـة والوجوه النورانية ، كل يلبس عباءته الطويلة الجـميلة ، مددت بصرى أمامى فرأيت أيضا ما كانوا يرونه . . قالوا : انزلوا . . أى قدم أطأ بها هذا التـراب الطاهر . . ارتبكت . . هل أمشى هكذا ، القلب يدق بسرعة . . تمالك نفسك ، أشعـر برعشة فى يدى وقدمى ، بينما الهمة فى الجسد تحاول أن تقاوم تتساءل ما العمل ؟ أيها الناس ! خذوا بيدى إننى أمشى ، أعينونى إننى أسقط .

صافـحت قدمـاى بلاطات رصيف مـحطة القطار بينما صـافح حسن عبد الجواد أفندى المزور يدى .

ثم بحثـنا عن بيت أمام الحرم فـوجدناه ، وهكذا أقـمنا فى بيت أمام باب الرحـمة بإيجـار قدره ثلاثة جنيـهات . وضـعنا الأمتـعة ، واغتـسلنا وغـيرنا مـلابسـنا ، وبـدأنا الاستـعـداد لـزيـارة روضـة أشرف المخلوقات .

دخول المدينة المنورة

اليوم الأول

أخذنا المزوّر إلى الداخل عبر باب السلام ، كان يقول بعض العبارات ويلقننا إياها ، كان هذا أول يوم ،حكم القوى على الضعيف ، كنا نردد ما يقول كالببغاوات ، لكننا كنا نفتقد المتعة . كان اللسان يريد أن يلهج بالدعاء ، بينما كان المزور يقول : اقرأوا السلام ، ويظل يطلب النذور عند كل موضع ، يا أخى كل شىء لك ، لكن خذنى إلى سياج روضة أبى حتى ألثمه .

قال المزور

- سوف ألقنكم السلام بعد كل صلاة .

فقلت له :

- لا يا سيدى اتركنى وحالى ، سوف تنال حقوقك كاملة !

آه ! يا لها من أخلاق كريمة ! لم يغضب من جنونى ، قال بوجه ضاحك :

- لا حرج ، ولا مانع ، لك مطلق الحرية فى أن تفعل ما تشاء !

صليت عصر هذا اليوم المبارك ، وتقدمت مضطربا ناحية السياج الأخضر الذى تراءى لى على يمين المسجد ، سور شبكى عادى طليت أعمدته باللون الأخضر ، لا أدرى ماذا بالداخل ، أخذت أتلصص ، أنظر ، غلاف أخضر عليه كتابة . .

لكن الكهرباء تمضى فى سلك من النحاس العادى ، وحد السيف القاطع يكون من الحديد ، وقطرات سحب الرحمة صغيرة جدا لكنها عذبة تروى العطشان . هذا حال هذه الحجرة التى أقف أمامها ، تراها مكانا عاديا ، مع أنها فى الحقيقة أسمى وأعلى من أى شىء بعد الله!

ظللت أتجسس وأتلصص ، والقلب يتكلم بهذا الكلام الذى جانبه الأدب ، وفجأة شعرت بوخز فى كبدى ، وبدأت يداى ترتعشان ، وقدماى تهتزان ،هناك من أدخل رأسى بين قضبان السور ، وبدأت الدموع تنهمر من عيونى ، بينما شفتاى تقبل وتلثم قضبان السياج ، وتجمدت أصابعى ممسكة بها .

الأدب ! الأدب ! أيها الخيال الجامح . . الأدب ! الأدب أيها الفكر الملوث ، هذا ليس بمكان للتفلسف ، فهنا ينسى الملك السياسة وأمور الحكم ، بينما العقلاء يرفعون أيديهم عن العقول إذا جاءوا هنا ؛ فهذا مرقد حبيب الله ، هذا هو المكان السعيد الحظ الذى تغبطه السماوات والأرض وحتى كرسى العرش !

يا أبتاه ! اجعلنى من أهلك ! اجعلنى من أريده أن يكون ، واجعلنى من تريده أن يكون ! ماذا أقول ؟ نسيت كل شىء . . لا أدرى ماذا كنت سأقول ، آلاف السلامات ، آلاف التحيات ، آلاف الأدعية والشكاوى ، وأخبار القلب ، لا أذكر الآن شيئا من هذا كله ، آه ! تذكرت . . حلقة مشايخ دهلى ، أعضاؤها ، أفرادها ، المتعاونون معها ، الرجال والنساء . .

رغم أن حرارة الجو كانت من الشدة بحيث لا يسكن الإنسان إلى ناحية واحدة ، لكن حين خطونا أول خطوة داخل الحرم ، شعرنا بأننا نمضى داخل ثلاجة ! كلما فكرت فى شىء وجدت أن العقل يعجز عن فهم أسبابه . والأمر العجيب الآخر أن الماء كان باردا كالثلج ، كانت القلل الفخارية التى لا حصر لها موضوعة فى كل مكان داخل الحرم ، فكان الناس يتناولون الطعام فى بيوتهم ثم يأتون هنا فيشربون الماء البارد ، وهكذا يصدق المثل القائل « تعال بسرعة : كل هناك واشرب هنا » .

وقد عين كرماء الناس هنا من يقوم بملء هذه القلل الفخارية ، ومن يقوم على سقاية الناس ، ويطلق عليهم اسم « زمزمى » . ولهذا الأمر فائدتان : الأولى أن من ليس لهم دخل مالى ممن يريدون البقاء فى المدينة يمكنهم كسب بعض المال من هذا العمل ، كما أن زائرى مسجد الرسول ﷺ سيجدون الماء البارد فى كل حين .

لاتظهر عظمة حرم الرسول ﷺ فى الصور التى تطبع ؛ فهى تعرض فقط للصحن والأعمدة الخارجية والروضة المنورة ، لكن إذا ما دخل الإنسان فى الحرم ، شاهده باتساعه الكبير ورحابته ، فيمكن لخمسة وعشرين أو ثلاثين ألف مصل إقامة الصلاة فى وقت واحد(٤٩) . وقد قام على عمارته رجال مختلفون فى أوقات مختلفة .

لكن هناك التزام جدير بالثناء ، وهو الحفاظ على مكان المسجد الذى بنى فى زمن رسول الله ﷺ كما هو بعينه ، وتحديد هذا المكان ، وبعدها كلما جرت توسعة ذكر اسم من قام بها وتاريخ التوسعة بشكل واضح يمكّن الباحث بسهولة من معرفة من قام بهذه التوسعة ، ومن قام بتلك ، وفى أى زمان . وقد رغبت فى إثبات التوسعات ومن قاموا بها وزمانها ، وكذلك رغبت فى إثبات عدد الأعمدة داخل الحرم وغير ذلك ، لكن خدام الحرم منعونى قائلين بأن الناس سوف يتشككون ويقولون بأن هذا الرجل غير مسلم وربما كان نصرانيا ، ومسلمو مصر يأتون هنا للزيارة ، ويحاولون جاهدين نسخ اللوحات المكتوبة فى الحرم ، لكنهم فى العادة لا ينجحون .

وأسفت على هذا التوهم العجب ، فلا يزال المسلمون يعيشون مثل هذه الأوهام . وأشكر الله فقد وقعت يدى على كتاب كتبه أحد شيوخ المدينة المنورة ، فصل فيه تاريخ الحرم النبوى منذ البداية حتى يومنا هذا .

آه ! إن آثار السلطان عبد الحميد موجودة فى كل مكان : فى بيت المقدس ، وفى بيروت ، وفى دمشق ، وفى الطريق من دمشق حتى المدينة المنورة . وحيثما وجد شىء رائع فلا بد أن يكون للسلطان عبد الحميد نصيب منه ، كم كان خيّرا طيّبا هذا الخليفة . لكن الحكومة الحالية تحاول أن تمحو اسمه من كل مكان ، لكن اسم عبد الحميد محفور فى قلب كل طفل عربى ، فكيف يمكنها أن تمحوه من قلوبهم ؟!

حين ضعفت أساسات أعمدة الحرم قام السلطان عبد الحميد برصد مبالغ مالية معقولة لعمل حلقات سميكة جميلة لتدعيم هذه الأساسات . وكانت هذه آخر مأثرة لهذا الخليفة المسكين ؛ فقد سحب بساط الخلافة من تحت قدميه ، فسقط . لقد رأيت مئات الناس الذين امتلأت أعينهم بالدموع وهم يسحبون أنفاسهم الباردة أسفا وحزنا حين يتذكرون السلطان عبد الحميد .

أما أهل الهند فحدث ولا حرج ، فحيثما تطلعت وجدتهم ، فجميع حراس بوابات الحرم النبوى من الهنود ، ومن يقوم على شئون السقاية وغيرها داخل الحرم من الهنود ، وقد سمعت أيضا أن خدمة الحراسة فى مكة المكرمة أيضا فى يد الهنود . لقد سررت كثيرا بعد مشاهدة هذه الأمور ، ألف ألف شكر لك يا إلهى ؛ فأهلنا من الهنود وجدوا القبول على عتباتك .

ولننظر أيضا إلى هؤلاء الناس عند الروضة المباركة ، يجلس الأغوات فى ملابس فضفاضة ناصعة البياض ، على رؤوسهم عمامات بيضاء ، يربط كل منهم خصره بمناديل قطنية ، وفى يده عصا ؛ لأنهم يدورون يحافظون على النظام داخل الحرم ، ولا يمكن لأحد غيرهم أن يدخل إلى الروضة المنورة ، وتصرف لهم الحكومة راتبا معقولا ، بالإضافة إلى النذور التى يتلقونها من الزائرين .

إضاءة الحرم

إن كبريات كنائس النصارى التى شاهدتها فى بيت المقدس كانت كلها مظلمة ومخيفة لدرجة كبيرة ! يا حفيظ يا رب ! والكنيسة التى يعتقد النصارى بأن المسيح صلب عندها - وهى قبلة جميع النصارى وكعبتهم - مظلمة فى النهار بدرجة لا تسمح حتى للإنسان بأن يمشى خطوات دون أن يتعثر ويسقط . ومع أن النور موجود طوال اليوم ، وأقصد هنا أنهم يستخدمون المصابيح طوال النهار ، مع هذا فالكنيسة من الداخل مظلمة بشكل مخيف . .

لكن فى حرم المدينة المنورة يوجد نور طبيعى ، ومع أن الروضة المباركة محاطة من جميع الجهات بالمبانى ، لكن لا أثر للظلمة . وأنا مسلم ، وربما يمكن لغير المسلم أن يقول إن ما أدّعيه إنما هو بسبب عقيدتى الإسلامية . لكن الأمر لا علاقة له بالعقيدة ، ولو أن غير المسلمين يمكنهم المجىء هنا فسوف يصدقون بيانى إنصافًا . فلم تدخل

الكهرباء الكنائس حتى الآن ، وقد سألت كبار القساوسة لماذا لا تستخدمون المصابيح الكهربائية فى الكنائس ، فأجابوا بأنهم لا يمكنهم استخدام أسلوب الإضاءة الحديث فى الكنائس القديمة ، وهم يكتفون باستخدام زيت الزيتون المقدس . هذا هو حال قبلة تلك الأمم التى تسفك دماء الناس دونما وجه حق ، لنشر الأنوار الحديثة فى الدنيا ! وفى مقابل ذلك انظروا إلى أماكن المسلمين المقدسة ، فستجدونها مضاءة بالمصابيح الكهربائية .

وهذه الأنوار الكهربائية من مآثر السلطان عبد الحميد ، فقبل المغرب تبدأ إضاءة مصابيح زيت الزيتون ، وحين يبدأ الأذان ، ويصطف المؤمنون للصلاة ، ويبدأ المؤذن بالتكبير ، تنبعث أنوار المصابيح الكهربائية ، وتتلألأ الأنوار مرة واحدة ، فيعم النور الحرم بأكمله . وعند منبر الرسول ﷺ تحيل المصابيح الكهربائية التى تعطى نورا أخضر المكان إلى ربيع عجيب .

والخلاصة هى أن المسلمين قد رتبوا أمور الإضاءة بما يتماشى مع أصول دينهم الذى يتصف بالاعتدال ، فجعلوها إضاءة معتدلة ، مستخدمين أسلوب الإضاءة الحديث وأسلوب الإضاءة القديم أيضا؛ ففى الحرم آلاف الفوانيس التى تُضيء بالطريقة القديمة أى بالشموع وبزيت الزيتون ، كما توجد أيضا مصابيح كهربائية ، لكن داخل الروضة المباركة لا يوجد غير الشموع ، ونورها بديع وسط نور المصابيح الزيتية والمصابيح الكهربائية أى بين القديم والحديث .

وهكذا فالشمس والقمر أيضا لا يمكنهما مواجهة نورانية القبة الخضراء التى هى مركز الأنوار كلها .

الصلاة فى الحرم

إن الربيع الحقيقى للصلاة لا يتيسر فى مكان آخر على وجه هذه البسيطة إلا فى حرم رسول الله ﷺ ، ورغم أن مكة المكرمة فيها بيت الله ، لكن هذه الجاذبية لا توجد هناك أيضا ، وكيف توجد ؟! فالفضل فى رفع راية عظمة الكعبة يرجع إلى المدينة المنورة .

وتقضى القاعدة هنا بأنه حين يحين وقت الصلاة فى الحرم النبوى ، يصعد المؤذنون على المآذن ، وينشدون فى مدح الرسول ﷺ ، ويصلون ويسلمون عليه ، ويتلون أيضا آيات من الذكر الحكيم . وهذا شىء مؤثر وتقليد طيب ؛ ففى النزع الأخير من الليل قبيل الفجر يكون لهذه الأصوات تأثير عجيب على طبيعة الإنسان ، فتصل تلك التجليات إلى أفئدة السامعين بشكل يستحيل التعبير عنه بالكلمات . وفى وقت التهجد أيضا ترفع الدعوات والصلوات والسلام على النبى ﷺ ، وتُتلى آيات الذكر الحكيم من فوق المآذن . وليس هذا التقليد الفريد فى المدينة فقط ، فهو ينتشر أيضا فى دمشق وبيت المقدس ، وقد كان هذا التقليد معمولا به فى الهند أيضا فى الأزمنة السابقة ؛ فقد ورد فى ذكر أحوال سيدى

حضرة سلطان المشايخ محبوب إلهى أن الحادثة الأولى التى أثرت عليه فى بداية عمره وملأت قلبه بالعظمة الإلهية كانت تلك التلاوة التى كان يسمعها فى منتصف الليل .

ففى مساجد الهند أيضا كان المؤذنون يصعدون فوق المآذن فى النزع الأخير من الليل ، ويتلون آيات الذكر الحكيم .

ومن الضرورى أن يقوم مسلمو الهند بإحياء هذا التقليد ؛ فهذا ما يمكنه أن يحيى من جديد الروح فى جسدهم الميت .

قبل ذلك كانت صلاة الفجر فقط هى التى تقام خلف الإمام الشافعى ، أما بقية أوقات الصلاة فكانت على النحو التالى : يؤم الإمام الحنفى الصلاة أولا وبعده الإمام الشافعى ، وخلف الإمام الحنفى يصلى مئات الحنابلة والشوافع أيضا . ونحن نعتقد أن إقامة هذه الصلوات الجامعة بشكل منفصل ليس بالأمر الطيب ، ففى الحرم النبوى يجب أن يكون المسلمون من جميع النواحى روحا واحداً(٥٠) .

يوم الجمعة هنا مثل فصل الربيع ، وقد تيسر لى أن أصلى جمعتين هنا ، وحين كان الخطيب يشير إلى قبة رسول الله ﷺ قائلا « هذا رسول الله » كان الزائرون يغرقون فى حالة من الوجد لا قرار لها ، وتطرأ على قلوبهم حالة عجيبة من النشوة .

القبة المطهرة والأطفال

ذات يوم شاهدت هذا التقليد الطيب ، ففى المساء يمررون الأطفال الرضع من تحت القبة المباركة ، ومعروف أن يوم الخميس هو اليوم المقرر لهذا التقليد . عشرات الناس يحتضنون الأطفال بعد أن ألبسوهم ملابس جيدة نظيفة ، ويحملون مع هؤلاء الأطفال قليلا من الخبز أو الحلوى . حين يكون ضوء النهار لا يزال ينير القبة الطاهرة يحتضن الأغوات الأطفال ويدخلون بهم إلى القبة الطاهرة ، فيطوفون بالمزار الشريف ، وحين يخرج الأطفال ينهال خلق عظيم فى جنون على هؤلاء الأطفال ، فيلمسونهم بأيديهم ، ويقبلونهم ، ويريدون أن يضعوهم على أعينهم احتراما وتقديرا !

وهذا وقت خطير بالنسبة للأطفال ، أما الخبز والحلوى فيتم تقسيمها على أفراد الأسرة والأقارب . وتقوم النسوة بتهنئة أمهات الأطفال ، ويتمنين لأطفالهن حظا طيبا . لقد أرانا الله هذا اليوم الذى نال فيه الأطفال الرضع من فيض رسول الله .

معجزة

لا يقل هذا الأمر هنا عن كونه معجزة ؛ فعشرات الأطفال الرضع قد تجمعوا هنا يبكون ويصرخون ، ولكن حين يدخلون فى القبة المباركة يتوقفون عن البكاء ، وحين يخرجون فإنهم

جميعا - وليس بعضهم - يتوقفون عن البكاء . والعجب كل العجب أن الناس حين يهجمون عليهم يلمسون أيديهم ويجذبونها أيضا ، فإن هؤلاء الأطفال لا يبكون !

البدر في سماء المدينة المنورة

ليلة الرابع عشر ، السماء صافية تماما ، بعد صلاة العشاء ذهبت إلى بيت صديقى مولوى سيد أحمد لنتسامر فى الليل ، كنا فى فصل الصيف ، لهذا وضعنا الفراش على سطح البيت . كان مولانا قد قدم لى هدية هندية ، أقصد « التنباك الهندى » فمضغته . وحين حضر بدا أثر « التنباك » على الدماغ ، وبدأت أشعر بالدوران ، حين حاولت الوقوف أخذت أهتز . وفجأة وقع نظرى على القبة الخضراء ، وكان بدر ليلة الرابع عشر من الشهر يداعبنى ، يا لها من ليلة مقمرة . كان سعف أشجار النخيل يبدو مثل ذؤابة فوق الرأس ، تنتشر هنا وهناك فى زهو وكبرياء ، بينما كان نداء « هو الحق ، هو الحق » يتناهى لأسماعنا من الخانقاهات القريبة . ولم يكن منظر الجبال السوداء وسط هالات النور بأقل روعة أمام العيون ، من ذا الذى كتب له أن يرى بدر المدينة المنورة ؟! منذ مدة كانت عيون الخيال تجعلنى أشاهد أقماراً خيالية ، وكان الخيال يصور أمامى أيضا ليالى يثرب المقمرة . لكن المشهد الذى أراه الآن مشهد حقيقى ، فأى نسبة بين الأصل والصورة ؟ وبينما أنا على هذا الحال سمعت جلجلة دراويش

الطريقة الخلوتية ، كانوا ينشدون الألفاظ العربية بألحان ونغمات عربية ، وبدأت بدورى أقلد ألحانهم لكن بالأردية :

باقى وه - فانى سب - أوبر وه - نيجى وه - رحمت والى - شفقت والى (هو الباقى والكل فان - هو العالى والكل تحت - الرحيم ، العطوف)

هذا بينما كنت أتطلع إلى أشعة ضوء القمر الفضية تسطع على قبة الرسول ﷺ .. ياه ! يا له من عالم !

شوارع المدينة

مداخل شوارع المدينة ضيقة مثل فم البرعم ، ونظرا لعدم مبالاة الحكومة التركية فالنظافة هنا منعدمة . لكنى أعتبر هذه الحوارى أفضل كثيرا من شوارع لندن وباريس الفسيحة ؛ هذه هى الطرقات التى مضى عليها مولى الكائنات ، وهذه هى الأزقة التى تنتشر فيها طيب الروائح الغيبية بعد مروره فيها . تبدلت الأبواب والجدران ، وحدث فرق فى هيئة البيوت والعمران ، لكن المكان هو المكان ، باق فى قلوب المشتاقين عبر الأزمان .

والآن أشير هنا إلى الدعاء الذى لهج به لسانى وأنا أمسك بقضبان سياج الروضة المباركة ، والذى يتكرر ذكره مرات ومرات ،

والذى يتوق الناس إلى سماعه . وقد اختصرت بعض الأجزاء الطويلة فى الدعاء اختصــارا لعدد الصفحات ، كما تغاضـيت عن ذكر أسماء الأصحاب مكتفيا بذكر أسماء المدن .

حالة القلب

أمسكت بسياج الروضة المباركة مرة
فحكيت لرسول الله عن جميع أحوال قلبى

السلام عليكم يا سيد الكونين ، السلام عليكم يا جدى ، السلام عليكم يا وسيلتنا فى الدنيا والدين .

ما أسعد العيون التى تتطلع إلى روضتك ، ما أسعد الأيدى التى تمسـك بهذا السـياج النورانى . ومهــما غبطنا اللســان على ما ناله من عــزة ، فلن نكفـيه ؛ لأنه يخـاطب هذا الوجـود الحى المحى ، الذى تخرس جميع الألسنة أمامه .

يا رسول الله ! ها هو ابن حـفيدك الحـقير حـسن نظامى يرغب فى شرح أحوال قلبه ، وهــو يؤمن أنك حى موجود فى هذا الوقت بعناية الحى القيوم ، فأنت تستطيع أن ترى وتستطيع أن تفعل ما لم يستطعه أحد.

الإسلام ، إسلام الحبيب ، إسلام ربك المقبول ، إسلام جدك الأمجد سيدنا إبراهيم عليه السلام فى مأزق ، يحيط به الأعداء من كل جانب ، وقد صار وحيدا ، لا يبدو أن هناك من يحميه أو ينصره . والعرب منبع الإسلام يتدهور حالهم يوما بعد يوم ، والأعداء من حولهم يفكرون فى السيطرة عليهم وإخضاعهم لنفوذهم .

أما السيف العثمانى المدافع عن العرب فقد علاه الصدأ وكلّ . وكان صاحب السيف قد رغب فى أن يصقله بمصقل الحرية ، لكن العناصر الأجنبية مزجت ماء النار فى المصقل ، فجعلت من السيف الحاد البتار سيفا كالا لا فائدة ترجى منه .

لقد شاهدت عملة الأجانب تستعمل فى المدينة المنورة ، ووجدت تجارة الأجانب تزدهر ، فوقف شعر رأسى واقشعر بدنى .

يا رسول الله ! إن العملة الفضية لحكومة تستخدم بقيمتها الكاملة وسعر الذهب يساوى أكثر من أصله ، وبالمقارنة أنظر إلى العملة التركية فأتعجب ، فرغم أنها عملة الحكومة لكنها عملة معيبة !

يا سيدى ! إن العملة علامة على من بيده الحكم . . لم يتدخل الأجانب فى حكم المدينة المنورة ؟ آه إن الملابس التى صنعها الأجانب قد انتشرت فى المدينة حتى التف بها المسلم ودفن فى البقيع المكان المختار ، أى إن أمتك تستجدى كفنها من الغير !

والحكم يفلت زمامه من يدنا بالتدريج ، فلت منا زمام الحكم فى الصين ، فلت منا زمـام الحكم فى جـاوا ، فلت منا زمـام الحكم فى تاتارستان وبخـارا . ونحن فى الهند مثل المستـعمرين ، وشكرا لله أن ملك الهند لا يدين بديننا ويعطينا حريتنا الدينية بكافة أشكالها . تترنح سـفيـنة إيـران وسط الطـوفان ، أمـا رقـبـة مراكـش فقـد قطعت ، ولادماء تسـيل ، وسوف تنتهى هى أيـضا فى النهاية . وقـد شاهدت مصر حالا بأم رأسى ، فالمسلمون يحتسون الخمر على الملأ ، ولا تميل قلوبهم لأى أمـر من أمور الدين . وفى أفـغانسـتـان نشـاهد مظـاهر الدين والدنيا ، لكن المسـاكين وقعوا بين فكى كـماشة ، فـهنا صدام وهناك صدام .

والآن عيوننا جميعا معلقة على بابك المملوء بالأسرار . . .

يا رسول الله ! فـاض الكيل ، فتجل لنا ، وخذ بيـد الأمة التى صارت بلا حول ولا قوة . إن أمة المسيح عليه السلام لم تسلبنا الحكم فقط بل سلبـتنا أيضا التمـدن والحضارة والذوق وحـسن الخلق ، ففى هذه البلاد يـعيش النصارى والمسلـمون جنبا إلى جنب ، والحـكم بيد المسلمين ، لكن أثر الرفـاهية ورغـد العيش لا يوجـد بين المسلمين ؛ فمن حيث الشكل النصارى هم فقط أصحاب الوجوه المستبشرة ، ومن حيث اللباس النصارى فقط هم أصحاب الملابس النفيسة ، ومن حيث البـيـوت بيوت الـنصـارى فـقـط هى الجـمـيلة المزينة ، ومن حـيث الأخلاق فـأخلاق النصـارى طيبة ، لا يكذبون ، لا يتـقاعـسون عن

العمل ، ومن ناحية التجارة فكفتهم تميل عن كفتنا كثيرا . عبدك الفقير درس جيدا حياة المسلمين والنصارى فى مصر وبيت المقدس وبيروت ودمشق وغيرها من الأماكن ، فالفرق بينهما كالفرق بين السماء والأرض .

يتهمنا النصارى ويقولون إن الدين الإسلامى هو المسئول عن هذه الحالة المتردية ، فتتمزق أفئدتنا ، إذا كان الإسلام هو السبب فلماذا كنا فى البداية أفضل من النصارى ؟!

بينما تعرف الدنيا كلها أننا نحن الذين علمنا العالم كله الحضارة والمدنية ، كما أننا أولئك المسلمون الذين كنا نتحلى بمحاسن طيبة أفضل كثيرا مما يتحلى به نصارى اليوم . ونصارى اليوم يمرون أيضا بالمحنة التى شهدناها من قبل ، فإذا تعلق الأمر بالدين هل يمكنهم القول بأن الدين المسيحى سئ ودين الإسلام طيب .

يا ملاذ الدنيا ! بعد كل ما ذكرت أود أن أسمعك جملتين مفرحتين ، نحن لم نمت ، وأعدادنا تتزايد فى هذا العالم بسرعة القطار على قضبان السكة الحديد ؛ ففى كل عام تتزايد أعدادنا بمئات الآلاف فى جميع أطراف الدنيا .

والدليل الثانى على حياتنا الخالدة هو أننا جميعا فداء لاسم رسول الله ، محبتك فى قلوبنا جميعا على وتيرة واحدة .

لم يخرج قدم أحد منا من دائرة هذا المركز الإلهى ، ولهذا فأنا على يقين من أن المساوئ الحالية يمكن أن تزول بإشارة لدنية بسيطة من رسول الله .

إن وطنى الذى أعيش فيه يقظ ، يريد أن ينهض ، بل هو ينهض بالفعل . إن الحركة تموج فى جميع أفراد أمتنا ، وقد طلع نجم الجامعة الإسلامية فى أفق الأمل ، وسوف نحول هذا النجم إلى قمر ، ثم نتطور أكثر فأكثر فنبث الحرارة فى الضوء البارد ، وسوف نجعل من النجوم شمسا . وفى سبيل هذا الجهد سوف نضحى بأموالنا وأوقاتنا ، وحتى بأرواحنا ، وبفضلك سوف نفعل كل شىء .

إننا نرى أننا نمضى على طريق الرقى ، وسوف ونمتلكه ، فإذا ما وضعوا العثرات فى طريقنا ، فسوف نبذل كل ما فى وسعنا فى سبيل القضاء عليها .

ما أطيب آغاخان ، وما أطيب أمير على ، وما أطيب وقار الملك [٥١] وكل من يعضدهم ويساندهم ؛ فقلوبهم معمورة بالإخلاص والعزة ، فقوِّ من عزيمتهم وافتح لهم قلاع الاستقامة والثبات على الدين .

اللهم بارك فى شيوخنا العظام ، وسلم قادتنا الدينيين ، وأنزل البركة والرحمة على حضرة مولانا بير مهر على شاه كولروى ، وحضرة مولانا شاه بدر الدين بهلوارى ، وحضرة سيد إمام

الدين أجميرى ، وحضرة سيد محمد باك بُنى ، ومشايخ تونشوى ، وأبناء أجمير شريف ، وأبناء مهر ولى ، وأبناء تشراغ دهلى ، وأبناء حضرة محبوب إلهى ، وحضرة مولانا شاه سليمان بهلوراى ، وميان عبد الصمد فخرى ، ومشايخ نيازى ، ومولوى أحمد رضا خان بريلوى ، وسيد جماعة على شاه على بورى ، وأستاذى مولوى محمد يحيى كنكوهى ومولوى أشرف على تهانوى وجميع علماء دهلى وديوبند وندوة العلماء وفرنكى محل .

بارك فى جهود خدام الأمة آفتاب أحمد خان ، ونواب مزمل الله خان ، ومولوى شبلى ، ومولوى حبيب الرحمن خان ، وحاذق الملك ، وميان محمد شفيع ، ومولوى رفيع الدين ، وسيد حسين بلكرامى ، وحكيم نور الدين قاديانى ، وخواجه كمال الدين ، وشيخ محمد إقبال ، واجعل للمسلمين نصيبًا من خدماتهم ومن خدمات كل من يعمل فى سبيل خدمة للأمة .

اللهم وفق صحفنا القومية : وكيل وملت ، ووطن ، وبيسه أخبار ، وكامريد ، والبشير ، وعلى كره كزيت ، ودبدبه سكندرى ، ونير أعظم ، ومخزن ، وتمدن ، وصوفى ، ونظام المشايخ ، وبنجاب ريويو ، ومشرق ، وزميندار ، ونير آصفى ، وغيرها من الصحف ، وحد صفوف الأمة تجاه هذه الصحف(٥٢) .

ولينل مـرامهم فى مـحبـتك ، ولينجح فى تحقـيق أهداف الدين والدنيـا أحـبـتى المخلصـون من أهالى دهلى ، ولاهور ، وبمبـاى ، وحيدر آباد ، وجالندهر ، وأمروهه ، وكوئته ، وإله آباد ، وكلكته ، وبتنه ، وامـرتسر ، وجاورا ، وراجـكوت ، ومانكرول ، ومـيرته ، وكـانبور ، مـدراس ، وعدن ، وآكـره ، وسيـوهاره ، وبانى بت ، وأنباله ، ولكهنو، وكوليا، ورامبور ، وسهارنبور ، ويريلى وغيرها .

يا أمـيـر الدارين ! أعـرض علـيك أنين أمـراء دهلى وبكاءهم . إنهم لا يبكون عرشهم الضائع ، إنهم لا يجـدون كسرة الخبز ، وهم بحاجة إلى ما يسترون به أنفسهم ، وما طالهم من ذل وخزى فاق كل حد ، لقد نالوا جزاء أعمالهم السيـئة بما فيه الكفاية ، فادع الله الغفار أن يعفو عنهم وأن يغفر لهم خطاياهم .

انظـر إلى يتـامى الأمـة نـظـرة عطف ، فـلا يوجـد من يعطف عليـهم ، يهيـمون فى الطـرقات ، يدقـون الأبواب فلا تفـتح لهم ، فيسـقطون واحدا بعد الآخر فى شبـاك أعداء الإسلام . واعطف على أمهاتهم من الأرامل اللاتى أصابهن اليأس فلجأن إليك .

يا فلذة كبد آمنة ! اجعل نيـران قلوب وأرواح الكثيرين من أمتك بردا وسـلامـا ، وادع الله أن يحـقق لـكل مـراده ، وأن يـرزقـهم بالأطفال ، وخـاصة أميرة بيـغم (حيدر آباد) التى فوضـتنى لحمل هذه الرسـالة إليك ، فلا تخـيب رجـائى ، وحقق لأميرة بيغم ما تصبو

إليــه . واشف أرواح الأمة وأجــسادها ، وأنعم على مــساكين أفــراد الأمة الذين تعرضوا للإفــلاس بالغنى وراحة البال . إننى ألجأ إلى الله الغنى الوهـاب ، لقــد جئت إليك حــاملا خــجل المذنبين نادما طالــبا العفو ، فارحمهم برحمتك ووفقهم إلى العمل الصالح .

أدعو الله أن يمنح قلوب العشاق المحــترقة الهدوء والسكينة ، وأن يشــفى جنون قيس فى حــبه لليلى ، فــيتــوقف عن ارتكاب حــركات الجنون ، وأن يعــينه على ألا يلطخ ذيل ثوب العــزة والوقار . أمــا أنا فأطلب السكوت ، وأرغب فى مرتبــة محو الذات الكامل ، فأوصلنى إلى حجــرة الفناء فى البقاء والبقــاء فى الفناء ؛ حتى لا تحول قــضبان هذا الســياج بينى وبينــك ؛ وحــتى لا يكون بينى وبينك حــجاب . . آمين . اللهم افتح لنا بــالخير وافتح لنا بالخــير واجعل عــواقب أمورنا بالخير ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير .

خــارج الحـرم

أقمت فى المدينة المنــورة خمسة عــشر يوما ، وقــد شرفت بزيارة جميع المزارات فى داخل المدينة وخارجها .

مـزار سـيدنـا عبـد اللـه

يوجد مــدفن سيــدنا عبد الــله والد سيدنا رســول الله فى المدينة المنورة ، فقد كان مسافرا صــدفة ، فحدثت الوفاة فدفن بالمدينة حيث

مدفن ولده سلطان الكونين ، وهكذا شاءت القدرة الإلهية ذلك . ويوجد مزاره فى أحد شوارع المنطقة السكنية فى المدينة ، وعليه غلاف ، لم أر أى مزار بهذه الكيفية . .

جنة البقيع

تقع جنة البقيع الشهيرة فى منطقة قريبة من الحرم ، حيث توجد مزارات الصحابة الكبار وآل البيت الأطهار ، وقد قيل إن مزارات سيدة العالم فاطمة الزهراء وبقية الأئمة الأطهار موجودة هنا أيضا ، ويوجد مزار خاص لحضرة سيدة متصل بالروضة المنورة أى الحرم الأقدس ، يقول البعض إن الصحيح أن المزار فى البقيع بينما يقول آخرون إنه داخل الحرم .

ومعروف أن عددا من أصحاب آل البيت قد دفنوا فى قبر واحد فى جنة البقيع ؛ لأن المزارات الكثيرة توجد فى مكان صغير ، وهو ما لا يكفى أيضا لقبر واحد فى بلادنا ، هذا بالإضافة إلى أن مساحة البقيع ضيقة ، ولا يزال الناس يدفنون فيها منذ ألف وثلاثمائة سنة ، ثم إن الأرض تبدو نظيفة ، ومن المعروف أن المئات والآلاف يدفنون فى مكان واحد بسبب حرمة المكان وبركته .

لا يوجد هنا التقليد الخاص بوضع الزهور على المقابر ، يضعون أغصان شجر أخضر ، وقد شاهدت الناس يشترونها فى أماكن كثيرة .

ميدان أحد

يوجد ميـدان أحد الشهير على مسـافة ميلين من المدينة المنورة ، وهو الميدان الذى جـرت فيه المعركـة المشهورة بين كفـار قريش والنبى ﷺ . وهنا يوجد مـزار الأمير حـمزة عم رسول الله ﷺ ومـقابر بقيـة الشهداء ، بعد أن زرت مـزار حضرة أمـير حمزة مـتعت القلب بمشاهدة ميدان أحد . وفى الليل رأيت رؤيا عجـيبة ، وتفسيرها كامن فى نفس المناظر التى شاهدتها هنا ، وميدان أحـد له تأثير كبير ، وقد كتبت قصة تلك الرؤيا فى رسالة الشيخ سنوسى وشرحتها بالتفصيل ، وقد نشرت منذ سنتين فى الهند وطبع منها مئات الآلاف من النسخ ، ولا تزال تطبع حتى الآن .

منظر مؤسف

إن المكان الذى دفن فيه شهداء أحد مكان ضيق ، ورغم هذا فمن المؤسف أننى شاهدت هناك عدة مقابر جديدة ، وهذا من وجهة نظرى انتهاك لحرمة شـهداء أحد . وكان من الضرورى أن يدفن هؤلاء الناس فى المقبـرة المتـصلة بمقبرة الشهـداء ، وليس فى المقبرة الخـاصة وفوق قبور الشهداء .

مسجد قباء

فى الناحـية المقـابلة من المدينـة المنـورة يوجد مـسجـد قبـاء ، والشارع هنا غـير مكتـمل وخرب جدا . ويقـال إن آية تغيير القبلة قد

نزلت هنا . وفى مكان الوحى وضعت لوحة كتبت بالخط الكوفى ، وبالقرب منها وضعت علامة فى الصحن على شكل برج ، وقد نزلت آية « أسس على التقوى » هنا .

من الناحية الشكلية فإن المبنى ليس جميلا ، لكن هذا هو المكان الذى وضع فيه أساس الإسلام ، فلو جلس الإنسان وفكر لطرأ على قلبه شعور عجيب ، الله أكبر ! هنا نزل الوحى على رسول الله بينما كان يصلى بالصحابة ، هذه الأماكن شهدت الأحداث الأولى فى تاريخ الإسلام ، التى جعلت المسلمين يتحولون إلى العالم الخارجى يحكمون معظم أجزائه ، بعد أن تحول الناس هناك إلى دين الإسلام .

بالقرب من مسجد قباء فى الجهة الخارجية يوجد مسجد حضرة على ، ومسجد السيدة فاطمة . وهنا أعطتنى بعض البنات بعض أزهار الحناء ، وقلن إنها أزهار السيدة فاطمة ، قربت هذه الأزهار من عينى وقبلتها . وقد أسمعتنى الفتيات بعض الأشعار أيضا فى مدح رسول الله ﷺ .

المكتبات

توجد عدة مكتبات فى أماكن متفرقة بالمدينة المنورة ، وقد أسسها أناس قدموا إلى هنا من الخارج . ومن بين هذه المكتبات مكتبة البخارى التى زرتها وشاهدت ما فيها جيدا ، ففيها ذخيرة طيبة من الكتب .

شيخ الحرم

شيخ الحرم هذه الأيام شيخ تركى عجوز طيب العشرة ، التقيت به فى لقاءات خاصة ، وتحدثت معه عن عدة قضايا هامة تخص المسلمين . وقد بحثنا بشكل خاص مسألة الخلافة وكيفية اتخاذ حلول عملية لمثل هذه المسألة ، وقد أخبرته بأن الحكومة التركية لا تعمل شيئا من أجل الخلافة ، ومن هنا يجب عليه أن يحث الحكومة على أن تبدأ نشاطها فى المدينة المنورة ومكة المكرمة .

فتحير شيخ الحرم وقال : ماذا يجب أن تعمل ؟ فقلت له : إنك تعرف أن مسلمى العالم كله يعترفون اليوم بالخلافة التركية ، ويعتبرون سلطان تركيا خليفتهم وزعيمهم الدينى ، لكن هذه العقيدة تظل دون فائدة تذكر ما لم تتخذ شكلا عمليا . ولما كان أساس الخلافة هو خدمة الحرمين ، لهذا يجب على السلطان أن يزيد من علاقاته وصلاته بالحجاج المسلمين الذين يأتون هنا كل عام ، وذلك عن طريق نائبه ، وأن يتعرف على حاجاتهم الدينية ، وأن يلبى لهم هذه الاحتياجات .

وعلى سبيل المثال يوجد فى بعض البلدان اختلاف بين المسلمين بسبب بعض القضايا ، فيجب على الخليفة أن يصدر أحكامه فيما يتعلق بتلك المسائل الخلافية ، ويرشدهم إلى البعد عن الاختلافات الدينية ، وإلى الاتحاد معا .

كما يجب أن تُؤسس فى المدينة المنورة دار للإفتاء تكون خاضعة لإشراف الخليفة ، يمكن لجميع مسلمى العالم أن يرسلوا إليها أسئلتهم الدينية وأن يستفتوها فيما يتعلق بالمسائل التى تواجههم . كما يجب تأسيس وكالة للأنباء تهتم بتغطية أخبار العالم الإسلامى والقضايا الإسلامية . وإذا ما لوحظ وجود ضعف دينى بين مسلمى بلد معين يمكن للخليفة إصدار فرمان معين لإرشاد هؤلاء الناس ؛ حتى يصلحوا من أحوالهم .

كما يمكن أخذ البيعة من الحجاج الذين يأتون هنا كل عام - عن طريق نائب الخليفة - على إطاعة أمير المؤمنين والاعتراف بالخلافة ، وأن يسمح لبعض الأفراد بعد عودتهم إلى ديارهم بأن يأخذوا البيعة من مواطنيهم على طاعة الخليفة ، على ألا يكون لمثل هذه البيعة أى تأثير على الأمور الداخلية أو الشئون السياسية فى تلك البلاد ، بل تؤخذ البيعة على اتباع أحكام الله والرسول وإطاعة حكم الخليفة ، وهو ما يعنى البيعة من أجل اتباع أحكام الدين .

قال شيخ الحرم إن هذه الاقتراحات طيبة للغاية ، لكن هناك عدة صعوبات أولها مشكلة اللغة ؛ فنحن لا نعرف لغات كل بلد ، فكيف يمكننا أن نشرح لهم ما نريد ؟ والأمر الثانى هو أننا إذا ما بدأنا هذا العمل فإن الحكومات الأجنبية سوف يساورها الشك فى أننا ندبر مؤامرة خطيرة ضد الكفار .

والرد على الأمر الثانى هو أنك إذا وضعت أساس عملك طبقا للأمور الدينية فلا سبب لأن يساور الشك الحكومات الأجنبية ، وإذا ساورهم الشك فيجب إفهامهم أن عملنا يتعلق فقط بأمور الدين ، وإذا ما بقى لديهم شك فإنكم يجب أن تلغوا أيضا الحج ؛ لأن الحكومات الأجنبية تنظر إلى تجمع المسلمين فى موسم الحج نظرة خوف وشك .

فقال الشيخ بعد تفكير وإمعان : سوف أنقل اقتراحاتك إلى أعضاء مجلس الخلافة ؛ فأنا ومعظم أعضاء الحكومة من المؤيدين لمثل هذه المقترحات ، لكن ما العمل ؟ إن الأعداء لا يمهلوننا حتى نعمل ما نصبوا إليه .

رئيس شرطة المدينة حسن بصرى

التقيت ذات يوم برئيس شرطة المدينة حسن بصرى ، وهو أيضا رجل ذكى ومناسب جدا ، وقد تحدثت معه فى القضايا سابقة الذكر ، والسلطات التى يتمتع بها شيخ الحرم داخل الحرم يتمتع بها رئيس الشرطة فى ضواحى المدينة المنورة .

لجنة بلدية المدينة

بعد تأسيس البرلمان بدأت التطورات الحديثة تصل المدينة المنورة ، فتأسست فى التو لجنة البلدية التى تتولى أمور النظافة والإضاءة فى

المدينة المنورة ؛ فإضاءة الشوارع فى حاجة ماسة إلى الإصلاح ، كما أن النظافة تحتاج إلى اهتمام سريع وفورى ، وخاصة فى منطقة الطهارة القريبة من الحرم حيث يوجد « بيت الخلاء » ، فالرائحة الكريهة المنبعثة من هناك لا تطاق ، وهى تتنافى مع الذوق والأدب . وقد تحدثت مع شيخ الحرم ومع سكرتير لجنة البلدية عن هذه الأمور ، فقالوا : لو تم إزالة المراحيض من هنا فسوف يعانى المصلون فى الحرم والحجاج معاناة شديدة ، ولا يوجد بالقرب من الحرم مكان يمكن أن تقام فيه المراحيض ، وإذا ما أقيمت المراحيض فى مكان بعيد ، فسوف يعانى الحجاج كثيرا ، فقلت : ليس من الضرورى إزالة المراحيض من هنا ، بل يجب الاهتمام سريعا وفورا بأمور نظافتها ، وعدم إهمالها سنة بعد أخرى .

العودة

والخلاصة أننى أقمت فى المدينة خمسة عشر يوما ، فى تلك الفترة كان لى نصيب من صحبة مشايخ الشاذلية والنقشبندية والرفاعية والخلوتية وغيرهم ، وقد شرفت بخلافة وإجازة الطريقة الرفاعية على يد شيخ مشايخ المدينة المنورة مولانا سيد حمزة الرفاعى ، كما تعلمت كثيرا من الأعمال الروحانية والعجائب من مشايخ المغرب .

وقد تقبلت كثيرا من الهدايا من مسئول حضرة رسول الله ﷺ ، وتشير هذه الأبيات ضمنيا إلى النوايا الخفية لما قاله :

يا ذا الذى أضمر على الأقدام   على الأمـور فـاســتـمع نظام

إياك هـذا الأمـر يـاهمـــام   تقـــدم عليـــه مــــر الأيام

ودّعت المدينة المنورة ، ووصلت إلى دمشق مستخدما طريق سكة حديد الحجاز ، ونزلت فى الفـندق الإسلامى دار السرور ، وهو أفخم من فنادق نصارى مصر ، نظيف ومرتب . أقمت فى دمشق هذه المرة خمســة أيام ، والتقيت بغالب بيه الحاكـم العام للشام وببقية مـشاهير دمشق ومشايخها .

حضرة الشيخ عبد الجليل مدير مجلة الحقيقة

رتب الشيخ عـبد الجليل مدير مجلة « الحـقيقة » عقـد جلسة مع كبار المـشايخ ، شرحت لهم فيـها أسلوب الذكر ، كمـا عرفنى على المشايخ ، ورتب أمر لقائى بهم ، فالتقـيت بحضرة الشيخ محمود أبو الشامات الشاذلى ، وهو مـن كبار شيـوخ الشام ، وحضــرة مـولانا عبـد الرحيم القـابى المكى الشاذلى ، وهو من مـشاهير شـيوخ مكـة المـكرمة ، يقيم فى الشام بعد أن حصل على مسند الطريقة الشاذلية ، وقد علمـه بعض مشايخ الطريقـة السنوسية بعض الأعـمال الخفـية ، سوف أثبت بعضها فى آخر الكتاب .

وصلت بيروت قادما من دمـشق ، فأقمت يومين ، ومنها ذهبت إلى بور سعيد . وكنت قد طلبت بعض الـنقود لتصلنى بواسطة شركة

« كوك » فى بـور سعيـد ، لكنى عرفت بعـد وصولى هنا أن مـعظم المبلغ أرسل إلى المدينة المنورة ، وكل ما وصل هنا إلى شركة « كوك » هو مبلغ ٨٠ روبية ، فتسلمتها وأرسلت برقية إلى الهند لأطلب المزيد من الأموال . ثم عدت ثانية إلى القـاهرة ، حيث أنفقت الروبيات فى يومين أو ثلاثة أيام ، وحين وصلت إلى بور سعـيد علمت أن الأموال لـم تصـل من الـهند . وهكذا وجدت نفـسى أواجه مشكلة عجـيبة ، وقضيت خمسة أو سـتة أيام عصيبة أواجه أكبر مصيـبَة ، فقد قاسيت فيها أيضا الجوع ؛ لأننى لم أكن أعـرف أحدا هنا ، كما لم يكن معى ما يمكن بيعه لأسد به رمـقى . وأثناء هذه المعاناة التقيت بمولانا بركت الله بهوبالى المقـيم فى طوكيو باليابـان ، وكان قادما من القـسطنطينية ذاهبا إلى اليـابان . وقد استفدت من صـحبته علمـا غزيرا ، لكنه لم يكن يـدرى أن مـعدتى تتـوق إلى الخبـز ، وأن عقلى لا يقـوى على الفهم والتفكيـر . وبعد جوع استمـر خمسة أيام اقتـرضت مبلغ مائة وخـمـسين روبيـة من أحـد الأصـدقـاء فـى دمـشق ، ثم ركـبت فى السفينة « الصين » التابعة للشركـة النمساوية ، ووصلت بمباى فى ستة عشر يوما .

كانت مـعاناة الجوع اخـتباراً من رب العـالمين أراد به أن يبين بأن العبد الذى أنفـق ألفى روبية فى هذا السـفر ، وتمتع بالسفر على طول الطريق ، وعاش فى هناء وسـعادة - عليه أن يذوق أيضا مـرارة الفقر والجوع ولو لمـدة بسيـطة . وإننى أشعر بالفـخر لمواجهتى هذه الحالة ،

وأعتبر هذه الأيام أفضل من جميع أيام السفر التى قضيتها فى راحة وهناء .

نزلت عدن عدة ساعات فى طريق العودة ، فقدم إلى سيد حسين حمود وبقية متوسلى السلسلة النظامية ممن أخذوا البيعة على يدى فى طريق ذهابى من هنا ، وحملوا معهم الهدايا النفيسة والطعام والنذور أيضا ، ومعهم عدد من الناس الذين دخلوا فى الطريقة . وقد عانيت من جراء تناولى الطعام المطبوخ بالفلفل الحر ، وبقيت ليومين وليلتين أعانى حتى ذقت طعم الموت ؛ فقد وصل الموج إلى مداه ، وكادت السفينة أن تغرق ، وكان النوم أو الرقود من المحال ، بينما نتائج تناول الفلفل الحر استلزمت الذهاب إلى دورة المياه مرات عديدة ،ولا يعرف الصبابة إلا من يعانيها . كانت هذه المعاناة الأخيرة عوضا عن السعادة الأولى ؛ إذ يجب على الإنسان أن يتذكر فى كل وقت أن الحزن كامن فى السعادة ،وأن السعادة تكمن فى الحزن .

عند مغادرتنا عدن ركب السفينة اثنان وعشرون سجينا هنديا مسلما ، وقد خرب طعامهم بسبب العاصفة ، فقاسى المساكين ألم الجوع . وكنت أطلب من القبطان فى كل وقت أن يقدم لهم الطعام ، لكنه لا يمكن أن يفعل ذلك دون أن يحصل أولا على ثمنه . وفى النهاية قدمت للقبطان ما تبقى من النذور التى تسلمتها من عدن ، وما أثمنها من نذور ، وهكذا توفر لهؤلاء المساجين الطعام حتى وصلوا إلى بمباى .

وفى الوقت الذى نزلت فيه إلى شاطئ بمباى لم يكن فى جيبى مليم واحد ، وهكذا اقترضت أجرة الحمالين والعربة التى أوصلتنى إلى فندق شاهجهان .

الاستقبال

فى دهلى كان واحدى قد أعد مراسم استقبال رائع ، بينما كان حكيم محمود على خان ماهر أكبر آبادى وبقية الأحباب فى انتظارى ؛ ليرحبوا بقدومى ،لكنى لا أميل على الإطلاق إلى مثل هذه التقاليد ، ولهذا دخلت بمباى فى صمت دون أن أخبر أحدا بذلك . ونزلت الفندق ، لكن حكيم محمود ماهر عرف الخبر بشكل أو بآخر ، فقام بتقديم واجب الضيافة لى أثناء إقامتى فى الفندق ، وطوقنى بمحبته .

والخلاصة أننى اقترضت من أخى مولوى سيد على وجدى المقيم فى بمباى ثمن تذكرة القطار ،ووصلت إلى دهلى فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل حين كان واحدى يغط فى نوم عميق . ومن الواضح أن واحدى غضب كثيرا لأننى ضيعت عليه ما بذل من جهد فى الإعداد لاستقبالى . ودخلت الفراش فى صمت وهدوء فى الساعة الواحدة والنصف فى ليلة من ليالى رمضان الأخيرة دون أن يطوق أحد عنقى بأكاليل الزهور ، وهو ما لم يكن متوفرا فى حالة استقبالى . ولا أدرى إلى أى وقت كنت سأظل وسيظل معى الأحباب مستيقظين

دون نوم ، ولم تكن النتيجة سوى أننى سأسطر بعض الصفحات هنا لأشكرهم ، وليخبرنى القراء هل فيما فعلت راحة للجميع أم فيما كانوا ينوون فعله ؟!

نتائج وإرشادات ضرورية

فى النهاية أود أن أشير إلى أن رحلتى هذه ليست ذخيرة للمعلومات السياسية والاجتماعية والحضارية وغيرها ، كما أننى لم أجعل تلك الأمور نصب عينى أثناء سفرى . فإذا ما أراد أحد التعرف على مثل هذه الأمور فإنه يجدها فى رحلة خواجه غلام الثقلين المحامى فى بلدة ميرته ، أو فى رحلة منشى محبوب عالم رئيس تحرير « بيسه أخبار » ، أو فى كتاب « زيارت نامه » لمولوى عاشق إلهى . وهو كتاب مفيد جدا للمسافرين فى رحلة دينية ؛ ففيه شرح لطريقة الحج والزيارة طبقا لأصول الفقه ،كما تضمن الأمور العامة الضرورية فى السفر . كما أن رحلة خواجه غلام الثقلين من الرحلات المفيدة للباحثين عن المعلومات السياسية والحضارية .

أما كتابى هذا فهو يتضمن معلومات خاصة ومحدودة للقراء . وأعتقد أن القراء سوف يهتمون به من حيث كونه كتابا أدبيا وزادا روحانيا ، كما أنهم سيدركون أن كاتبه لا يجهل أيضا الأمور السياسية والحضارية وغيرها ؛ لأنه يشير إليها فى أماكن متفرقة ، لكنها لم تكن هدفه الأساسى .

لقد حاولت أن أرسم بالكلمات صورة للأماكن المباركة ، وأن أعبر عما كان يجيش فى قلبى ؛ حتى يشعر به القراء . وبعد قراءة ما كتبته عن مشاعرى تلك ، إذا ما سافر أحد إلى البلاد المذكورة ، فإن أثرا خاصا سيطرأ على قلبه إذا ما زار تلك الأماكن المباركة . وقد كان هذا هدفى الأساسى ، وهو أن أبث فى الآخرين الشعور الروحانى .

إن من يريد الذهاب إلى تلك البلاد ، يلزمه الانتباه إلى ما يلى :

١ - يجب أن يكون معهم رفيق السفر المناسب وإلا أصيبوا بالملل ، فإذا ما كان معهم رفقة فالسفر فى الدرجة الثالثة أنسب وأكثر راحة .

٢ - يجب عدم الثقة أو الاعتماد على الحمالين أو المترجمين أو المرشدين المحترفين ، مهما كانت هيئة الواحد منهم توحى بأنه رجل تقى وورع . ولو كنت تعرف العربية فلا داعى للاستعانة بمرشد ، وإلا فلا مفر ، وفى هذه الحالة لا يجب الاعتماد كلية عليه ، وانتبه لكل أمر .

٣ - إذا تضايقت من أى مترجم أو ملاح أو مزور ، فاكتب ما أصابك منه بوضوح فى الشهادة التى سيطلبها منك بعد خدمته لك . وقد فعلت هذا فى كل مكان ، وكان المرشد أو الملاح الذى يجهل الأردية يأخذ الشهادة ويمضى فرحًا مسرورا . وقد ذكر لى حاذق الملك أن مرشدا خبيثا فى الإسكندرية لا يزال يحتفظ بالشهادة التى كتبتها له ، وكان يعرضها أمام الناس ظنا منه

بأننى كتبت له شهادة استحسان ومدح ، إلا أننى كتبت الحقيقة واضحة . وعادة ما يتأثر الناس بتملق المرشدين لهم ، فيشهدون لهم بغير الواقع ، ويكتبون لهم ما يفيد ذلك ، وهؤلاء يخدعون بالتالى أهل وطنهم دون قصد منهم .

٤ - يجب على الحجاج أن يذهبوا بأنفسهم لمشاهدة الفندق قبل النزول فيه ، ولا يضعون في اعتبارهم ديانة صاحب الفندق سواء كان مسلما أو نصرانيا أو يهوديا ؛ لأن أصحاب الفنادق المسلمين عادة ما ينهبون الحجاج ، كما أنهم لا يقدمون لهم سبل الراحة اللازمة . وقد يقول المرشد أو المزور إن أصحاب الفنادق المسلمين يهتمون بتهيئة سبل الصلاة ، فلا تذهبوا لفنادق النصارى ، لكن هذا مجرد خداع ؛ لأن هؤلاء الناس يأخذون نسبة معلومة من الفندق مقابل كل نزيل يأتون به للفندق . ففى فنادق اليهود والنصارى تقام الصلوات بحرية كاملة ، كما أن فنادقهم أكثر نظافة من فنادق المسلمين .

لقد كتبت هذا إفادة لأبناء وطنى من المسلمين ؛ حتى لا يذبحوا بسكين الجزارين الكالة ، وإلا فأنا أيضا أفكر فى نفع المسلمين وفى مصلحتهم . ولكن أعتقد أن من واجبى أن أواجه الناس الذين يؤذون غرباء المسلمين ويسلبونهم - دون وجه حق - أموالهم ؛ إذ يجب على أن أكون أكثر تعاطفا مع أبناء وطنى المسلمين .

٥ - يجب أخذ جانب الحيطة والحذر من المسافرين الذين يبدون تعطفا ظاهريا دون داع أو ضرورة ؛ فمعظم هؤلاء يكونون عادة من الأشرار .

٦ - لا تؤجر بنفسك العربة بل اطلب العون من موظفى الفندق .

٧ - يجب أن تكون حذرا فى كل مكان ، وأن تتحلى بالثبات والشجاعة ؛ فالضعف وإظهار جانب اللين فى كل مكان غير مفيد ، فالثبات والانتباه والتصنع أمور تفيد أيضا .

٨ - إذا واجهتك مشكلة ما فاذهب مباشرة إلى القنصل الإنجليزى ، وأخبره بما حدث . وسوف يقدم لك المساعدة .

٩ - انتبه أثناء الشراء ، ولا تجعل المترجم يخدعك ، انظر ما تريد شراءه فى أكثر من مكان قبل أن تقرر الشراء .

١٠ - لا تلجأ إلى البخل أو التقتير على نفسك ، فيجب أن تقضى أيام سفرك فى راحة وسعة ، فالإقامة فى فنادق قذرة وتناول الطعام فى مطاعم قذرة فيه توفير بلا شك ، لكن الإنسان قد يمرض فجأة ، ومرض السفر يكلف نفقات مضاعفة .

وهكذا عليك أن تتذكر هذه النصائح العشر ، أما التفاصيل فاقرأها فى صفحات الرحلة .

الأعمال المخفية ونسخ الكيميا

لقد نشرت بعض قصص السفر العجيبة فى « مجلة صوفى » ، وفى « نظام المشايخ » ، وفى جريدة « زميندار » وغيرها من الجرائد. وإثباتها هنا تطويل لا داعى له ، كما أن بعض الأعمال نشرت فى كتاب « فيضان سنوسى » ، لكنى أثبت هنا بعض هذه الأعمال .

تذكر أن الأعمال التى أفضلها لا علاقة لها بالكيمياء ، وأنا أعتبر أعمال الكيميا تضييعًا للوقت والجهد ولا طائل من ورائها . لكن فى بلاد المغرب أى فى مراكش والجزائر وتونس وغيرها تروج مثل هذه الأمور بين الناس بكثرة ، فقد كتبت جميع تلك الأعمال والنسخ التى جاء ذكرها حين التقيت بمشايخ المغرب ، وأثبتها هنا وأرى أنه بدلا من العمل بها ، من الأفضل اعتبارها معلومات عجيبة لا أكثر ولا أقل . ومن الضرورى أيضا أن أشير إلى أنه لا يجب على أى شخص أن يكتب إلى مستفسرا عن هذه الأعمال والنسخ ؛ فليس لدى وقت لأشغل نفسى بمثل هذه الأمور .

تأثير أسماء البارى تعالى

(يا رحمن) فى ساعة « الزهرة » يذكر هذا الاسم بعدد حروف الجمل[٥٣] مع ذكر اسم الطالب والمطلوب ، ثم ينفخ فى اللبان . وحين يجد فرصة للذهاب عند المطلوب يضع اللبان على النار ، فإذا

ما شم رائحته الطيبة ، جُن بالطالب وصار مطيعا له ، وعن طريق هذا يمكن للعلاقة بين الزوج وزوجه أن تكون على خير ما يرام .

(يا مهيمن) الشخص الذى يقرأها دائما بعد صلاة العشاء بما يساوى عدد حروفها بحساب الجمل(٥٤) سوف يرى فى منامه أحداث المستقبل .

(ياشهيد) هذا الاسم موجود لدى سبعة شيوخ مختفين فى أسرار الدائرة الربانية ، والشخص الذى يتعود النطق به مائتى مرة بعد كل صلاة يهبه الله ملكة الكشف ، فيرى كل ما هو مختف عن أنظار الآخرين ، ولا يجب أن يتوقف مرة واحدة ، وسوف يلاحظ تأثير ذلك بعد مدة طويلة .

نقش تسخير

الشخص الذى يعتاد قراءة اسم « يا هادى » مائة مرة ، ولا يتوقف أبدا عن ذلك ، ويعقد هذا النقش على ساعده ، فسوف تكون جميع المخلوقات مسخرة له ، وهذا هو النقش :

١	٣٠	&	١	٤
٣٠	الهادى	الهادى	الهادى	&
&	الهادى	&	الهادى	١
١	الهادى	الهادى	الهادى	٣٠
٤	١	٨	٣٠	١

تأثير الآيات القرآنية

هذه الآية لها تأثير عجيب وغريب من أجل إصابة العدو بالبلاء . وقبل العمل يجب معرفة طالع نجوم العدو ، فى أى برج كانت ولادته ، فإذا لم يعرف هذا الأمر فيمكن معرفة ذلك من خلال اسمه ، ويمكن للمنجمين معرفة ذلك ، أى معرفة اسم نجم وبرج فلان المسمى بكذا . وحين يعرف طالعه ، وفى الوقت الذى يكون فيه القمر فى نفس البرج المتعلق بطالع العدو ، تكتب هذه الآية على ورقة سوداء :

« فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ».

ثم يكتب بعدها اسم العدو ثم تحرق هذه الورقة فى النار ، فسوف ينتهى العدو تماما .

الكيميا

قال العارف الكامل حضرة الشيخ السنوسى- الذى التقيت به فى دمشق - أن الحصول على كل شىء والتوفيق فى كل شىء يكمن فى حفظ السر ، والناس جنوا كثيرا شوقا إلى معرفة فن الكيميا(٥٥) ، وأضاعوا آلافا مؤلفة من الروبيات فى سبيل تعلمه ، لكنهم لم يراعوا أصول الحفاظ على السر ، ولهذا لم يحالفهم التوفيق .

فقلت : هل أنت من القــائلين بوجود الكيميا ،فــقال : ألم تقرأ حديث رسول الله ﷺ الذى جاء فيه : « كل عشبة فى الأرض نابتة فيها حكمة الله ثابتة » ، وهكذا فكما خلق الله الفضة والذهب وغيرها من المعــادن ، فقد أوجــد فى الأدوية والأعشــاب خواص عــجيــبة ، وأعطى هذه الأشيــاء قدرة على أن تتشكل وتبــدل من هيئتــها فتــأخذ شكلا مغــايرا . لكن تذكر أن أصل الكيــميا يكمن فى حــفظ السر ، وليس فى كـثرة الإنفــاق ، فالنــاس المهووســون الذين ينفقــون آلاف الروبيات فى سبيل تجميع الأدوية الغالية مخدوعون تماما ؛ ففن الكيميا يمكن أن يناله الإنسان دون أن ينفق شيئا .

بعــدها ذكــر لــى الشــيــخ خــواص بعض النــباتات ، وأفــهــمنى أصول حفظ الســر ، وأنا هنا أذكر خاصيــة وكيفية عــشب واحد منعا للإطالة.

عشب الكريبونا

ذكر حضرة الشيخ عشبا قال إن اسمه « كريبونا » هكذا ! ثم قال إن هذا العــشب ينبت بالقــرب من نهــر النيل وعلــى جبــال الشــام ، وبالنسبة للهند قال بأنه يمكن البــحث عنه فى الجبال الخضراء . وشكله يعرف مــن أوراقه المدورة ، وحافــتهــا لها أسنان مــثل أسنان المشط ،

وهى مثل أوراق شجرة النيم ، ولونها يميل إلى الحمرة . إذا ما قطعت هذه الأوراق ، ودعكتها فى اليد ، يشعر الإنسان فى يده بشيء كالدهن ، وعلى هذا العشب يعيش نوع من النمل الصغير . وأسهل طريقة للتعرف على هذا العشب هو أنه لا ينبت فى ظله حشائش من أى نوع ، كما أنه لا ينمو أكثر من قدر شبر ، ورائحته مثل رائحة المسك ، وفى بعض الأوقات إذا ما قطعت أوراقه أو ساقه خرج منها لبن لونه أصفر .

وقال الشيخ إنه فى بداية الشهر الغربى حتى العاشر منه تنزل بركة السماء على هذا العشب ، وفى الليل تلمع أوراقه وتنير مثل اليراعة . فعلى الطالب أن يذهب فى أية ليلة من تلك الليالى ويقطع هذا العشب ، لكن قطعه صعب جدا ؛ لأن هذا العشب يبرق ويلمع من بعيد ، فإذا ما اقترب منه الإنسان اختفى بريقه وذهب ضوءه .

فذكر الشيخ هذه الحيلة ، وهى أن يأخذ الطالب عودا من البوص يضع عليه قماشا ، ويلقى بالقماش من بعيد على العشب اللامع ، ثم يقترب وينزع العشب من جذوره ، ويجففه فى الظل . وحين يجف العشب يطحنه جيدا ، ثم يضع الرصاص فى الشهد (عسل النحل) ويذيبه فيه ، بعد ذلك يضع عليه العشب المطحون ، عندئذ يتحول الرصاص إلى ذهب خالص .

وذكر أنه يوجد نوعان آخـران من هذا العشب ، نوع أوراقه مثل أوراق الريحان ، وطوله قـدر شبر ، وأوراقه من الخارج حمراء اللون ، ومن الداخل بيضاء تميل إلى الخضرة ، ويوجد هذا النبات فى الأرض اللزجة التى يتجمع عليها النمل ، ورائحته نفاذة ، ويخرج منه لبن أبيض .

إذا تم إحمـاء الحديد الصـافى ثم وضع عليه هذا العـشب تحول الحديد إلى فضة .

أما النوع الثانى فهو عشب له ثلاثة فروع ، وأوراقه شبيهة بأوراق الحناء ، ويخرج منه لبن لونه أحمـر ، فإذا وضع على الرصاص تحول الرصاص إلى ذهب .

احتياطات واجبة

قال الشـيخ : يجب على من ينزع العـشب من الأرض أن يكون طاهرا نظيفا ، وألا يتكلم مع أحد حـين ينزع هذا العشب من منبته ، ووجود غـير الإنسـان وقـت تحـويل المعدن إلى ذهب أو فـضة مـضر للغـاية . وقال إن النجـاح فى هذا الأمر يعـتمد أسـاسا على الـسرية المطلقة ، أى يجب عدم إطلاع أى شخص على السر ، وأن يتم عمل كل شىء فى غاية السرية .

لقد كتبت ما سمعته من الشيخ ، لكننى لم أعقد النية مطلقا على العمل بما قاله ، ولا آمل ذلك فى المستقبل أيضا .

بعد عودتى من السفر استضافنى أحباب الطريقة حاجى فتح محمد خان نظامى جمالى خدمتى وبابو حبيب الله خان فدائى نظامى قلندرى عدة أيام على جبال دلهوزى ، فى ذلك الوقت شاهدت هذا العشب فى أماكن عدة على جبل دلهوزى . ورغم شوق الكثير من الناس لم أذكر هذا الأمر لأحد أبدا ؛ لأننى اعتقدت ولا أزال أعتقد أن مثل هذه المحاولات ما هى إلا مضيعة للوقت ، إلا أننى أرى أن الوقت قد حان لأقول أننى ذكرت فى هذا الكتاب ما عرفت وشاهدت ، فربما يستفيد شخص ما بما كتبت ، وحتى لا يتهمنى أحد بتهمة من كتم سرا . !

حواشي وتعليقات

١ - يبدأ الركوع الأخير من الآية ٣١ .

٢ - قوله تعالى « ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله » لقمان آية ٣١ .

٣ - يقصد قوله تعالى « ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » لقمان آية ٣١ .

٤ - يشير إلى قوله تعالى « وإذا غشيهم موج كالظلل » إلى قوله تعالى « وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » لقمان آية٣٢ .

٥ - لم يذكر المؤلف فى كتابه هذا شيئا عن سفره إلى القسطنطينية ، وقد سافر إلى الشام وفلسطين .

٦ - ربما نسبة إلى الشيخ معين الدين جشتى .

٧ - أى التربية بمعنى التدريب والتعليم معا .

٨ - القوالى نوع من فن الإنشاد الدينى شبيه بالموال ، ويسمى المنشد « قوال » .

٩ - نوع من الحلوى يتناوله الهندوس عادة فى إفطار يوم الزفاف .

١٠ - التوت البرى، وهو حلو حامض ، شرابه مفيد للصفراء .

١١ - مولوى لقب يطلق على عالم الدين ، وهو مثل شيخ أو فقى .

١٢ - شبلى النعمانى من علماء الهند الكبار ، ولد عام ١٨٥٧ م فى أعظم كره ، كتب بالأردية والفارسية والعربية ، وهو مؤرخ وأديب . انظر الأدب الأردى الإسلامى ، د . سمير عبد الحميد ، مطابع الفرزدق بالرياض ١٩٩٢ م ، ط ١ ، ص ٤٠٨ - ٤٢٢ .

١٣ - جماعة هندوسية متعصبة تهدف إلى الضغط على المسلمين لحملهم على ترك دينهم واعتناق العقيدة الهندوسية .

١٤ - أى التأكد من أن الذبح كان على الطريقة الإسلامية . .

١٥ - شداد ادعى النبوة وأقام جنة ارم بدلا من الجنة الإلهية ، وبدلا من الحور ملأها بالنساء الجميلات والغلمان . ويحكى أنه حين كان يعاين جنته سقط من على فرسه ومات . وكانت الحديقة مكونة من ثلاثة أدوار كل دور بطريقة مختلفة ، فرهنك آصفية مجلد ٣ .

١٦ - جزيرة فى مدخل خليج عدن .

١٧ - وذلك فى رحلته بالأردية بعنوان سفرنامه روم ومصر وشام ، وصدرت الطبعة الأولى من الرحلة فى دهلى ١٨٨١ م . انظر الصفحات الأولى من كتاب الجزيرة العربية فى أدب الرحلة الأردى للدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ١٩٩٩ م .

١٨ - سيد أحمد خان مؤسس جامعة على كره الإسلامية بالهند . انظر الأدب الأردى الإسلامى ، الناشر جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ١٤١١ هجرية ، ص ٣٨٧ - ٣٩٧ .

١٩ - يقصد ما يعرف بالملاية اللف .

٢٠ - استخدم المؤلف مصطلح « بندت » ، وهو مصطلح هندوسى يستخدم لعالم الدين الهندوسى ، ويقابله فى الإسلام الشيخ أو الفقيه المسلم .

٢١ - جاء فى الأصل المنارة ، وتعنى أيضا المئذنة .

٢٢ - تغير الحال هذه الأيام ، وقد اهتمت الحكومة فى مصر حاليا بالمسجد ورصدت الأموال لترميمه ، كما اهتمت أيضا بالمنطقة المحيطة به .

٢٣ - جى لفظة تعبر عن الاحترام . وتحتل مصر مكانة فى التراث الهندى ؛ فكلمة مصرى مثلا تعنى سكر النبات ، كما يقولون للساحر الحاذق « مصرى جادوكر » بكاف فارسية ، بينما توجد أسماء كثيرة فى طب الأعشاب تلحق بها كلمة مصرى مثل ثعلب مصرى وهو اسم نبات ، وغيرها كثير .

٢٤ - يقصد قامة فرعون موسى .

٢٥ - فرقة فى الهند وباكستان تنكر السنة النبوية وتعتبر القرآن الكريم هو المصدر الوحيد للتشريع . انظر فتنة إنكار السنة فى شبه القارة الهندية للدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، مكتبة دار السلام بالرياض ١٩٩٣ م .

٢٦ - ولد الزبير باشا عام ١٨٣١ م بجزيرة واوسى القريبة من الجبل ، وحفظ القرآن فى كتاب بالخرطوم ، ثم عمل بالتجارة مع ابن عمه عبد القادر سنة ١٨٥٦ م ، ثم عاد إلى الخرطوم سنة ١٨٥٨ م ، وواصل التجارة مع ابن عمه الثانى عبد الرحمن سنة ١٨٥٩ م ، ثم عاد للخرطوم سنة ١٩٦٣ م . للمزيد من المعلومات انظر كتاب الزبير باشا يروى قصته فى منفاه بجبل طارق ، تعريب وإعداد خليفة عباس العبيد ، سلسلة أعلام التاريخ السودانى رقم ٢ ، صدر عن مركز الدراسات السودانية عام ١٩٩٥ م .

٢٧ - انظر سلسلة نسب الزبير باشا كما أثبتها خليفة عباس العبيد فى ترجمته لمذكرات الباشا ، وهى المذكرات التى أدلى بها للصحفية البريطانية الآنسة فلورا شو ونشرتها فى مجلة مراجعات معاصرة Contemporary Review عام ١٨٨٧ م تحت عنوان قصة الزبير كما رواها بنفسه (انظر الترجمةص ١٢١) . ويذكر المترجم اتصال نسب الزبير إلى عبد المطلب ؛ فهو من شجرة عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصى بن كلاب .

٢٨ - أراد الزبير باشا السفر إلى مصر لتحسين العلاقات مع الخديوى إسماعيل ، فوصلها فى يونيو ١٨٧٥ م . وقد عومل معاملة حسنة فى مصر ، ووضع أولا فى قصر العباسية ثم فى قصر الجزيرة ثم حددت إقامته . والحقيقة أن الخديوى خشى منه وقال له : أخشى - إذا أعطيتك السلطة التى تريد - أن تؤسس إمبراطورية فى دارفور تنافس بها بل وربما تخضع لها مصر ذاتها . . ولذلك فعليك أن توطّن نفسك على أن تعيش هنا معى فى القاهرة ، وصدع الزبير للأمر ولكن على مضض (المصدر السابق ص ٩٣ وما بعدها) .

وفى سنة ١٨٨٠ م اقترح غوردون على الخديوى نفى الزبير باشا من مصر لكن مجلس الأحكام والنظائر فى القاهرة رفض . وفى سنة ١٨٨٥ عند استفحال الثورة المهدية حوصر قصر الزبير بالقللى الذى أهداه له الخديوى سنة ١٨٨٠ م ، وبحيلة خبيثة أخذوه إلى الإسكندرية ، ومن هناك تم نفيه إلى جبل طارق لمدة ثلاثين شهرا (انظر الكتاب سابق الذكر الجزء الثانى) .

٢٩ - رجع الزبير باشا إلى السودان سنة ١٩٠٣ م ، وبقى هناك حتى سنة ١٩٠٥ م . وفى سنة ١٩٠٦ عاد إلى مصر وأقام فى حلوان حيث دون مذكراته (بالإنجليزية) . وكانت عودته النهائية إلى السودان فى ١٠/٨/١٩١٢ م حين غادر القاهرة فى قطار خاص أقله وحاشيته التى قاربت الثلاثمائة شخص . وقد توفى سنة ١٩١٣ م وشيعت جنازته فى موكب رسمى مهيب (انظر المصدر السابق ص ١١٠) .

٣٠ - يقصد الشوارع التى توجد بها المحلات التجارية .

٣١ - مبيرزا حيرت الدهلوى من أدباء الهند عاش فى زمان المؤلف .

٣٢ - يقصد كتاب تاريخ التمدن الإسلامى الذى ترجم إلى الإنجليزية والأردية . وقد تعرض الكتاب للنقد في الهند ؛ فقد كتب عنه العلامة شبلى النعمانى مقالات نشرت بالعربية بعنوان الانتقاد على التمدن الإسلامى ، ثم ترجمت إلى الأردية (انظر مقالات شبلى المجلد الرابع ، طبع أعظم كره ١٩٣٦ م ، ص ١٣٣ وما بعدها) .

٣٣ - كان واحدى رئيس تحرير مجلة حلقة نظام المشايخ ، واليد اليمنى للمؤلف .

٣٤ - من مشاهير متصوفة الهند .

٣٥ - هكذا فى الأصل .

٣٦ - (حاشية من المؤلف) قبل قراءة هذا الدعاء يجب على القراء ملاحظة الركوع الأول فى سورة مريم ، عندئذ يشعر القارئ بروحانية الدعاء .

٣٧ - سورة مريم ، آية ٢٣ .

٣٨ - فى الأصل كلمة « بان » وهو ورق أخضر مثل ورق التوت الأخضر ، يمضغ بعد إضافة بعض المواد اللزجة على سطح الورقة ، ومنها لون أحمر . ويسبب مضغ « البان » نوعا من الاسترخاء الذهنى ، والله أعلم .

٣٩ - فى الأصل (المسلمون) ويقصد الأتراك .

٤٠ - لم يثبت المؤلف النص ولم أعثر عليه ، وهذه ترجمة لما أثبته بالأردية .

٤١ - هذه العبارات من شطحات المؤلف الصوفية .

٤٢ - شبلى النعمانى فى رحلته سابقة الذكر .

٤٣ - فى الأصل (سيته) وهو لقب يطلق على التاجر فى الهند، شبيه بقولنا فى العربية « شهبندر التجار » ، بينما حاجى يعنى الحاج .

٤٤ - نسبة إلى صلاح الدين الأيوبى .

٤٥ - لقب يعني الأديب الكاتب وليس الشاعر ، ويعنى أيضا الباشكاتب .

٤٦ – أى الإسلامى .

٤٧ – لم يرد ذكر هذا الوصف فى هذا الكتاب ،وربما أثبته المؤلف فى إحدى مقالاته التى نشرت بالصحف أو المجلات .

٤٨ – ازدهرت الآن بلدة تبوك خاصة بعد أن جعلت المملكة العربية السعودية منها منطقة عسكرية كبيرة ، ويوجد بها آثار يحرص الرحالة الهنود على مشاهدتها (انظر سفر نامه أرض القرآن رحلة المودودى ، تحرير محمد عاصم ، ط لاهور ١٩٩١ م ، ص ٢٦٣) .

٤٩ – وصلت عمارة المسجد النبوى الآن أقصى اتساعها فى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز . انظر مدينة النبى بين الأمس واليوم للدكتور خالد عباس ، ط لاهور وأنظر أيضا ما كتبه الدكتور محمد العوفى فى كتابه عن توسعة الحرمين ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

٥٠ – انتهى هذا الأمر بعد توحيد الملك عبد العزيز بن سعود للجزيرة العربية وتأسيس المملكة العربية السعودية .

٥١ – كانوا من قادة الأمة الإسلامية فى الهند آنذاك .

٥٢ – للمزيد من المعلومات عن الأعلام والصحف انظر الأدب الأردى الإسلامى للدكتور سمير عبد الحميد ، صفحات متفرقة .

٥٣ – يقصد قيمة الحروف طبقا لترتيب « أبجد » ، وهو أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت تغذ ضظغ » .

٥٤ – أى مجموع قيمة حروف « يا مهيمن » ، وهو ١٥٥ (ى+أ+م+هـ+ى+م+ن) .

٥٥ – المقصود بالكيميا فن تحويل المعادن إلى ذهب .

فهرس الصور

الصـــــورة رقـم ١ : عملة معدنية مصرية .
الصـــــورة رقـم ٢ : طوابع بريد مصرية .
الصـــــورة رقـم ٣ : أسرة مصرية تتناول الطعام .
الصـــــورة رقـم ٤ : أهرام مصر الشهيرة .
الصـــــورة رقـم ٥ : أبو الهول .
الصـــــورة رقـم ٦ : الاحتفال بالمولد النبوى فى مصر .
الصـــــورة رقـم ٧ : الكنيسة الكبرى فى بيت المقدس .
الصـــــورة رقـم ٨ : منبرعمر رضى الله عنه فى بيت المقدس .
الصـــــورة رقـم ٩ : مزارات حضرة إبراهيم وحضرة يعقوب وحضرة إسحاق وحضرة يوسف عليهم السلام فى بيت المقدس .
الصـــورة رقم ١٠ : حضرة يوسف وملك مصر .
الصـــورة رقم ١١ : الاحتفال بمولد حضرة موسى فى بيت المقدس .
الصـــورة رقم ١٢ : الحجر المعلق يظهر فى أرضية مبنى فى بيت المقدس .
الصـــورة رقم ١٣ : زعيم دينى يهودى مع التوراة فى بيت المقدس .
الصـــورة رقم ١٤ : الحاكم التركى لبيت المقدس مع جميع الأمراء والمشايخ عند فتحة بسرداب (نقب) الصخرة بعد خروج حسن نظامى من السرداب .

الصــــورة رقم ١٥ : صـورة بجـوار المكان الذى تربـى فـيـه حـضـرة عيسى داخل مسجد حضرة سليمان .

الصــــورة رقم ١٦ : الجـامع الأمــوى فـى دمــشق والمنارة التـى سيهبط عليها حضرة عيسى !

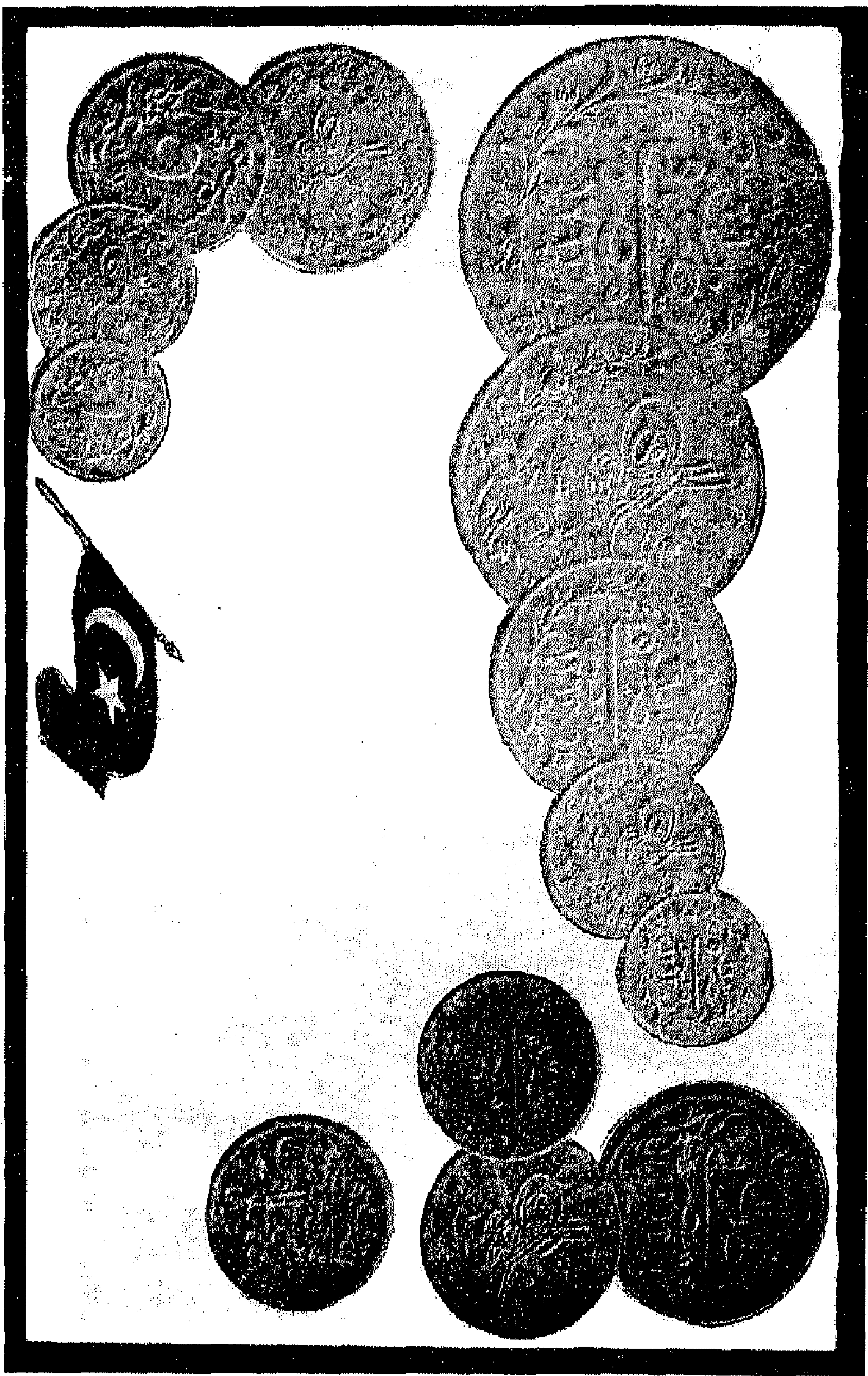
الصــــورة رقم ١٧ : قوالى تنشده فرقة المولوية بالشام .

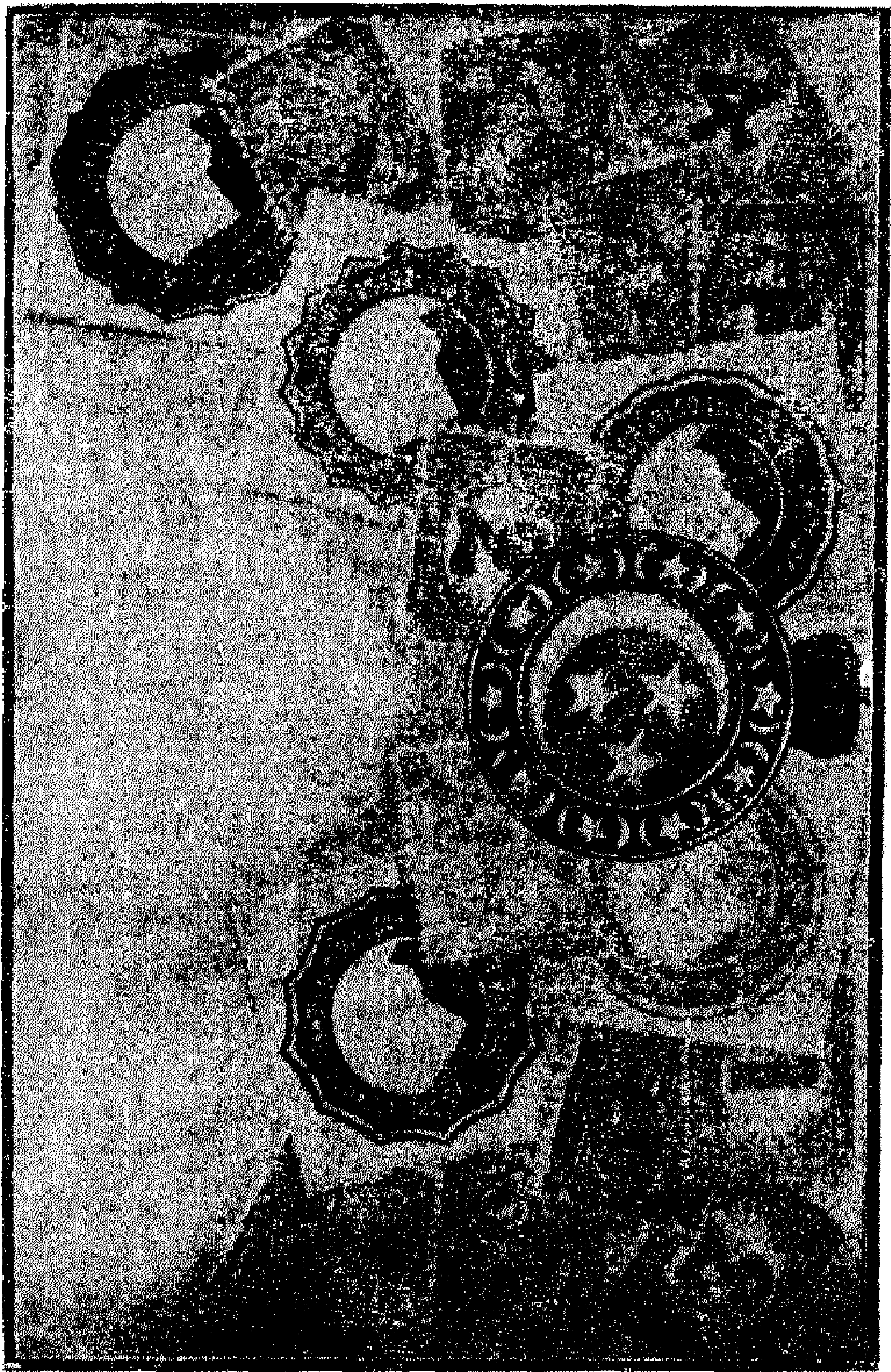
الصــــورة رقم ١٨ : منظر لفرقة المولوية فـى حالة وجد بالشام .

الصــــورة رقم ١٩ : درويش صوفى مشغول بتلاوة القرآن الكريم .

الصــــورة رقم ٢٠ : مزار السلطان المجاهد صلاح الدين فى دمشق .

الصــــورة رقم ٢١ : درويش صوفى من الأكراد .

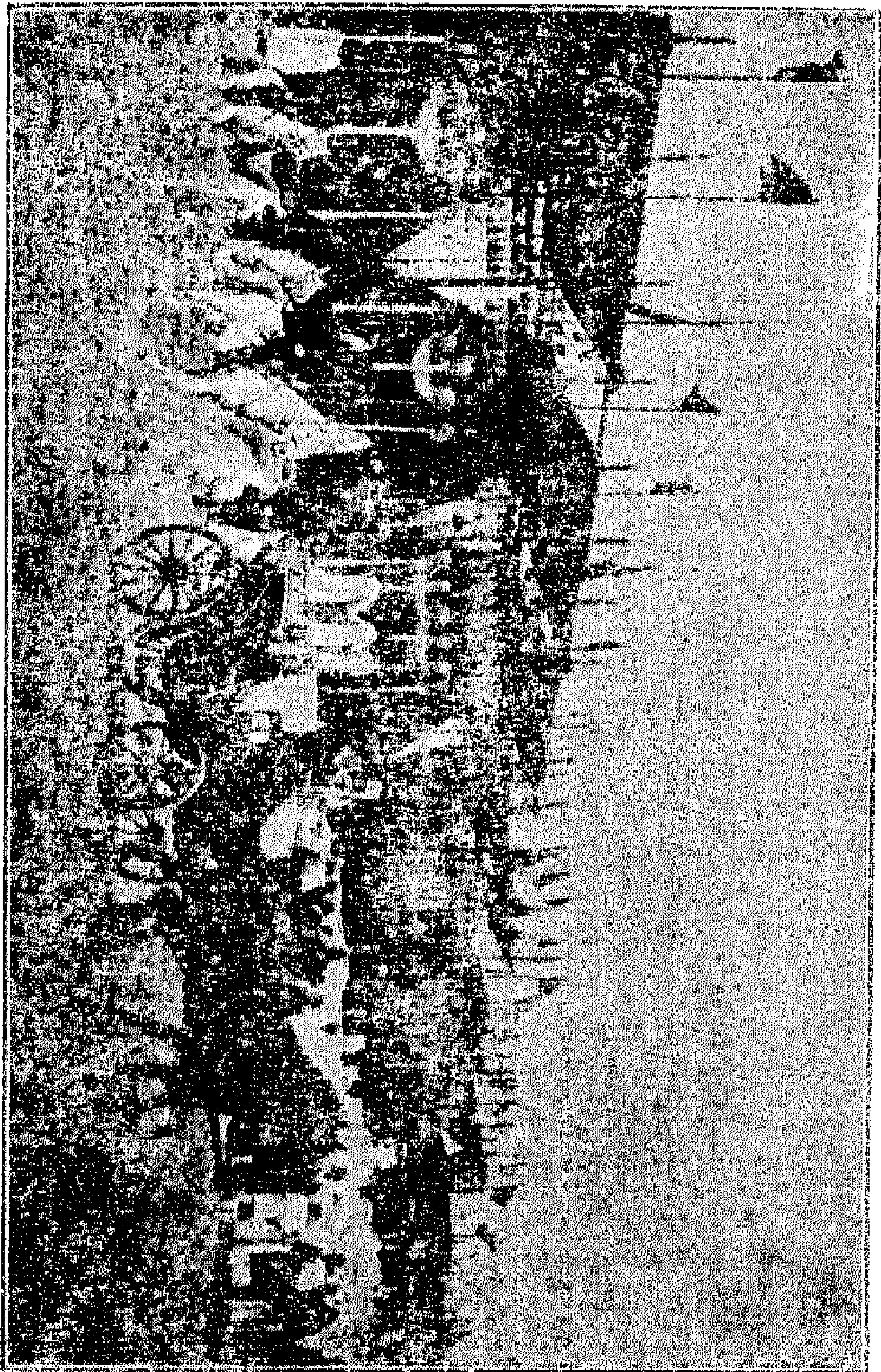


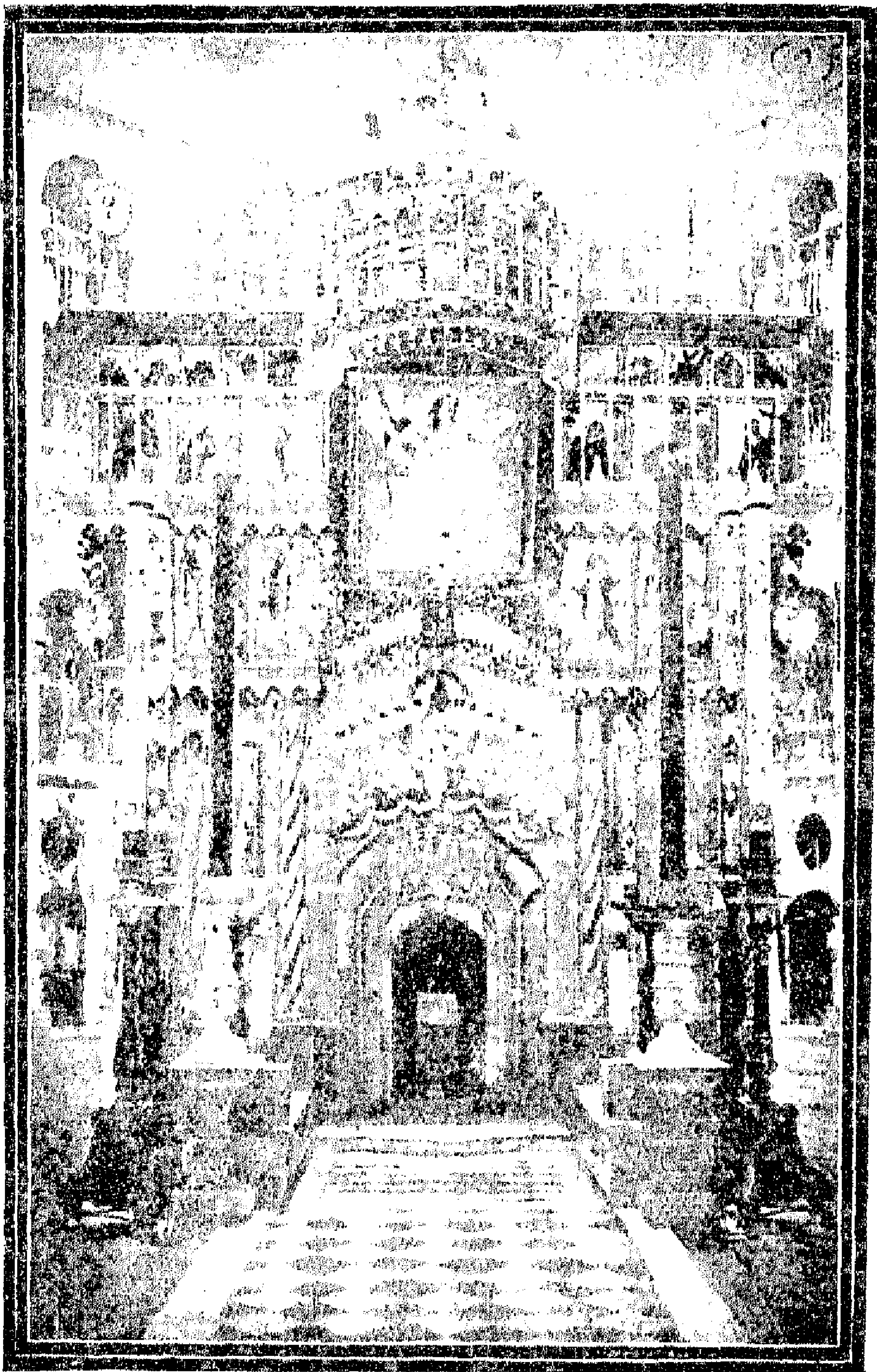


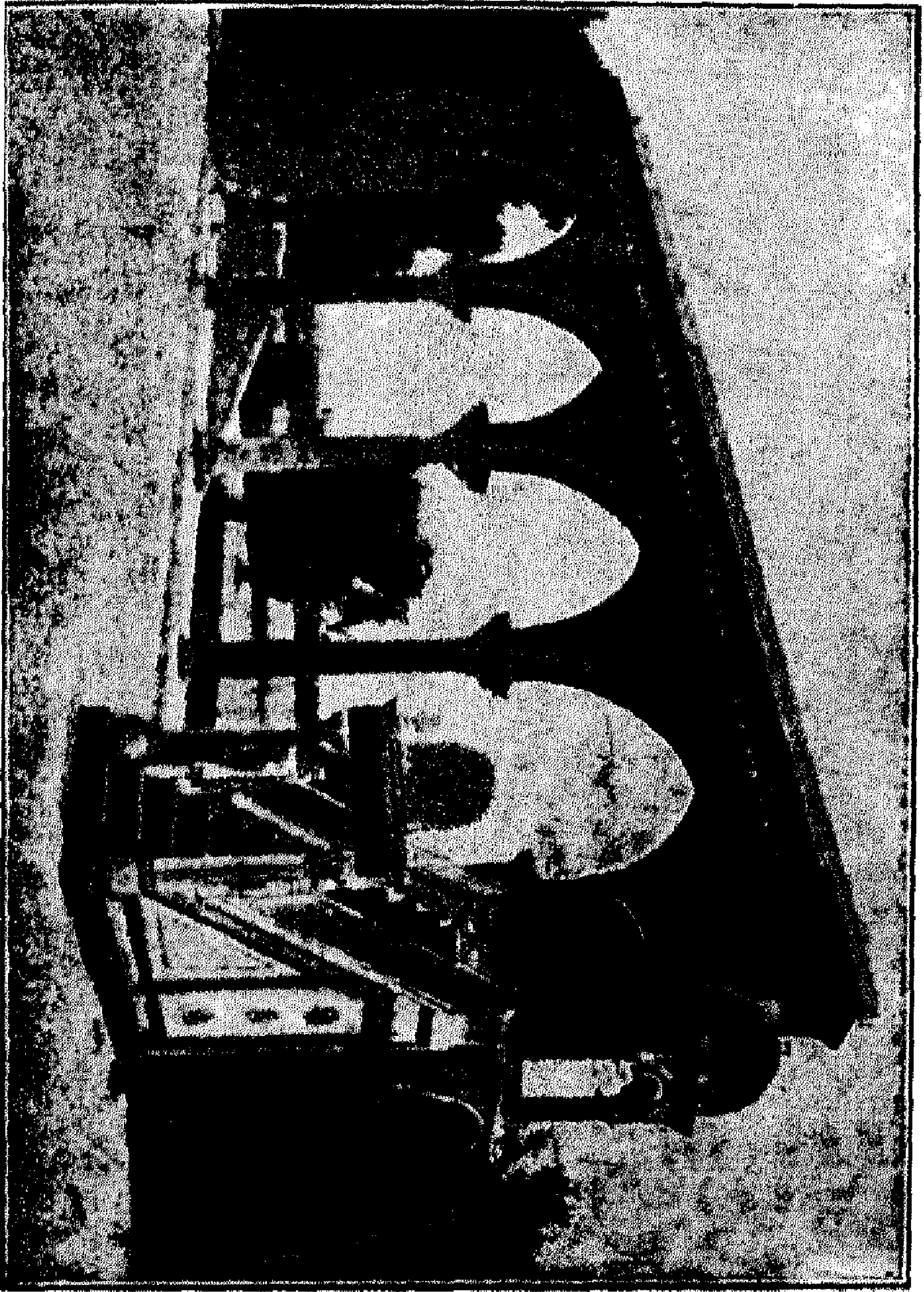


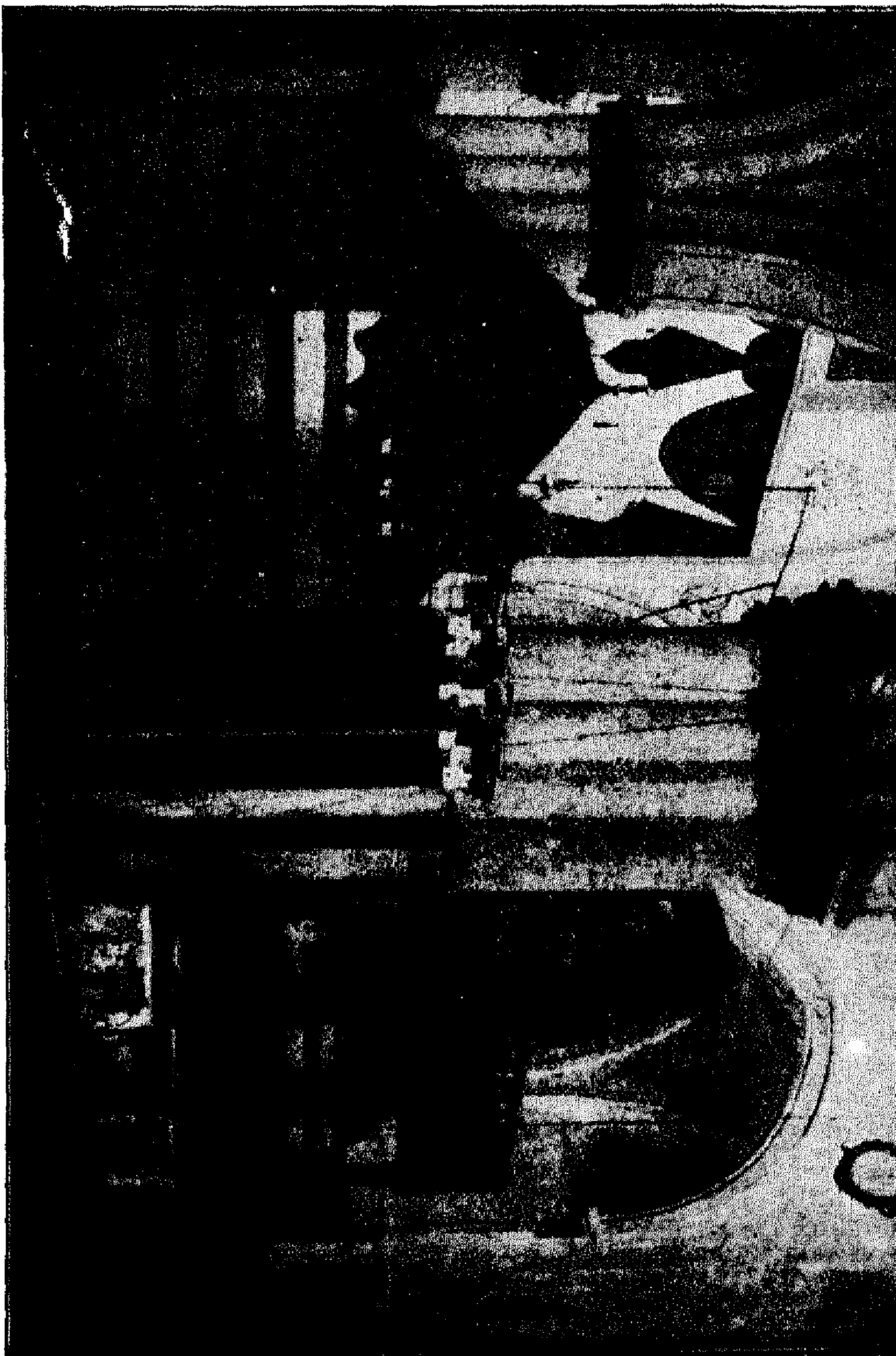


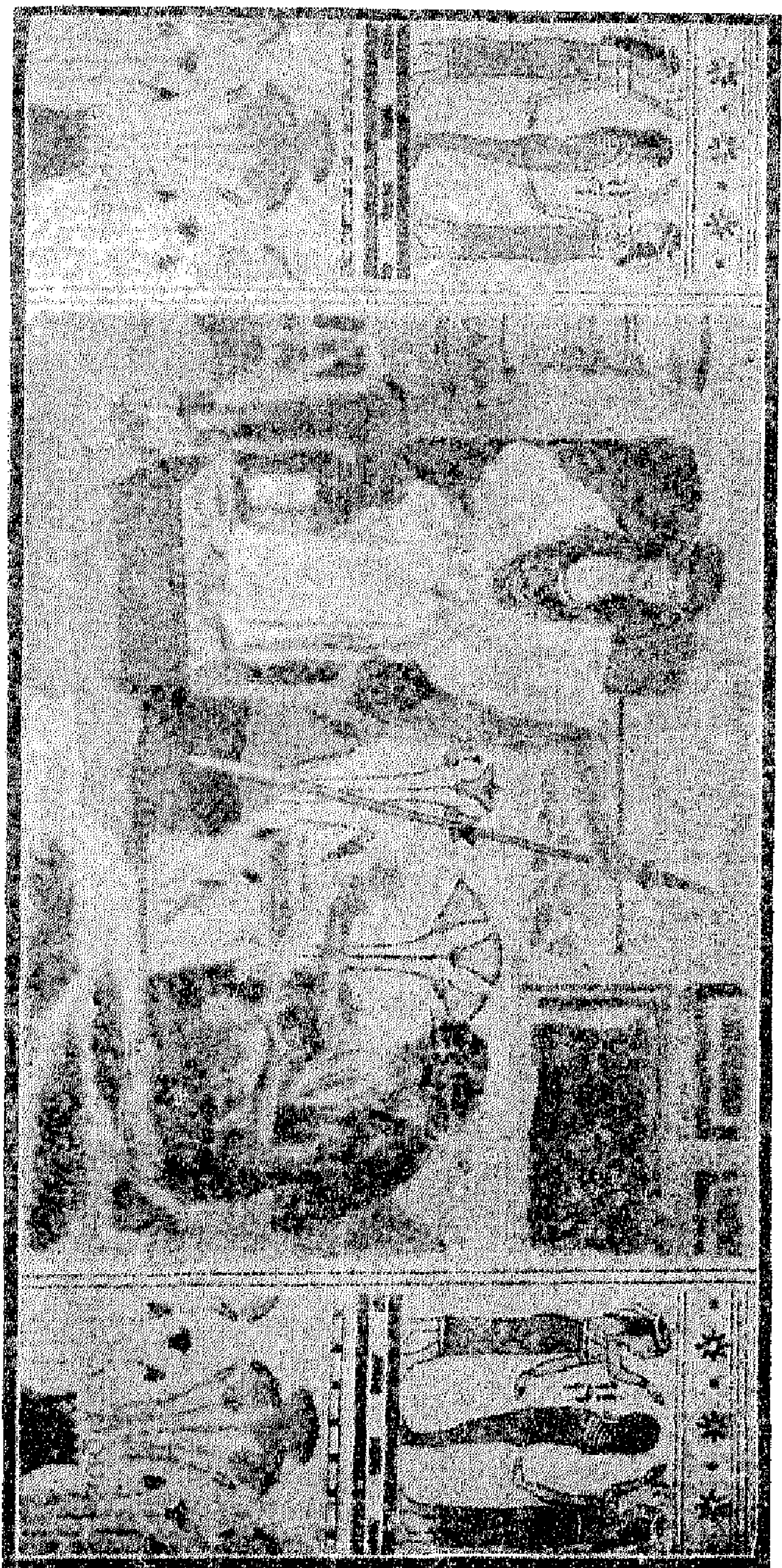


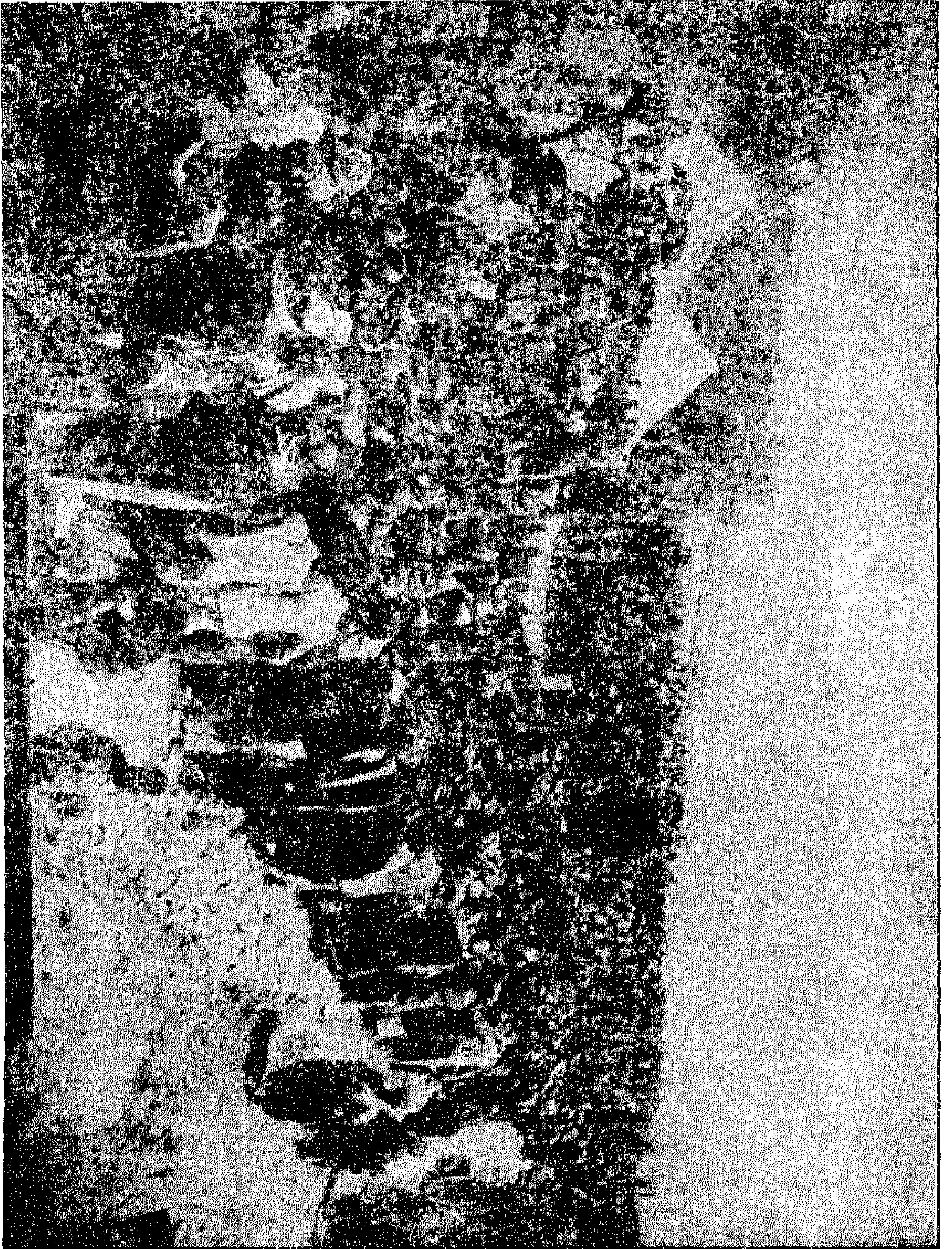






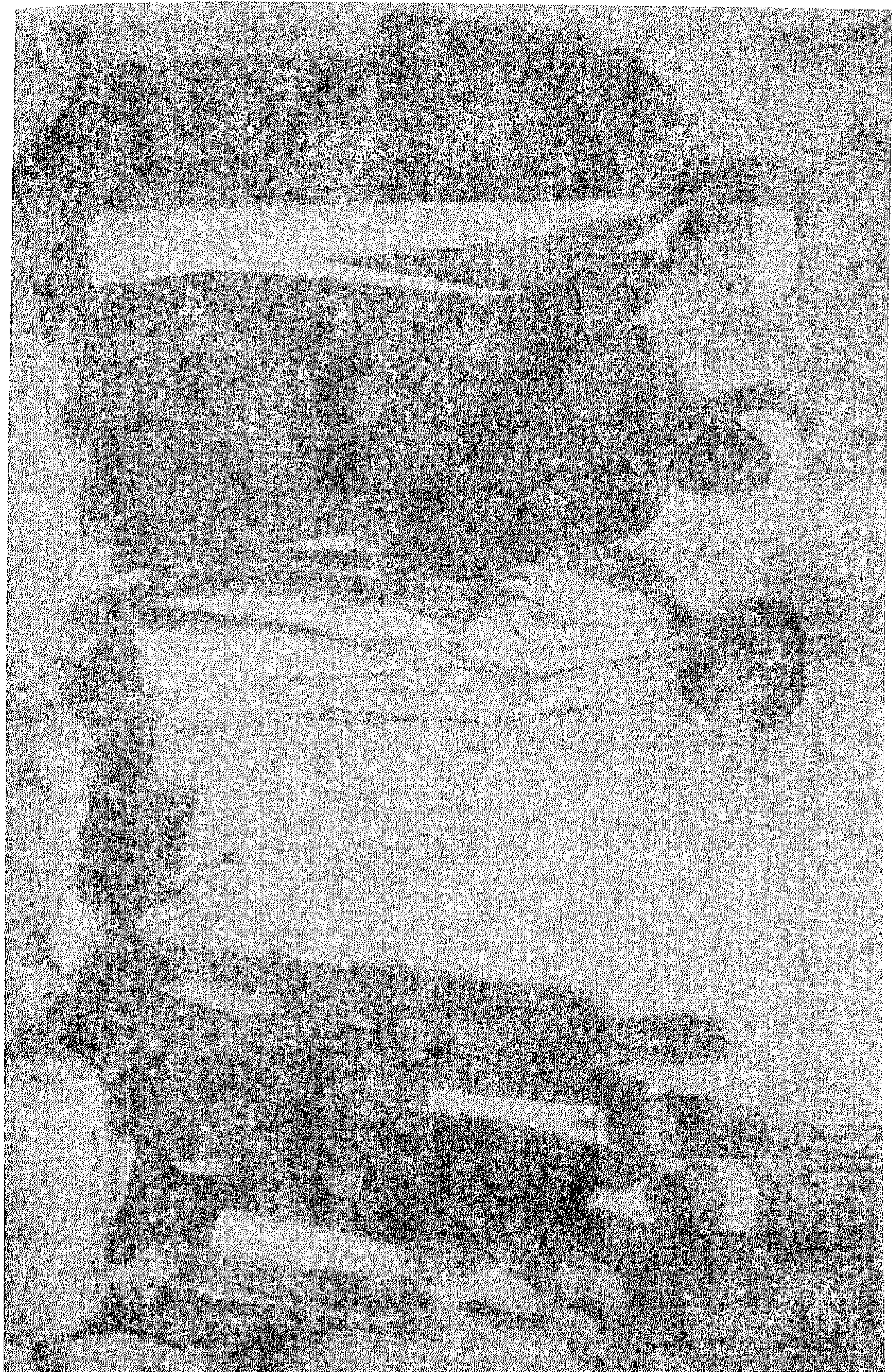


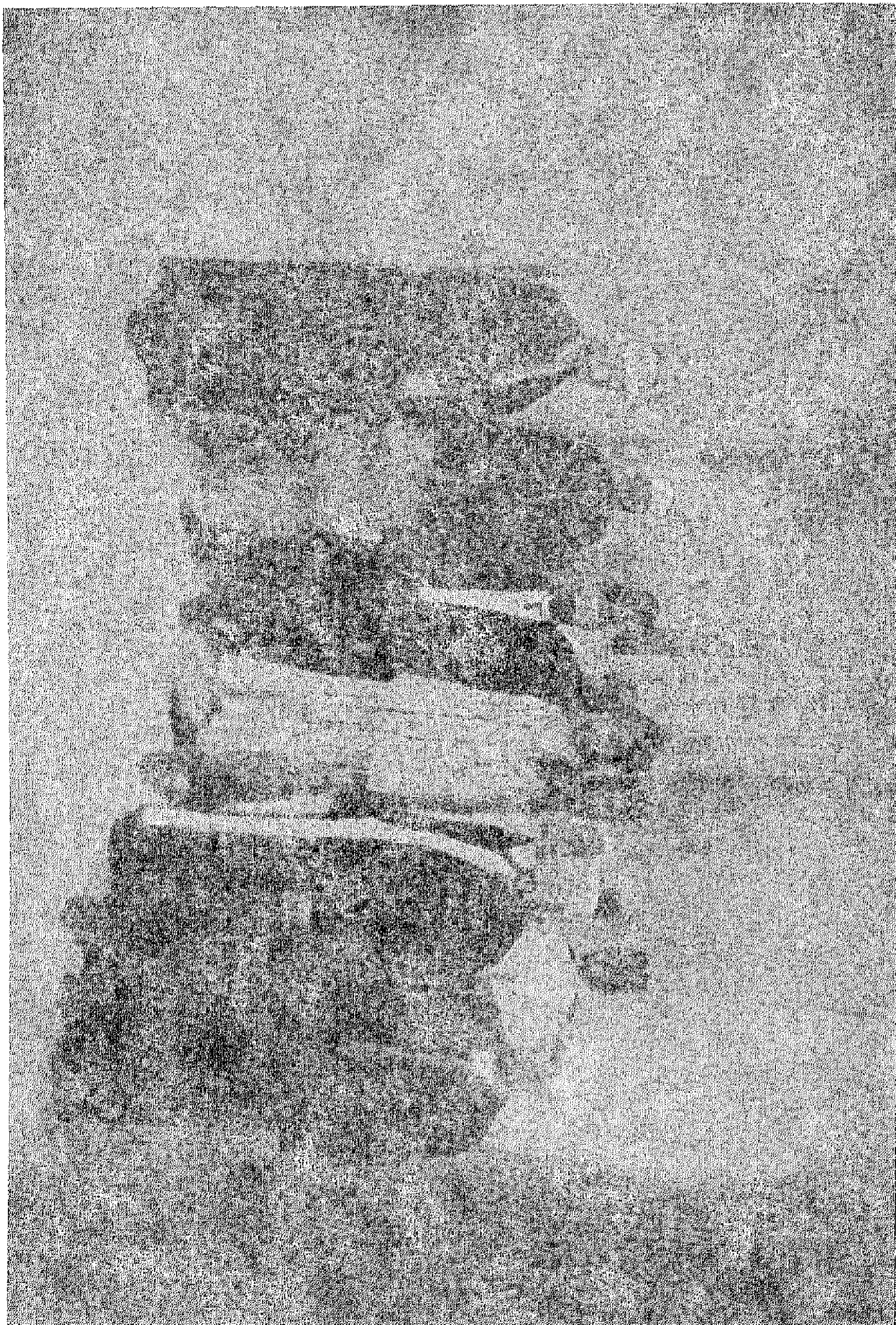




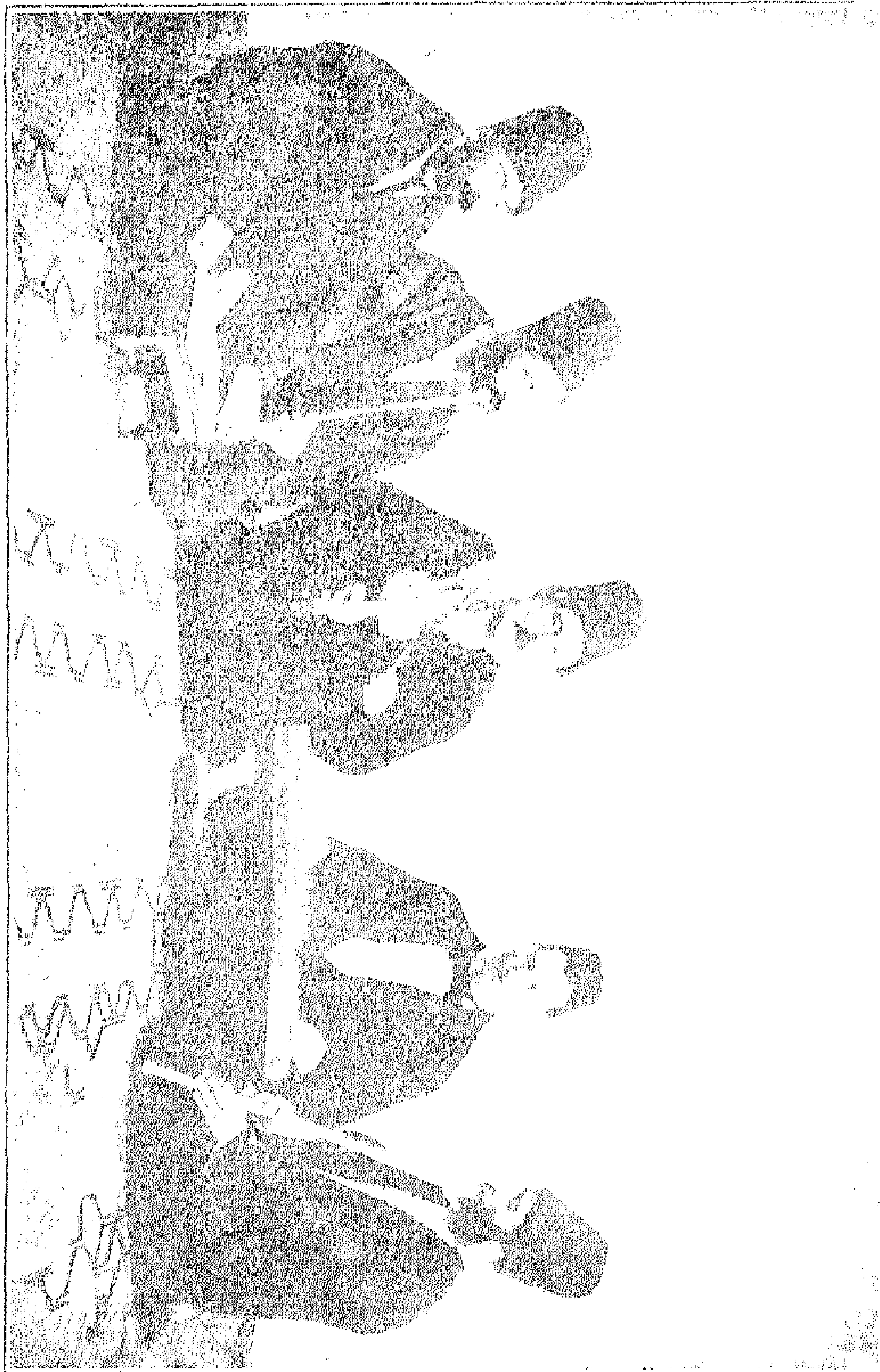




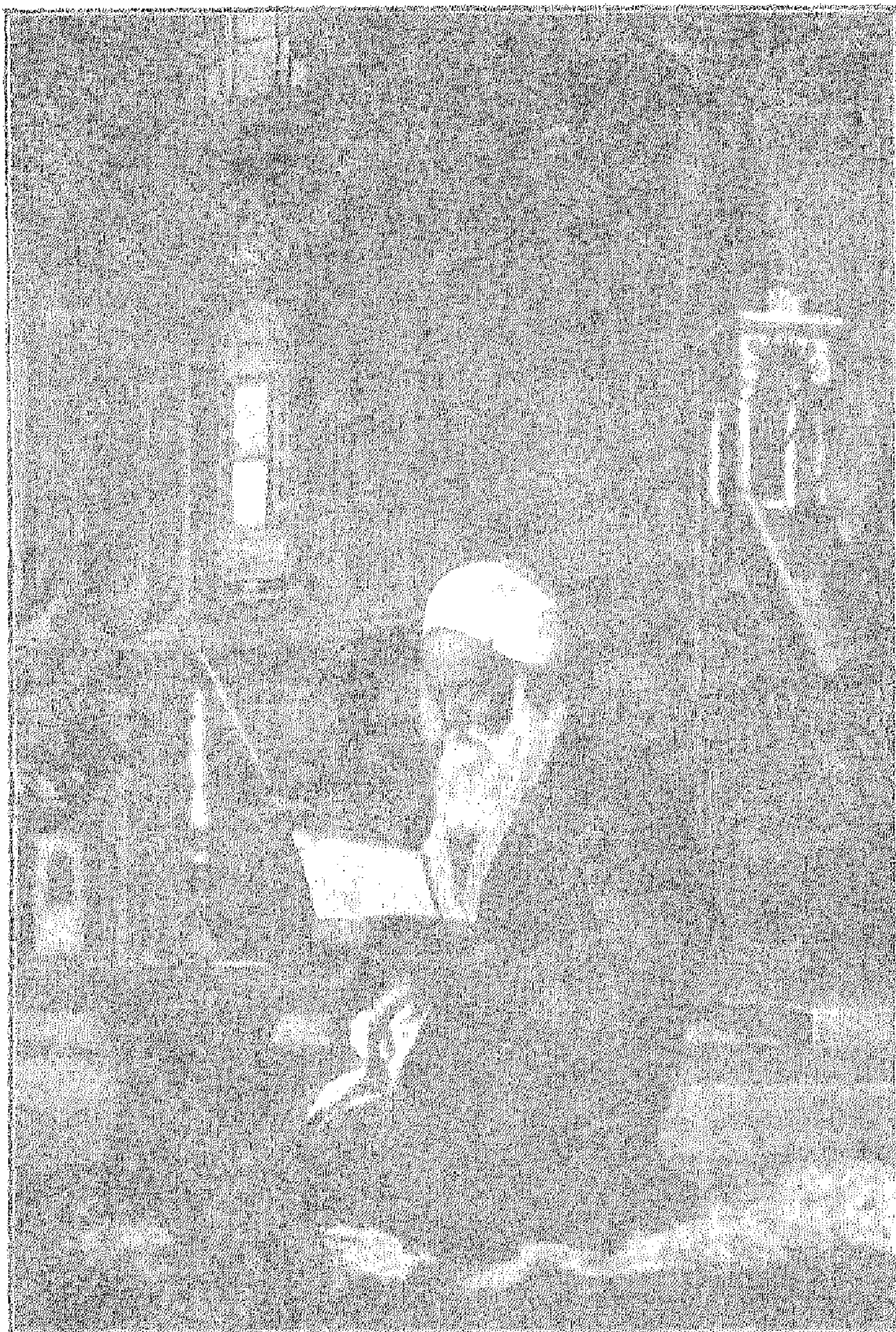


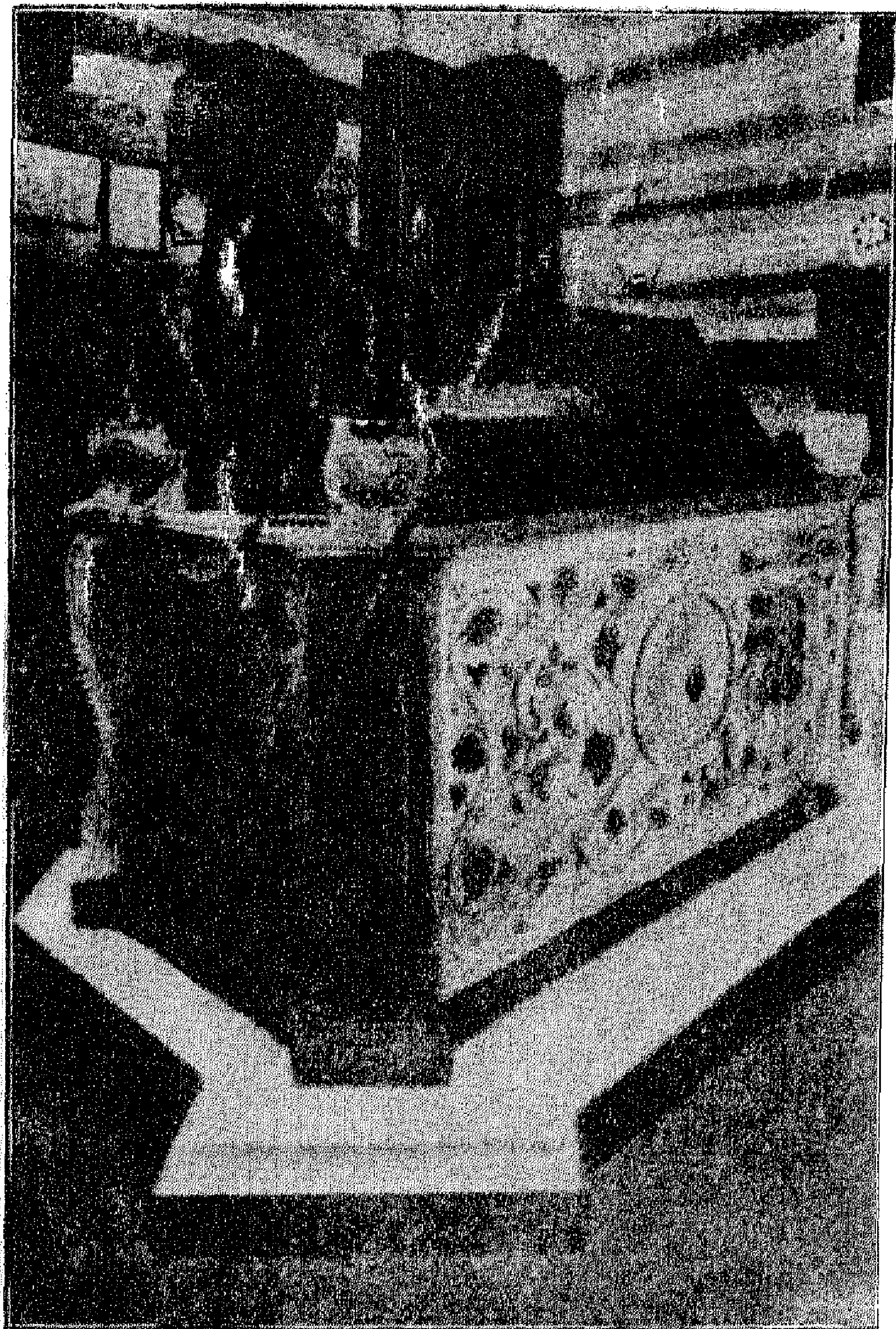














المحتويات

مقدمة المترجم	5
مقدمة المؤلف	9
بداية الرحلة – ٢١ مايو ١٩١١م/ ٢١ جمادى الأولى ١٣٢٩ هـ	13
داخل الهند – ٢٢ مايو ١٩١١ م	19
السفينة أفريقيا – أول يونيو ١٩١١ م	27
فى بحر سقطرى – ٥ يونيو ١٩١١ م	36
الوصول إلى عدن – ٧ يونيو ١٩١١ م	42
فى البحر الأحمر – ٨ يونيو ١٩١١ م	50
الوصول إلى السويس – ١٢ يونيو ١٩١١ م	57
الوصول إلى القاهرة	65
الحياة فى القاهرة – ١٤ يونيو ١٩١١ م	75
الآثار الإسلامية والفرعونية – ١٥ يونيو ١٩١١ م . . .	80
معصية الله	98
القدرة الإلهية	101
الزبير باشا ملك السودان السابق	102
لقاء مع مدير تحرير جريدة اللواء –٢٣ يونيو ١٩١١م .	117

لقاء مع مدير المنار رشـيد رضا - ٢٤ يونيو ١٩١١ م . 118
مصر الجديدة - ٢٥ يونيو ١٩١١ م 119
تجار السند الهندوس فى القاهرة - ٢٦ يونيو ١٩١١ م 122
السفر إلى طنطا - ٣٠ يونيو ١٩١١ م 127
الوصول إلى الإسكندرية - أول يوليو ١٩١١م 133
فى بور سعيد - ٢ يوليو ١٩١١م 137
من يافا إلى بيت المقدس - ٣ يوليو ١٩١١ م 138
حج النصارى 143
الروافض من الإنجليز 145
مـرقـد المسـيح 146
الدعاء فى محراب زكريا عليه السلام 147
صلاة الجمعة فى المسجد الأقصى 151
طلب إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام 157
زياردة لبعض مدارس القدس - ٩ يوليو ١٩١١ م . . . 165
الجمعية الأمريكية النصرانية - ١٣ يوليو ١٩١١ م . . . 174
فى الحرم المقدسى - ١٤ يوليو ١٩١١ م 177
حفل تنصيب حاكم القدس الجديد - ٥ ١يوليو ١٩١١ م 185
حفل فى مدرسة حكومية - ١٦ يوليو ١٩١١ م 188
مزار السيـدة مريم - ١٧ يوليو ١٩١١م 191

حفل الجمعيــة الأمريكية – ١٨ يوليو ١٩١١ م 196
لقاء حاكم القدس – ١٩ يوليو ١٩١١ م 199
سجين أفغانى بالقدس – ٢٢ يوليو ١٩١١ م 207
الرحيل من القدس – ٢٣ يوليو ١٩١١ م 213
فى يافا مرة أخــرى – ٢٤ يوليو ١٩١١ م 218
السفينة النمساوية انكرا – ٢٥ يوليو ١٩١١ م 221
حيفا – ٢٦ يوليو ١٩١١ م 222
من بيروت إلى دمشق – ٢٨ يوليو ١٩١١ م 225
فى دمشق – ٢٩ يوليو ١٩١١ م 230
مــرقــد بلال رضى الله عنه 232
قـبــر يزيد 236
مزار حضرة ابن عربى 238
أقدام شيخ كردى خــارج القبر 241
الــربــوة 242
الجامع الأموى 243
السفر إلى المدينة المنورة – أول أغسطس ١٩١١ م . . . 246
سكة حديد الحــجاز 247
تأجيل كـتابة اليومـيات 248

حـادثة 250
تبوك 251
المدينـة المنورة 251
دخـول المدينة المنورة 253
إضاءة الحـرم 258
الصـلاة فى الحـرم 260
القبة المطهرة والأطفال 260
مـعجـزة 262
البدر فى سماء المدينة 263
شوارع المدينة 264
حـالـة القلب 265
خارج الحرم - مزار سيدنا عبد الله 272
جنة البـقيع 273
ميدان أحد - منظر مؤسف - مسجد قباء 274
المكتـبات 275
شيـخ الحرم 276
رئيس شـرطة المدينة حسن بصـرى 278
لجنة بـلدية المديـنة 278
العـــودة 279

حضرة الشيخ عبد الجليل مدير مجلة الحقيقة	280
الاستقبال	283
نتائج وإرشادات ضرورية	284
الأعمال المخفية ونسخ الكيميا	288
تأثير أسماء البارى تعالى	288
نقش تسخير	289
تأثير الآيات القرآنية	290
الكيميا	290
عشب الكربيونا	291
احتياطات واجبة	293
حواشى وتعليقات	295

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر ألن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	الان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ –نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣–الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث | كارلوس فوينتس | ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء | ميجيل دي ليبس | ت : علي عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة | تانكريد دورست | ت : عبد الغفار مكاوي
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية) | إنريكي أندرسون إمبرت | ت : علي إبراهيم علي منوفي
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس | عاطف فضول | ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية | روبرت ج. ليتمان | ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) | فرنان برودل | ت : بشير السباعي
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى | نخبة من الكُتاب | ت : محمد محمد الخطابي
١٥٣ – غرام الفراعنة | فيولين فانويك | ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت | فيل سليتر | ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكي المعاصر | نخبة من الشعراء | ت : أحمد مرسي
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى | جي أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو | ت : مي التلمساني
١٥٧ – خسرو وشيرين | النظامي الكنوجي | ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢) | فرنان برودل | ت : بشير السباعي
١٥٩ – الإيديولوجية | ديفيد هوكس | ت : إبراهيم فتحي
١٦٠ – آلة الطبيعة | بول إيرليش | ت : حسين بيومي
١٦١ – من المسرح الإسباني | اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا | ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة | يوحنا الآسيوي | ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١ | جوردون مارشال | ت بإشراف : محمد الجوهري
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور) | چان لاكوتير | ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب | أ . ن أفانا سيفا | ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل | يشعياهو ليڤمان | ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – في عالم طاغور | رابندرانات طاغور | ت : شكري محمد عياد
١٦٨ – دراسات في الأدب والثقافة | مجموعة من المؤلفين | ت : شكري محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية | مجموعة من المبدعين | ت : شكري محمد عياد
١٧٠ – الطريق | ميغيل دليبيس | ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد | فرانك بيجو | ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس | مختارات | ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣ – معنى الجمال | ولتر ت . ستيس | ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء | ايليس كاشمور | ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون في الحياة اليومية | لورينزو فيلشس | ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية | توم تيتنبرج | ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف | هنري ترويا | ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليوناني الحديث | نخبة من الشعراء | ت : محمد حمدي إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب | أيسوب | ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد | إسماعيل فصيح | ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبي الأمريكي | فنسنت . ب . ليتش | ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحي العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلي النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمي سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : علي يوسف علي
٢٠٧ – ليل إفريقي	رامون خوتاسنديير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائي الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فرديتان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

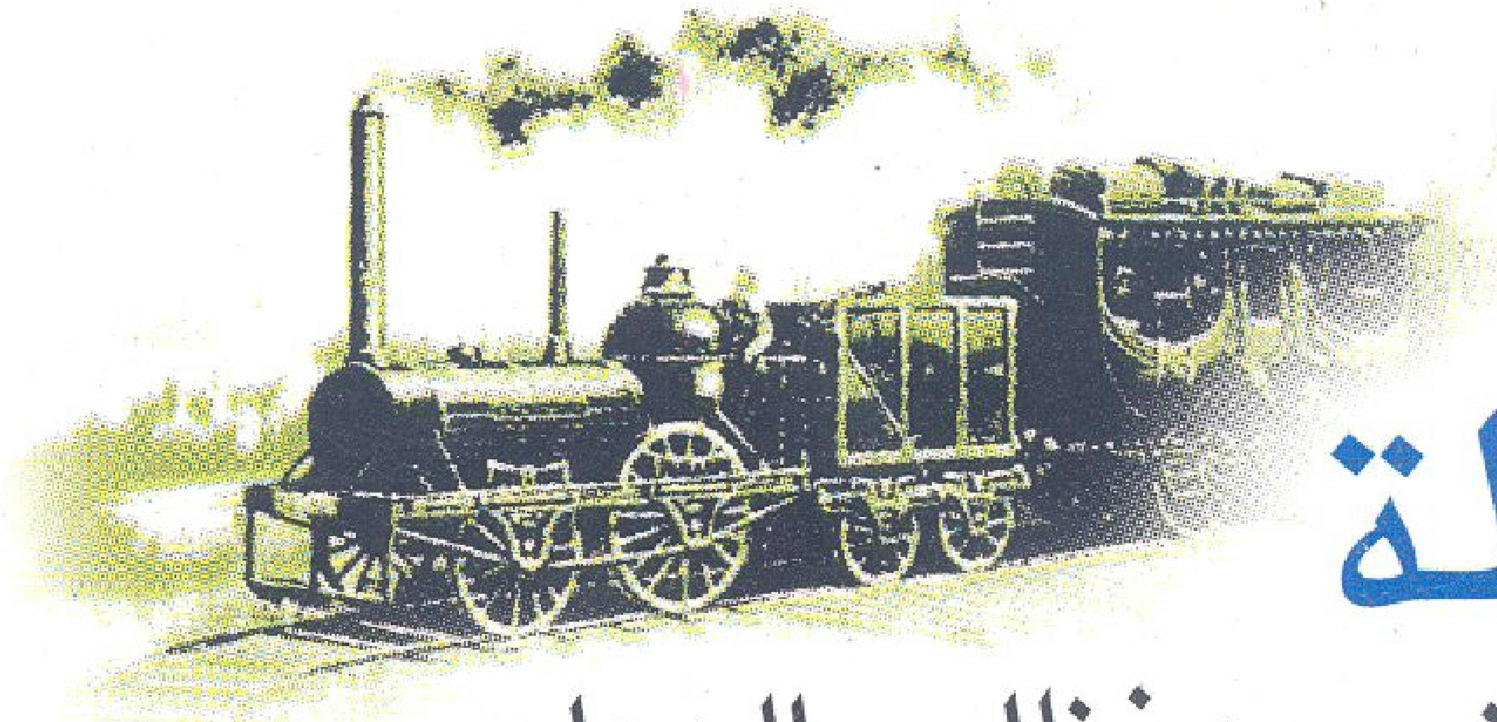
٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد منديثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جالاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على اليمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٦١٧ / ٢٠٠١

المجلس الأعلى للثقافة



رحلة
خواجة حسن نظامى الدهلوى
فى مصر وفلسطين والشام والحجاز

(١٩١١ م)

يمكن تصنيف هذا الكتاب ضمن أدب الرحلات الذى يحتل - بلا شك - مكانة عاليه بين فنون الأدب فى اللغات العالمية ، وله علاقة وطيدة بجميع العلوم الاجتماعية تقريبًا . وهنا تكمن أهمية هذه الرحلة ، ويزيد من أهميتها مكانة مؤلفها بين أدباء شبه القارة الهندية الباكستانية ، والفترة الزمنية التى مضت عليه (قرن تقريبًا) والبلاد التى سافر إليها الكاتب وهى : مصر وفلسطين والشام والحجاز ، بالإضافة إلى الصور النادرة التى أثبتناها مع الترجمة نقلاً عن الكتاب الأصلى بتوقيع المؤلف ، والتى يرجع تاريخها إلى سنة ١٩١١م .

وقد حرص المترجم على أن يضيف بعض التعليقات - وهى تعليقات مختصرة مفيدة - تاركًا أمر دراسة هذه الرحلة بجوانبها المختلفة للمتخصصين كل فى مجال تخصصه ، نظرًا لأنها تفيد المتخصصين فى اللغة والتاريخ وعلم الاجتماع ، والمتخصصين فى دراسات التصوف والعلوم السياسية المهتمين بدراسة تلك الفترة الزمنية من تاريخ العالم الإسلامى والعربى .

تصميم الغلاف : أسامة العبد